لويزا ماي إلكوت

فتاة من الطرازِ القديم

مكتبة ياسمين

ترجمة:
أميرة الوصيف

سمرة

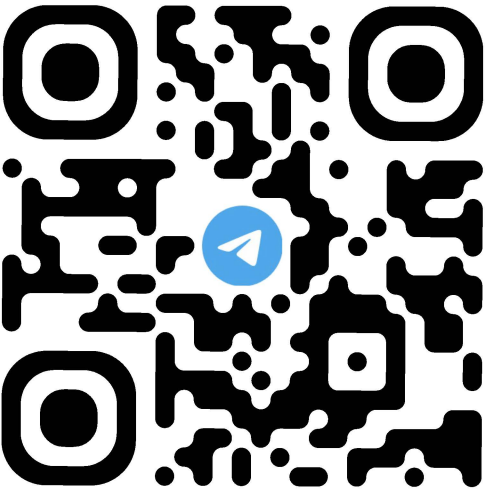

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

فتاة من الطرازِ القديم

رائعة الكاتبة

لويزا ماي إلكوت

واحدة من أكثر الروايات مبيعًا في العالم

ترجمة:

أميرة الوصيف

2023

نيرة

مقدمة

يجدر بنا الإشارة إلى أن مُقَدمة الكتاب هي المساحة الوحيدة التي تتيح للكاتب تفسير غرضٍ ما أو الاعتذار عن قصورٍ ما في عمله، وهنا تحديدًا أتجرأ على استغلال تلك الفرصة بصفتي مؤلفة الرواية للإدلاء بتصريح ربما يعود بالنّفع على القراء.

يمكنني القول إن الجزء الأول من رواية «فتاة من الطراز القديم» كُتِب عام 1869، الأمر الذي تطلب بدوره توجيه بعض الرسائل الصغيرة التي جعلتني أقدّم عمر بطلتنا نحو ست أو سبع سنوات بالنظرِ إلى المستقبل، لكني أعتقد أن الطابع المحلي لأحداث القصة قد جعل خط سيرها بتلك السرعة أمرًا مُمكنًا ومقبولًا، لذا أتمنى أن تتمكن مُخيلة القُرّاء من سَد جميع النواقص والتَغاضي عن كل الاختلافات.

أتمنى بصدق أن يريح هذا التفسير أصحاب العقول المُنظمة الذين لا يقتنعون في أكثر الأحيان ببعض التمرد الأدبي أو الفوضى الناجمة عن إصابة القارئ بالدهشة من الحيرة من أن تكون تلك التجربة الروائية قد تكررت في كتابٍ آخر.

إنني في تلك الرواية لا أقدم الفتاة ذات الطراز القديم أنموذجًا مثاليًا ولكني أقدمها إلى القارئ بصفتها تمثل التطور الذي شهدته الفتاة

عمومًا في تلك الحقبة الزمنية، صورة الأنثى التي تمسك بأنماط الموضة القديمة التي تجعل الفتاة تبدو جميلة متألقة متشبثة بمعاييرها الخاصة، كما أنها أيضًا تُسلط الضوء على موطنها، ذلك المكان السعيد حيث يجتمع الآباء والأطفال والإخوة والأخوات متغنين بلغاتِ الحب ومُساعدة الآخر.

لقد حرصت من خلال سرد تفاصيل الفتاة الريفية بولي بطلة القصة على ذكر تلك التلميحات والدروس التي تخص هذا الجيل على الرغم من كل العقبات والعراقيل، فلم أتجاهل تلك النماذج المختلفة لرجال ونساء هذا العصر الذي سُررت بالكتابة عنه.

وأخيرًا أبعث باقات من الحب والتقدير إلى الزملاء والنقاد والأصدقاء الذين قدموا لي كل الدعم خلال مشواري المهني.

لويزا ماي ألكوت

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الأول

- حان موعد الذهاب إلى محطة القطار.

- بربك! تمهلي قليلًا! حسنًا، إذًا تعالي معي. قال توم.

- كلا، لا يمكنني القدوم معك، الأرض مُبلّلة بسبب سقوط أمطار غزيرة، كما أنه عليّ الاعتناء بمظهري جيدًا، أريد أن أبدو في حالة جيدة عند قدوم صديقتي بولي.

- أعتقد أنكِ لا تتوقعين أن أذهب إلى المحطة لإحضار فتاة غريبة إلى هنا بمفردي، أليس كذلك؟ سألها توم وبدا منزعجًا جدًا لكون أخته تطلب منه مُرافقة فتاة أستراليا المتوحشة الطائشة.

- أنا أدعوك بالفعل إلى مرافقتها إلى هنا، فهذا واجبك على أي حال أن تذهب إلى محطة القطار وتصطحبها إلى المنزل إلا إذا كنت دبًا كسولًا.

- في الواقع هذا تصرُّف في غاية اللؤم يا عزيزتي! أعتقد أنه كان يُمكنني الذهاب إلى هناك بالفعل لو أنكِ رافقتني كما قلتِ في السابق. أظن أنه ما من وقت لديّ حتى أتطفل على أصدقائك وأزعجهم! شكرًا لك. قال توم بنبرة غاضبة ساخطة ثم نهض عن الأريكة بسرعة كأنه اتخذ قراره الحاسم بعدم الذهاب، ذلك التعبير العجيب الذي رسمه على وجهه الذي عادةً ما ينهار بسبب مظهر شعره الأشعث والحناءة ظهره التي تعكس

ملابسه المُترهلة عمومًا.

- لا تنزعج الآن يا عزيزي، من فضلك اهدأ قليلًا، وأعدك أن أطلب من أمي أن تسمح لك بالحصول على تلك الأسطوانة الموسيقية التي أُغرِمت بها في السابق، هيا يجدر بك الآن الذهاب لاصطحاب صديقتي بولي. قالت شقيقته فاني آملةً تهدئة أعصابه المُضطربة.

- إلى متى ستبقى صديقتك هنا؟ قال توم مادًّا يده في مصافحة هزلية مُصطنعة لشقيقته فاني استجابةً لصفقتها.

- ستبقى بولي مدة شهر أو شهرين، في الواقع هي فتاة لطيفة جدًا، ولذا فإني أرغب بشدة في استضافتها هنا معًا ما دامت سعيدة.

- أعتقد أنها لن تمكث هنا طويلًا إذا أمكنني المساعدة في الأمر. تمتم توم بهذه الكلمات بلهجة ساخرة، فهو ينظر إلى الفتيات من حوله ككائنات عديمة النفع والفائدة، فهذه هي طبيعة تفكير الفتيان ذوي الأربعة عشر عامًا، جميعهم يميلون للاعتقاد بصحة ذلك، وربما هو ترتيب يتسم ببعض الحكمة، فكثير من النتائج والإشارات العامة توحي بأنه في معظم الأحيان تنقلب عليهم تلك القاعدة بشكلٍ مجازي ساخر، وتجد الواحد منهم قد أصبح عبدًا خاضعًا لإحدى «الفتيات المُزعجات» بعد مرور ثلاثة أو أربعة أعوام لاحقة.

- ولكن أخبريني الآن! كيف لي أن أعرف تلك المخلوقة على أي حال، فأنا لم أرها من قبل كما أنها لم ترني يوماً. أعتقد حقًا أنه يجدر بك مرافقتي إلى محطة القطار يا فاني. قال مضيفًا ثم توقف مؤقتًا في طريقه المؤدي إلى الباب بعد أن خطرت على باله تلك الفكرة المربكة السيئة التي تقول إنه ربما يضطر إلى معرفة فتيات سيئات كثيرات قبل أن يتعرف بدوره على الفتاة المناسبة!

- اطمئن يا عزيزي، سوف تتمكن صديقتي بولي من التعرف عليك بسهولة بالغة، وربما تجدها تبحث عنا في أثناء تجولها في محطة القطار، أنا متأكدة من أنها ستجدك على الفور على الرغم من عدم وجودي برفقتك وذلك لأني وصفتك لها جيدًا.

- ولكن ماذا لو لم تتعرف إليّ، إذًا؟ سألها توم بعد أن مسح بيده شعره المجعّد، بعد أن ألقى نظرة خاطفة في المرآة شاعرًا أن أخته لا تعامله معاملة عادلة ومنصفة. إنه على قناعة أن «الشقيقات» لا يعاملن أشقاءهن بعدالة على أي حال.

- هيا يا توم اذهب الآن والا ستتأخر، وحينها ما الذي ستظنه بي بولي؟ صاحت فاني ثم لكزته بسرعة في مرفقه، تلك الحركة التي ضاعفت شعوره بالغضب والارتباك.

أراد شقيقها إغاظتها قليلًا، فقال لها ساخرًا:

- ربما ستظن صديقتك بولي أنكِ تهتمين لأمر خصلات شعركِ المجعدة تلك أكثرَ من اهتمامك بأصدقائك وستكون مُحِقَّة في ذلك!

في تلك اللحظة التي تفوه فيها توم بتلك الكلمات شعر كأنه انتصر لنفسه لقوله عباراتٍ أنيقة قاطعة، ثم مضى بخطى وئيدة دون أن يبدي أي نية في الإسراع من خطواته خوفًا من التأخير، وسار على هذا النحو حتى اختفى من المشهد.

قالت فاني وهي تُراقب أخاها يمضي في طريقه نحو الشارع: «لو أني كنت رئيسة البلاد لأصدرت قانونًا يمنع حديث الأولاد نهائيًا إلا بعد بلوغهم سِن الرشد، فهم حقًا في نظري أكثر كائنات العالم سخافة». لعلها لو غيرت رأيها وذهبت معه لأدركته خلال تلك المدة فقد تعمد في البداية السير ببطء، ثم ارتبك فجأة مُخرجًا يديه من جيوبِ معطفه ووقف جامدًا في مكانه يصفّر، ثم أغلق أزرار معطفه وعدّل قبعته ومضى بسرعة هائلة مباغتة.

بينما وصل القطار إلى المحطة وطأت أقدام توم المكان، ثم تقدم إلى الأمام لاهثًا كأنه شارك في سباق للخيل، وقد توردت وجنتاه حُمرَة بفعل الشمس والركض.

ظل يحدث نفسه كالمجنون في ارتباك قائلًا:

قال توم: «ولكن، أفترض لو أنها كانت ترتدي قبعة أو خوذة تمامًا كالجميع، إذًا، فكيف لي أن أعرفها؟ فمن السيئ حقًا أن فاني قد أجبرتني على المجيء إلى هنا بمفردي» ثم واصل مراقبة الحشود الوافدة إلى محطة القطار، ثم شعر برهبة مفاجئة في تلك اللحظة التي مر فيها إلى جواره حشد من الفتيات اليافعات حيث لم يبد على أي واحدة منهن أنها تبحث عن أي شخص، وعلى الرغم من أنه لم يكن ليحاصرهن بالنظرات فإنه نظر إلى كل واحدة شاعرًا أنه يؤدي دور الضحية ثم وقعت عينه على إحداهن، فقال لنفسه:

- من المؤكد أنها تلك الفتاة الواقفة هناك!

كانت الفتاة تقف إلى جوار مجموعة أخرى رائعة من الفتيات شابكة يديها مرتدية قبعة صغيرة على رأسها.

اقترب توم من الفتاة شيئًا فشيئًا، ثم تأملها ليشعر كأن الرياح قد أربكت ثوبها وحولته إلى مجموعة من الخرق البالية والأسمال، كما أنها كانت ترتدي كثيرًا من الأوشحة والأقمشة والريش وخصلات الشعر الإضافية المستعارة.

- من فضلك، هل اسمك بولي ميلتون؟ سألها توم بلطف قبل أن يتجمد واقفًا أمام تلك الفتاة الغريبة.

- كلا، هذا ليس اسمي، قالت الفتاة على الفور،

ثم رمقته بنظرةٍ باردة.

- يا إلهي، أين هي بحقِّ الجحيم! قال توم مُتذمرًا ثم مضى بسرعة بالغة. وفجأة سمع الفتى صوت خطوات أقدام خلفه، وحينها التفت ليلقي نظرة خاطفة ليرى فتاة جميلة تركض في الاتجاه المؤدي إليه وتبتسم له ملوحةً بحقيبتها نحوه، فتوقف في مكانه منتظرًا ثم تساءل:

- هل تلك الفتاة هي بولي فعلًا؟! تقدمت نحوه الفتاة بخطى ثابتة ثم مدت له يدها شاعرةً ببعض الخجل والارتباك ومزيج من السعادة التي خضبت وجنتيها باللونِ الوردي، بينما تألقت صفحة عينيها باللونِ الأزرقِ المشرِق، وقالت:

- هل أنت توم؟

- أجل، كيف عرفتِ ذلك؟

قال توم ثم صافحها بحماسٍ على الفور دون تفكير إلى الحدِ الذي أدهشه وأربكه.

قالت بولي: أوه! في الواقع لقد أخبرتني فاني أنك تملك شعرًا مُجعدًا وأنفًا مضحكًا كما أنك تصفر دائمًا وترتدي قبعةً طويلة تكاد تُخفي عينيك وشعرك الأحمر، لذا عرفتك على الفور!

ثم ابتسمت له بطريقة ودودة أزالت آثار الأوصاف التي ذكرتها للتو التي تخص الشعر الأحمر والأنف المُضحك والقبعة الطويلة التي تُخفي العينين وغيرها من الأشياء التي تركت كامل

أثرها في ذاكرتها.

سألها توم: أين بقية حقائبك؟ كأنه تذكر مهمته على الفور عندما لوّحت له بحقيبتها التي لم يعرض عليها أن يحملها مُباشرة.

قالت بولي: قال لي أبي ألا أنتظر أي شخص في محطة القطار، كما أنني قد منحت أحد الحمالين بعضَ النقود حتى يحتفظ بحقيبتي معه، أظن أنه ذلك الرجل الواقف هناك، ثم مضت على عجل إلى الأمام ولحق بها توم الذي أدهشه انصياعه لها على هذا النحو ثم همس لذاته:

- إنها لا تبدو فتاةً صغيرة جدًّا! كما أن شقيقتي لم تخبرني أنها بهذا القدرِ من الجمال أضِف إلى ذلك أنها لا تبدو مثل فتياتِ المدن ولا تتصرف مثلهن. قال توم بصوتٍ خفيض في أثناء سيره خلفها متأملًا خصلاتِ شعرها البُنية التي تقفز على جبهتها برِقّة.

عندما انطلقت العربة اهتزت بولي قليلًا على مقعدها الربيعي ثم ضحكت بمرحٍ كالأطفال.

قالت: في الواقع يُعجبني جدًّا السفر في هذه الأوقات من العام، أنا مغرمة جدًّا برؤية كل تلك الأشياء الجميلة المُبهجة من حولي، فليس هناك أجمل من قضاء الأوقاتِ المُمتعة، أليس كذلك؟ ثم عدلت من وضعيتها خلال دقيقة كأنها على وشك القيام بخطوةٍ ما.

قال توم: ليس كثيرًا، كأنه لا يهتم بما يقوله أصلًا. ففي واقع الأمر لقد كان يفضل الصمت في أثناء وجوده برفقة تلك الفتاة التي سرعان ما احتلت روحه.

سألته بولي: كيف حال فاني؟ ولماذا لم تأت معك أيضًا؟ محاولةً أن تبدو أكثر رزانة فيما واصلت عيناها رقصها رغمًا عنها.

قال توم مُبتسمًا: أعتقد أن شقيقتي تخشى أن تُبلل الأمطار بشرتها! كأنه استعاد بعبارته الساخرة تلك طبيعته القديمة مرةً أخرى.

ضحكت بولي ثم قالت:

- ولكن أنا وأنت لا نُمانع الرطوبة، في الحقيقة أنا ممتنة لك على مجيئك واعتنائك بي اليوم.

كانت تلك العبارة بادرة لطيفة منها، وقد شعر توم بصدق كلماتها، فإنه لم يكن يغفر قط لأي شخصٍ آخر مسألة التحدث عن لون بشرته الحمراء بنبرة ساخرة، فتلك نقطة شديدة الحساسية، ولكن ها هو ذا الآن يتعامل مع الأمر ببساطة شديدة. ومع أنه لم يفعل شيئًا أكثر من حمل حقيبة بولي بضع خطوات فقط فإنها شكرته بشدة.

شعر توم بالامتنان الشديد وبثقةٍ مُباغتة، قدّم لها حفنة من الفولِ السوداني التي تحتلِ جيوب معطفه دائمًا حتى أنه من الممكن تعقب آثار أقدامه في أي مكان عن طريق اللحاق بتلك

القشور التي تركها خلفه.

ما إن فعل ما فعل، حتى تذكر أن فاني كانت دائمًا تعتبر تصرفه هذا يتسم بالسوقية والفوضوية والبذاءة، وأنها طالما جعلته يشعر أنه يُلحق العار بالعائلة. ولذا أخرج رأسه من النافذة وجلس يحدق خارجًا وبقي هناك مدة طويلة، حتى أن بولي لاحظت شروده المفاجئ فسألته إن كان هناك خطب ما. تمتم بينه وبين نفسه قائلًا:

- ربما هي لا تهتم بتلك الأشياء الصغيرة!

رددها في يأس ثم سيطرت روح الاضطراب على نفسه.

فكر توم في تغيير الموضوع، لذا نظر إليها وقال بعد أن فكر قليلًا:

أعتقد أن السائق مخمور، وعلى هذا لا يمكنه التحكم في الخيول.

قالت بولي هاتفةً في فضول: ماذا؟ هل من الممكن أن يكون السائق مخمورًا حقًّا؟ يا إلهي! دعنا إذًا نخرج من هنا يا عزيزي! فالمكان هنا شديد الانحدار، هل تعتقد أنه آمن؟ ثم تأرجحت قبعتها الصغيرة وتحركت من جانبٍ إلى جانب في أثناء تحديقها خارج النافذة.

قال توم: لا داعي للقلق يا بولي، فهناك أشخاص كثيرون يمكنهم أخذنا إذا حدث أمر ما، لكن أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب وأجلس مع

السائق حتى يكون الوضع أكثر أمانًا. ثم تألقت عيناه بابتسامة توحي بالراحة.

قالت بولي مُستاءة: حقًّا؟ هل يمكنك ذلك؟ ألست خائفًا؟ سيكون من الأفضل ألا يحدث لي شيء كريه فأمي تخاف عليّ كثيرًا.

قال توم: لا تقلقي سوف أتدبر الأمر كله، سأراقب السائق العجوز حتى لا يفقد سيطرته على الخيول. ثم فتح باب العربة تاركًا بولي المسكينة تتأرجح على مقعدها في الداخل ليحصل على بعض الحرية من خلال جلوسه في الخارج إلى جانب السائق متناولًا برفقته كثيرًا من الفول السوداني.

هرولت فاني لرؤية صديقتها العزيزة بولي، كما أن توم قدمها بشكلٍ طريف ثم قال كأنه ظفر لتوه بالانتصار:

- لقد تمكنت من إيجادها!

لقد بدا في تلك اللحظة تمامًا كالصياد الماهر الذي يتباهى بقدراته ومهاراته على مرأى الجميع. تمايلت بولي في أثناء صعودها الدرج ثم رقصت بخفة في أثناء قفزها متوجهةً إلى الباب المُقابل لها، وحينها توجه توم إلى غرفة الجلوس لاستعادة نفسه بعد كل هذا الإجهاد وتناول بعض الكعك.

سألتها فاني: ألستِ مُتعَبَة حد الموت؟ ألا ترغبين في الاستلقاء على الفراش؟ ثم جلست إلى جانب فراشها تُثرثر بشأن جميع الأشياء التي حدثت برفقة

صديقتها بولي.

- في الواقع لست مُرهقة جدًّا، فلقد أمضيت وقتًا ممتعًا. ولم يكن هناك أي مشكلات على الإطلاق ما عدا سائق العربَة المخمور، ولكن توم تمكن من السيطرة على الموقف كُليًّا لذا لم يستمر شعوري بالخوف مدة أطول، أجابتها بولي البريئة ثم خلعت معطفها التقليدي وقبعتها الخالية من الريش.

قالت فاني: يا إلهي! لم يكن سائق العربَة مخمورًا، أختي توم هو من تعمد قول ذلك لافتعال مشكلة من لا شيء حتى يبقى بعيدًا عنكِ، فهو لا يطيق القرب الفتيات.

قالت الفتاة وقد فتحت عينيها في دهشة بالغة: ولماذا يفعل شيئًا كهذا؟ لماذا؟ لقد اعتقدتُ أنه مسرور بشدة لرؤيتي، فتعامله معي كان رائعًا.

- إنه فتى سيئ يا عزيزتي بولي، وإذا فعلتِ لي شيئًا ما سيرهبكِ حتى الموت. أعرف أنَ كل الأولاد أشقياء لكن أخي أسوأ فتى رأيته في حياتي بأسرها.

ارتادت فاني مدرسة عصرية، اعتادت فيها الفتيات الصغيرات التحدث باللغات الفرنسية والألمانية والإيطالية فقط، ولم يكن لديهن وقت للتحدث باللغة الإنجليزية الجيدة.

أرادت بولي تغيير موضوع المُحادثة، فعبرت عن

إعجابها بالغرفة الجديدة التي أعدتها صديقتها من أجلها، وقالت:

- إنها غرفة رائعة مُدهشة حقًّا يا عزيزتي! يا لها من مكانٍ فسيح رحب، في الواقع لم أنم يومًا في فراشٍ مُزَود بالستائر كهذا! ولم أحظَ بطاولةٍ رائعة كتلك!

- أنا مسرورة حقًّا لأن الغرفة أعجبتك يا عزيزتي بولي ولكن حاولي قدر الإمكان ألا تتفوهي بذلك أمام الفتيات الأخريات. قالت فاني متمنية بصدق أن ترتدي صديقتها أقراطًا مثل بقية الفتيات الأخريات في المدينة.

- ولِمَ لا؟ سألت بولي، أعني ما الضرر في أن يُعبر الإنسان دائمًا عن إعجابه الشديد بحاجاتِ الآخرين الجميلة؟ هل يسبب الأمر الأذى؟

- في الواقع يا عزيزتي إن الناس يسخرون بشدة ممن يتحدث بتلك النبرة ويعتبرونه يتفوه بالترهات.. وهذا ليس أمرًا جيدًا.

وصفتها فاني أيضًا بالفتاة «الريفية»، ما جعلها تشعر بعدم الارتياح، وعلى هذا فقد ارتبكت قليلًا وارتعشت يدها تحت تأثير الحرج، فكرت قليلًا ثم قررت ألا تُشير مُجددًا إلى وطنها الأصلي قدر الإمكان.

صاحت فاني بصوتٍ يطفح بالبهجة: في الواقع يؤسفني القول إن أمي أذنت لي أن أغيب عن

المدرسة معظم الأيام خلال وجودك معنا، وأن أحضر مرتين أو ثلاثًا في الأسبوع فقط لمتابعة دروسي في الموسيقا واللغة الفرنسية. أتعرفين؟ يمكنكِ القدوم أيضًا يا بولي. أجل! لقد قال أبي ذلك. فلو فعلت ذلك سنحظى بالمرح. وحينها دهشت بولي كثيرًا من تعلّق فاني بمدرستها وشغفها غير المألوف.

شاعرةً بالخجل الشديد، قالت بولي: إني أخشى أن أختلط بأولئك الفتيات اللواتي يرتدين ثيابًا أفضل مني، فأنتِ في نهاية المطاف -يا فاني- تنتمين إلى الطبقة نفسها، وتعرفين كثيرًا عن هذه الأشياء.

- لا تقلقي من أمرٍ كهذا أيتها الطفلة. سوف أعتني بكِ وأُصلح كل شيء حتى لا أجعلكِ تبدين غريبة الأطوار!

سألتها بولي في دهشة بعد أن صعقتها الكلمة متمنية بصدق ألا تحمل كلمتها أي إشارة سيئة: وهل أنا غريبة الأطوار؟

قالت فاني وهي تحاول شرح كلامها بصعوبة بالغة: أنت فتاة جيدة يا عزيزتي بولي، كما أنكِ تبدين أكثر جمالًا من الصيف الماضي، لكن عليكِ أن تعرفي أنك نشأت في مكان آخر مختلف كُليًا عنا نحن فتيات المدينة، وعلى هذا فإن أساليبك تختلف عنا.

سألت بولي بفضولٍ واضح راغبة في أن تفهم

أكثر: هل أبدو مختلفةً عن فتيات المدينة؟

- حسنًا، مثلًا.. إنك ترتدين ثياب الفتيات الصغيرات.

- ما زلت فتاة صغيرة في نهاية المطاف يا فاني، فما الخطأ في ذلك؟ قالت بولي ثم تأملت فستانها الأزرق وحذاءها الضخم وشعرها القصير بحيرة بالغة.

قالت فاني: أنتِ في الرابعة عشرة من العمر يا بولي، ونحن نعدّ أنفسنا سيدات صغيرات في هذه السن. ثم ألقت نظرة خاطفة على خصلات شعرها الأمامية المجعدة المُمتدة أعلى جبينها وتلك الكتلة من الشعرِ المُموج التي تصل إلى رقبتها. كانت الفتاة ترتدي أقراطًا كثيرة وأوشحة وإكسسوارات تملأ يديها التي غُسلت ونظفت عدة مرات بالماء والصابون. نظرت بولي إليها مُنتقلةً من مكانٍ إلى آخر، فقد بدت لها فاني أغرب فتاة رأتها في حياتها، كانت بولي قد نشأت في قريةٍ صغيرة هادئة وعاشت في مكانٍ مُنعزل تمامًا عن موضة المدن.

لقد كانت مفتونة بالأناقة التي تُحيط بصديقتها فاني، فهي لم ترَ منزلها من قبل منذ أن تعرفت إليها للمرةِ الأولى عندما زارت صديقة قديمة لها كانت تعيش بالقرب من بولي، لكنها لم تسمح لكل هذا التناقض بين نمط حياتهما أن يؤثر في علاقة صداقتهما وعلى هذا فقد واصلت حديثها

قائلةً:

- في الواقع تريدني أمي أن أرتدي الأزياء البسيطة، لا أمانع ذلك فلا يمكنني أن أحرص مثلك على كل تلك الإضافات الأخرى، فماذا لو نسيتِ يوماً أحد تلك الأوشحة أو الأشياء الباهظة الثمن؟

قبل أن تتمكن فاني من إجابتها. تناهى إلى أذنيها صوت صرخة مدوية قادمة من الطابق السفلي أجبرتهما على إصاخة السَمع.

- إنها مود! إنها تصرخ طيلة اليوم على هذا النحو المُزعج. قالت فاني بسرعة شديدة جعلت الكلمات تتسرب من فمها بعشوائية. وعندما فُتح الباب ظهرت فتاة صغيرة بعمر السادسة أو السابعة، وقفت الطفلة أمام بولي وحدقت إلى وجهها، ثم انفجرت في نوبة من البكاء وسقطت منهارة بين أحضان فاني شارحة لها:

- توم يسخر مني يا فاني! قولي له أن يكف عن ذلك!

- ما الذي فعلته له؟ كفاك نحيباً، قالت فاني موجهةً حديثها إلى الطفلة التي كانت تصرخ مرتجفة.

- لقد قلت فقط خلال حفلة أمس إنني أرغب في تناول الآيس كريم، فبدأ توم يتهكم على طريقتي في نطق الكلمة.

قالت فاني: حسنًا يا عزيزتي لقد كان يُصَححها لكِ فقط.

قالت الفتاة الصغيرة ثم انخبت مرةً أخرى نتيجة شعورها بكل تلك التراكمات:

- لا يهمني ذلك، كان الآيس كريم باردًا، لذا حاولت أن أدفئه قليلًا، كان شهيًا فعلًا، ولكن عندما سخر توم مني على هذا النحو أربكني فسقط مني كاملًا على ثيابي.

قالت فاني ودفعتها قليلًا: اذهبي إلى كاتي الآن، فأنتِ تبدين غاضبة جدًا كالدب الصغير!

قالت مود مُنتحبةً: لا تحب كاتي أن تلعب معي.

- هيا انزلي إلى الأسفل وتناولي وجبة العشاء واستمتعي بجلوسكِ برفقة كاتي، قالت فاني ثم نهضت وبدت كالطائر الذي يتأهب للتحليق.

تمنّت بولي ألا تلتقي هذا الولد المُشاغب وألا يكون حاضرًا في أثناء تناولها وجبة العشاء برفقتهم لكنه كان حاضرًا بالفعل ينظر إليها دون توقف.

رحب بها السيد شو الذي بدا مثل أحد رجال الأعمال المُنشغلين بشدة، فقال لها بضع كلمات:

- كيف حالك يا عزيزتي؟ أتمنى أن تكوني مُستمتعة بوجودكِ معنا. ثم بدا فجأة كأنه قد نسي أمرها كُليًا فيما كانت زوجته السيدة شو تلك المرأة العصبية الشاحبة ترحب بها على مضض، ناهيك بأنها لم تُحدثها عن شيءٍ بعينه فالسيدة

شو امرأة عجوز هادئة جدًّا ترتدي ثوبها الرسمي وتجلس في إحدى الزوايا ترمق بولي بنظراتٍ محددة وتقول:

- يا إلهي! إنك تبدين نسخة مصغرة من والدتكِ الجميلة يا عزيزتي، أخبريني كيف حالها؟ نظرتَ السيدة إلى الفتاة عبر نظارتها في تلك المسافة الفاصلة بينها وبين توم حتى فقدت بولي المسكينة شهيتها.

ثرثرت فاني كالغراب وتململت مود حتى اضطر توم إلى أن يضعها تحت غطاء الطبق الكبير الذي تسبب في إحداث انفجار هائل مدوٍّ، فحملت كاتي الصبورة الصغيرة بعيدًا عن المكان. في الواقع لقد كان عشاءً غير مريح على الإطلاق، ولهذا شعرت بولي بالسعادة عندما انتهى. انشغلوا جميعًا بشأنه بعد انتهاء تناول الطعام، توجهت فان إلى الخياطة تاركةً بولي في غرفة الصالون وحدها.

كانت بولي مسرورة جدًا لاختلائها بنفسها بضع دقائق، فتفقدت المكان حولها جيدًا وبدأت المشي ذهابًا وإيابًا على السجادة التي تغطيها الزهور، ودندنت بعض الأغنيات القصيرة، تلاشى ضوء النهار مخلفًا ضوءًا قرمزيًا خفيفًا وراءه نتج عن نار مدفأة الغرفة.

عادت السيدة ربة المنزل مرةً أخرى بعد أن سمعت بولي تدندن بصوتها الناعم وجلست في كرسيها أمام الفتاة وطلبت منها أن تغني مجددًا

قائلة:

- من فضلكِ غني لي ما كنتِ ترددينه للتو يا عزيزتي بولي، فأنا لم أسمع تلك الأغنية منذ مدة طويلة.

في الواقع لم تكن بولي تحب الغناء أمام الغرباء فلم تكن قد تلقت تعليماً موسيقياً من قبل، فأمها مشغولة بمهامها إلى الحد الذي لم يجعلها ترسلها لتنمية ذلك الجانب الفني لديها، لكنها تعلمت أن تحترم رغبات الكبار، ولم يكن لديها أي سبب للرفض، لذا سارعت نحو البيانو مباشرةً ونفذت ما طلبته منها.

قالت بطريقتها الرقيقة: أوه! كم أعشق هذا النوع من الموسيقا! إن هذا هو الغناء الحقيقي فعلاً. من فضلكِ، غني لنا مُجددًا.

غمرت السعادة بولي في تلك اللحظة عندما سمعت عبارات المديح من تلك السيدة، غنت من جديد بصوتها الناعم الصغير، ذلك الصوت الذي سكن قلوب المُستمعين جميعًا واستقر هناك، رتلت بولي من أنشودتها بطريقة ساحرة، وضغطت برقة مقاطع الأغنية التي تحمل مزيدًا من المعاني الشاعرية. تألقت بولي في أدائها وواصلت جهودها على هذا النحو حتى سمعت صوت أحدهم يأتي من أحد الكراسي الخلفية هاتفًا:

- يا إلهي! رائع! مُذهِل! غني مجددًا من فضلك.

عندما التفتت بولي إلى مصدر الصوت أدركت أنه صوت توم.

ارتبكت قليلًا، لقد كانت تظن أنه لا يسمعها أحد سوى السيدة العجوز صاحبة المنزل، تلك التي كانت تغفو أمام مدفأة النار.

- لا يمكنني أن أغني أكثر، فأنا مرهقة كثيرًا، قالت بولي ثم ذهبت بعيدًا إلى السيدة ربة المنزل في الغرفة الأخرى. وضعت العجوز يدها حول كتف الفتاة ونظرت إلى وجهها بعينين طيبتين حتى نسيت بولي ارتداءها تلك الثياب الرسمية الموتِرة، وابتسمت لها عندما أدركت أن موسيقاها البسيطة أسعدتها، فابتسمت سعيدة.

قالت السيدة العجوز: أتمنى ألا يُزعجك تحديقي إلى وجهك يا عزيزتي، ثم قرصت وجنتيّ الورديّة بلطف وأضافت:

- في حقيقة الأمر لم أرَ فتاة صغيرة مثلك منذ مدة طويلة وهذا يعود عليّ بالنفع.

تأملت بولي حديثها بدهشةٍ بالغة كأنه حديث قديم عفا عليه الزمن.

- ولكن فاني ومود فتاتان صغيرتان أيضًا، أليس كذلك؟

- كلا يا عزيزتي فأنا لا أعدهما صغيرتين، فاني مثلًا آنسة صغيرة وتتصرف على هذا النحو منذ عامين، أما مود فهي طفلة مشاكسة ومدلّلة.

أعتقد أن أمك هي امرأة حساسة جدًّا لتنجب فتاة مثلك يا طفلتي.

- يا لها من امرأة غريبة الأطوار، فكرت بولي سِرًا، ثم ردت على العجوز:

أجل أنا كذلك، قالت غير مُبالية وهي تنظر إلى نار المدفأة مدة من الزمن.

- إنك لا تفهمين ما أعنيه يا عزيزتي، أليس كذلك؟ سألتها مُمسكةً بذقنها بخفة بين يديها كما لو كانت طفلة.

- في الواقع لا أفهمكِ جيدًا.

- حسنًا يا عزيزتي، سأخبرك بشيءٍ ما، عندما كنت في سنك كانت الفتيات في سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة لا يرتدين ثيابًا تواكب الموضة، ولا يذهبن إلى الحفلات الراقصة، ولا يفعلن تلك الأشياء التي يفعلها الناضجون البالغون، من السيئ حقًا أن يعشن ذلك النمط الغريب من الحياة الذي تسيطر عليه الفوضى والأجواء غير الصحية حتى يصبحن في العشرين. لقد كنّا فتيات صغيرات حقًا حتى عمر الثامنة عشرة! ونعمل وندرس ونرتدي ثيابًا تلائمنا ونلعب بمرج تمامًا كالأطفال، ولهذا كنا نجد -كما أرى- البركة تُحيط بنا أكثر من هذه الأجيال الحديثة.

بدا الأمر لاحقًا كأن المرأة العجوز قد نسيت بولي تمامًا في نهايةِ الحديث، إذ جلست في إحدى

الزوايا تنظر إلى صورة باهتة لرجلٍ عجوز يرتدي سترة قديمة.

- هل هذه صورة والدكِ يا سيدتي؟

- أجل يا عزيزتي، هذه صورة والدي. لقد بذلت قصارى جهدي كي أرسم له لوحة فنية وأهديه إياها. في ذلك اليوم، نظّم والدي مسابقة بيني وبين شقيقاتي الستة لنتسابق من فينا ترسم أفضل صورة له، والفائزة تحصل على جوربين من الحرير، كنت أنا الفائزة.

قالت بولي: أوه! تستحقين الشعور بالفخر يا سيدتي! لقد أنجزتِ مهمتكِ على أتم وجه! ثم اقتربت من السيدة وحدقت في وجهها بعينين مبتسمتين.

- أجل يا صغيرتي، لقد تعلمنا كل شيء بدءًا من صناعة الخبز والطهي وارتداء الثياب الطفولية المبهجة، لقد كنا فتيات بريئات كالقطط الصغيرة الوديعة، وعشنا جميعًا أمدًا طويلًا حتى أصبحنا جدات وأمهات، أنا آخر مَن تبقى من العائلة، سأبلغ السبعين من عمري في عيد ميلادي القادم، ومع ذلك لم أشخ بعد رغم أن ابنتي السيدة شو وهنت قواها مذ تجاوزت الأربعين!

قالت بولي: هذه هي الطريقة التي نشأت بها أنا أيضًا يا سيدتي، ولهذا تناديني فاني فتاة من الطراز القديم كما أعتقد. أخبريني من فضلك مزيدًا عن

والدكِ، يُعجبني ذلك.

- في الأيام الخوالي يا عزيزتي كنا نُنادي آباءنا بوقار ومحبة، ولم نكن نتحدث بتلك النبرة التي يتحدث بها أبناء اليوم، ولو حدث شيءٌ من هذا كانت كارثة! رفعت السيدة العجوز صوتها قليلًا مُشددةً على بعضِ المقاطع ثم أومأت مواصلة حديثها في تلك اللحظة التي دخلت فيها فاني إلى الغرفة لتحمل معها أخبارًا سعيدة فقد أبلغت بولي أن السيدة كلارا بيرد دعتهما معًا إلى المسرح هذا المساء. لم تُصدق بولي نفسها، وتحمست للخبر بجنون فها هي ذي تنغمس في أنشطة حياة المدينة بطريقة عملية وتطير في الأرجاء كأنها فراشة مُنهكة. لم تكن واثقة جدًا مما سمعته حتى وجدت نفسها تجلس وجهًا لوجه أمام ستارة المسرح الخضراء. جلست السيدة بيرد على أحد الجوانب، وجلست فاني في الجهة الأخرى، وفي تلك الأثناء اختلت بولي بنفسها مُجددًا، وقد كانت تشعر بكامل الامتنان لهما، فقد تركز اهتمامها كله على المشهد حولها، ولم تكن قادرة على الحديث.

كانت بولي غير مُعتادة الذهاب إلى المسرح في السابق، فذلك النوع الشائع من الأعمال المسرحية التي اعتادت متابعتها كان يتمثل في الحكايات والقصص الخرافية، تلك الأعمال التي تملؤها الدهشة والإشراق وتخلو من العُنف، فلم تكن معتادة مشاهدة أعمال المسرح التي تضحكك رغمًا

عنك حتى تشعر بالخجل.

كان المسرح مُضاءً بإنارة خافتة، وكانت المسرحية المقدمة مزيجًا من الأعمال الفنية الفرنسية والأمريكية، ومع ذلك لم يتذكر أحد اسمها. كان العمل جيدًا مسليًا مُمتعًا عصريًا في عين الجمهور كما أنه حاز إعجاب الجميع، وكانوا متشوقين لرؤيته.

شعرت بولي في البداية كأن قدمها وطأت أرض الأحلام الخيالية للتو، فقد رأت كائنات عجيبة ترقص في عالم يجمع بين النور والجمال. ها هي ذي تسمع الأغاني وتتلذذ بالجمال السابح في الفضاء الواسع. في تلك اللحظة على وجه التحديد تبدد شعورها بالوهم. تدور الحكاية حول أرض إحدى الجنيات فيما اصطفت مجموعة من الأقزام السود يدندنون أغنياتهم الخاصة. شعرت بولي كأنها تعرف أولئك الأقزام الذين بدورهم ينتمون إلى «الطراز القديم» جيدًا.

كانت بولي بريئة جدًا لدرجة أنها لم تفهم النكات الضمنية الخبيثة، تساءلت عن سبب انتشار ضحكات الجمهور على هذا النحو؟ تدريجيًا بدأت بولي تشعر بحالة من الارتباك وعدم الارتياح، فلم تعتد مثل هذه العروض. ظنت لو أن أمها علمت لما سمحت لها بالذهاب إلى مثل هذه المسارح. لقد ندمت حقًا لقدومها إلى هنا.

بدأت الأمور تسوء أكثر فأكثر كلما استمر

العرض المسرحي، كما أن أصداء الثرثرة حولها باتت تملأ المكان بإصرار لا يُطاق، فقد كانت تراقب المشهد بعينين بريئتين ونيات طفولية تليق بفتاة صغيرة، وفي تلك اللحظة التي صعد فيها نحو أربع وعشرين فتاة على خشبة المسرح يرتدين أزياء غريبة ويتمايلن أمام الحضور ويضربن بأحذيتهن ذات الكعب العالي الأرض بقوة وينظرن إلى الجمهور بلؤم ظاهر.

لم تكن بولي تعتقد أن هذا كله شيءٌ يستحق الضحك حقًا، فقد شعرت على نقيض ذلك بالاشمئزاز وغمرتها السعادة عندما انتهت تلك الفقرة، ولكن عندما ظهرت مجموعة أخرى من الفتيات اللواتي يرتدين ثيابًا مُزركشة وشعرًا مستعارًا وأجنحة إضافية وأطواقًا ذهبية تُحيط بخصرهن لم تكن فتاتنا قديمة الطراز تعرف ما عليها فعله، فلقد شعرت بالخوف والارتباك وجلست مُثبتةً عينيها على العمل المسرحي فيما تزداد وجنتاها توهجًا في كل دقيقة.

سألتها صديقتها فاني مذهولة: لماذا تتوردين خجلًا على هذا النحو يا بولي؟ ما الأمر؟

قالت بولي هامسة ثم تنفست الصعداء: في الواقع يُخجلني ما تفعله الفتيات الواقفات على خشبة المسرح هناك.

- أيتها الحمقاء الصغيرة! في الواقع إنهن يرقصن تمامًا على طريقة تلك العروض المسرحية في

باريس، إن الرقصات في غاية الروعة، فعلى الرغم من أنها تبدو مدهشة في البداية فإنك تعتادينها لاحقًا تمامًا مثلما حدث معي.

- لن آت إلى هنا مُجَددًا، قالت بولي بعفوية شديدة لأن طبيعتها البريئة تتمرد على نوعية هذا العمل المسرحي الذي كانت تُشاهده، ما أشعرها بمزيد من الألم الذي يبتعد أميالًا عن البهجة. لم تكن بولي تعرف مدى سهولة فكرة «اعتياد» رؤية هذا النوع من الأعمال حتى أن الفكرة نفسها لم تُغرها كفاية. لم تستطع شرح إحساسها لكنها كانت سعيدة أن المسرحية قد انتهت، وأنهم عادوا إلى المنزل بأمان، هناك كانت الجدة الكبرى تنتظر لحظة ذهابهم إلى الفراش.

- هل قضيتِ وقتًا مُمتعًا يا عزيزتي؟، سألتها الجدة متأملة عينيها الغارقتين في بحرٍ من الذهول ووجنتيها المخضبتين بالحُمرة.

- في الواقع يا سيدتي لا أريد أن أكون وقحة لكني لم أحظَ بوقتٍ ممتع هناك، أجابتها بولي ثم أضافت:

- مع أن بعض العروض المسرحية كان جيدًا، فإن معظم المشاهد كادت تُجبرني على الاختباء أسفل المقعد من فرط الخجل، ومع هذا فقد استمتع الجميع بالعمل لكني رأيته غير ملائم.

عندما تمكنت بولي من تحرير عقلها وإفراغ ما في

داخل رأسها مُعربةً عن رأيها في الحدث بشفافية، ثم خلعت حذاءها محدثةً صوت صرير مُباغت، دخلت فاني إلى الغرفة راسمةً على وجهها ابتسامة ساخرة عريضة فيما كانت تتجول في الأنحاء كأنها الآنسة تيريزا، ثم قالت:

- لقد كانت بولي مصدومة يا جدتي حيث اتسعت مقلتاها بشدة وتورد وجهها حمرةً تمامًا مثل لون وشاحي، حتى أنني اعتقدت لوهلة أنها ستبكي! لقد كان المشهد غريبًا بعض الشيء لكن تصرفها ربما كان معقولًا، فقد سمعت السيدة سميث بيركن تقول إن العرض كان ساحرًا جريئًا مثل عروض المسرح في باريس تمامًا، وبما أنها كانت تعيش في الخارج فهي تعرف جيدًا ما تتحدث عنه.

- لا يهمني إن كانت تعيش في الخارج أم لا. في الواقع لم أرَ أن ذلك العرض ملائمًا للفتيات الصغيرات، وإلا فلماذا تجمدت من الخجل ما إن شرعت في المشاهدة؟، صاحت بولي بتلك الكلمات شاعرةً بالحيرة، فهي لم تقتنع بما قالته السيدة سميث بيركنز.

- أعتقد أنك محقّة يا عزيزتي لكنك أيضًا قضيتِ حياتكِ كلها في القرية ولا تعرفين أن «الحياء» قد باتَ موضة قديمة الآن.

قبلتها الجدة الكُبرى مُتمنيةً لها ليلة سعيدة ثم أغمضت عينيها لتحلم بمجموعة الراقصات اللواتي

كن يرتدين أزياءهن الرسمية ويقفن على خشبة المسرح الضخم فيما كان توم يعزف ضمن أفراد الفرقة الموسيقية، كما أن وجه أبيها وأمها كان يتلبس جميع الحضور بطريقة مربكة، تلك الوجوه المتشابهة التي كانت تنظر إليها بحزن، وتتأملها بأعين واسعة مفتوحة عن آخرها وحمرة قانية تماما مثل لون وشاح صديقتها فاني.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الثاني

بعد يوم أو اثنين قالت فاني: أنا ذاهبة إلى المدرسة هذا الصباح، رافقيني واستعدي تمامًا. ثم غادرت مائدة الإفطار متأخرة.

سألتها بولي: أنتِ تبدين رائعة جدًا، حسنًا أخبريني ما الذي تنوين فعله؟ ثم لحقت بها إلى الردهة.

يضيف توم بسخرية مكملًا حديث فاني وبولي: ستصفف خصلات شعرها الأمامية على هيئة كعكة مضحكة ثم ترتدي ثيابها.

جدير بالذكر أن استعدادات توم التحضيرية للمدرسة كانت تتركز فقط في تعديل قبعته على رأسه جيدًا وربط كتب كبيرة عديدة وأخذها معه، كانت تبدو مثل أسلحته الدفاعية.

سألتها بولي: ماذا يقصد؟ أما فاني فضت دون أن تنبس بكلمة.

قال توم مازحًا: إنني أتحدث عن تصفيفها خصلات شعرها الأمامية على شكل كعكة صغيرة عديمة الجدوى! ثم شرع يصفر في أثناء تجوله على امتداد الطريق في لا مبالاة واضحة.

- لماذا ترغبين بشدة في الذهاب إلى المدرسة؟ سألتها بولي وهي تراقبها ترتب تصفيف خصلات شعرها الأمامية وتحكم ربط شرائط ثوبها الملونة.

- جميع الفتيات يفعلن ذلك يا عزيزتي. فمن اللائق حقًا أن تُحسِن الفتيات اختيار أزيائهن، إذ لا يمكنك التنبؤ بمن قد تلتقين، كما أنني أفضل التجول قليلًا بعد المدرسة بعد انتهاء الحصص، لذا احرصي على انتقاء أجمل ثوب وقُبعة لكِ، قالت فاني محاولة ارتداء قبعتها بشكلٍ جذاب.

- حسنًا سأفعل ما دمتِ لا تعتقدين أن هذا الزي الذي أرتديه جيدٌ بما يكفي، وسأغير قبعتي التقليدية مع أنها تُشعرني بالدفء، ولكن ربما تبدو تلك المُزودة بالريش أفضل من الناحيةِ الشكلية، قالت ذلك وركضت إلى غرفتها لتُنهي مهمتها بسرعة، فهي تخشى حقًا أن تحرج صديقتها بارتدائها هذا الثوب البسيط.

- ألا تُشعركِ تلك القفازات بالبرودة؟ قالت في تلك اللحظة التي توجهتا فيها إلى الشوارع التي تغطيها الثلوج، والرياح الشمالية تضرب وجهيهما.

- أجل فالطقس في غايةِ البرودة، وحقيبتي ثقيلة ولا يمكنني حملها بهذه الطريقة، ربما تنزلق من أصابعي. قالت فاني وهي تخلع قفازاتها الطفولية وسط تلك الأجواء قارسة البرودة.

- في الواقع أظن أن قفازاتي الكبيرة رائعة جدًا وتُشعركِ بالدفء، قالت بولي بعد أن رمقت قفازاتِ فاني بنظرة استياء واضحة لم تكن تنظر بها سابقًا، فقد كانت في البداية تعتقد أن قفازات فاني في غايةِ الأناقة.

- ربما أفعل ذلك قريبًا، ولكن عليكِ أن تتخلي عن خجلكِ الآن يا بولي فسوف أقدمكِ إلى فتاتين أو ثلاث فقط، ولا أظن أنك ستمانعين وجود أستاذ عجوز برفقتنا، ربما يمكنك القراءة إن لم ترغبي في الحديث معنا، سوف نكون في الردهة، وسوف ترين حينها عشرات الفتيات المشغولات جدًا اللواتي ربما لن ينتبهن إلى وجودك كثيرًا.

- أظن أنني لا أرغب في القراءة لكني سأجلس وأتأمل الوضع حولي، فأنا أحب مراقبة الناس والنظر إليهم، فكل شيء هنا غريب وجديد.

في المقابل، شعرت بولي بالخجل الشديد عندما دخلت إلى غرفة تمتلئ بالفتيات اليافعات اللواتي يرتدين أجمل الثياب ويتحدثن معًا، وقد شرعن في تأمل الزائرة الجديدة وفحصها بنظرة جامدة كأنهن ينظرن إليها عبر عين زجاجية، وعندما قدمت فاني صديقتها إليهن أشرن برؤوسهن بتحية آلية، وأفسحن لها مجالًا للجلوس إلى جوارهن حول الطاولة في انتظار الأستاذ العجوز.

كان هناك تنوع هائل بين أولئك الفتيات الشابات من ناحية المظهر، إذ إن تسريحة شعرهن كانت تحمل روح التماثيل الإغريقية القديمة، فيما حرص بعضهن على تصفيفه وترتيبه بأناقة وبساطة، وكن يتناولن الحلوى بشراهة ويُثرثرن حول أحدث صيحات الموضة. كانت بولي تنظر إليهن وتستمع شاعرةً أنها مجرد فتاة صغيرة ريفية

تجلس بين مجموعة من شابات المدينة الأنيقات.

- ألا تعرفن يا فتيات أن كاري ذهبت إلى الخارج؟ إن الجميع يتحدث عن الأمر. إنهم يقولون أيضًا أن أباها لم يتحمل ذلك وقد أخذ العائلة كلها إلى هناك، أليس أمرًا مُبهجًا؟ قالت إحدى الفتيات المفعمات بالحيوية التي انضمت إليهن للتو.

- أعتقد أنه كان عليهم السفر إلى هناك على أي حال، فقد اعتادت أمي القول إنني لو لم أتخلَّ عن مدرستي السابقة لما جئت إلى هنا يومًا. قالت فتاة أخرى بجدية واضحة.

- لقد هربت كاري إلى الخارج برفقة مدرسها الإيطالي في الموسيقا، وقد استخرج الأوراق الرسمية ووقعها لإتمام إجراءات سفرها. قالت المتحدثة الأولى شارحةً الوضع الغامض لبولي التي بدت مصدومة.

قالت بولي هاتفةً: يا له من أمرٍ مُريع حقًا!

- أظن أن المسألة مُمتعة جدًا، فقد كانت كاري في السادسة عشرة من عمرها فقط، وكان مدرس الموسيقا رجلًا وسيمًا مثاليًا، أضف إلى ذلك أنها شديدة الثراء، والجميع يتحدث عنها في كل مكان، وعندما تمشي في أي مكان تحاصرها النظرات بإصرار لا يطاق، لكن أباها كان شديد العناد والحماقة فأرسلهم جميعًا بعيدًا! الأمر سيئ حقًا

فقد كانت كاري أجمل فتاة يُمكنك رؤيتها على الإطلاق!

لم تتفوه بولي بحرف تعقيبًا على ما قالته الآنسة بيلا للتو، لكن فاني قالت:

- في الواقع أحب أن أقرأ كثيرًا عن تلك الأمور، على الرغم من أن المسألة لا تبدو مُقنعةً بالنسبة إلي، فهي تصعب الأشياء علينا أكثر نحن الفتيات. آه لو كنتِ تستمعين إلى ما قاله أبي لي منذ بضعة أيام، لقد هددني أن يُرسِل معي الخادمة إلى المدرسة يوميًا كما يحدث في نيويورك حتى يتأكد من أني سأكون على ما يرام، هل تصدقين ذلك؟

قالت بيلا غاضبة: كانت كاري تلتمس أعذارًا واهية كثيرة، وتخبر أمها بحكايات غير حقيقية حتى تتمكن من لقاء حبيبها، والجميع يظنون أنها آمنة في المدرسة. يا لها من فتاة مخادعة ماكرة حقًا!

قالت فتاة أخرى مُندفعة: أعتقد أن الأمر مُمتع جدًا، فلا حاجة إلى أن تُرثر حوله كثيرًا، فمن حين إلى آخر يهرب شخص ما مثل كاري، وقد يكون ذلك الشخص ولدًا أو فتاة، فالأولاد أيضًا يفعلون الأمر نفسه، فلا أعرف لماذا ينظر إلى مسألة الفتيات بطريقة حساسة على هذا النحو! فما السيئ في أن أكونَ برفقة أحدهم ليحرسني ويحميني؟

قالت فاني: حسنًا يا عزيزتي من الممكن أن يفعل ذلك الدور أحد رجال الشرطة الذين يرتدون القبعات الطويلة، وحينها انفجر الجميع في نوبة من الضحك، وهزت صديقتها بياتريس رأسها بطريقة آلية مضحكة.

سألت فتاة شاحبة بولي في فضول بعد لحظة صمت مؤقتة: هل قرأتِ من قبل رواية العروس الشبح؟ إنها من أروع الأعمال الأدبية وأكثرها إثارة، يقبل القراء على قراءتها في المكتبات، ولكن بعضهم يفضلون كتاب «الفراشة المُنكسرة»، أيهما تفضلين أكثر؟

- في الواقع لم أقرأ أيًا منهما.

- حسنًا عليكِ إذًا قراءة كتب غاي لينغستون أو رواية «أويدا» لياتس فهي المفضلة لديّ على الإطلاق، فهي أعمال مدهشة لا يُعيبها إلا طولها، فلا أستطيع أن أصبر حتى أنهيهما بأي طريقة.

قالت بولي وهي تشعر بالسعادة أنها قد قالت شيئًا: لم أقرأ هذه الأعمال، وإنما قرأت روايات ليز موهلباخ، فأنا مولعة بالروايات التاريخية.

- أعرف أن تلك الأعمال الأدبية مهمة جدًا لتحسين القراءة، لكني أحب الروايات الحقيقية المُثيرة، وماذا عنكِ؟

شعرت بولي بإهانة ضمنية من صديقتها كأنها تقول إنها لا تقرأ شيئًا ذا قيمة، لكنها سرعان ما

انشغلت بالنظر إلى وجه الأستاذ الفرنسي العجوز ذي الشعر الرمادي الذي توجه نحوهم بخطى وئيدة، وبدا كأنه يؤدي دور الضحية لمجموعة من الفتيات الشقيات الساخرات.

اجتمعت الفتيات حول طاولة الدرس الطويلة، وشرعن في كتابة التمرين الأول، ثم قرأن بعض فقرات التاريخ الفرنسي، ولكن لم يبد الدرس مثيرا للاهتمام في نظرهن على الرغم من استعداد المدرس العجوز لشرح أي معلومة غامضة أو معقدة.

توردت وجنتا بولي خجلًا عندما سأل المعلم صديقتها: مَن يكون أعظم رجل في تاريخ الثورة الفرنسية، فأجابت: لامارتين بدلًا من أن تقول لافايت.

انقضت ساعة الدرس سريعًا، وفي تلك اللحظة التي أخذت فيها فاني درسًا موسيقيًا في الغرفة الأخرى ظلت بولي صامتة تتأمل المكان، فيما انتشرت الفتيات الصغيرات في كل مكان، تناول بعضهن الخبز والزبدة، ومكث بعضهن في غرفة الفصل للقراءة والثرثرة، وعلى الجانب الآخر، ذهبت بيلا وتريكس وفاني لتناول الغذاء في غرفة يباع فيها الآيس كريم والمثلجات، وحينها بذلت بولي قصارى جهدها ألا تذكر أبدًا «خبز الزنجبيل» الذي وضعته جدتها في حقيبتها، فأهملت هذا الكعك البُني وتركته في مكانه،

وأقبلت على تناول الآيس كريم والحلوى بشهية.

شعرت الفتيات ببهجة عامرة بعد أن انضم إليهن شاب وسيم قصير القامة، بدا في نظر بولي مجرد فتى لأنه لم يرتدِ قبعة رسمية كبقية الرجال، عادت الفتيات إلى المدرسة فيما رافق الفتى صديقتها فاني بعض الوقت، وخرجا للتنزه معًا بخطوات بطيئة في الشوارع المزدحمة. لحقت بهما بولي وهي تتأمل واجهات المحلات التجارية العتيقة، حتى أدركت فاني أن بولي تتجول معهم، فأخذتها إلى معرض الصور للاستراحة وقضاء بعض الوقت المُمتع، وقد توجهت بولي المُطيعة إلى الغرفة عدة مرات، وبدأت تفحص الصور حولها باهتمام بالغ، ولكنها شعرت بالحيرة لأنها لم تعرف سر انغماس صديقتها فاني في تلك الأعمال الألمانية، ولماذا طلبت منها أن تعدها ألا تنسى الحفلة الموسيقية؟

عندما نهضت فاني من مكانها، اقتربت منها بولي بوجه مرهق، ثم لاحظت أن ذلك الشخص المرافق لها يتأهب للمغادرة، فإذ بها تقترب من بولي بثقة واضعة يدها فوق قفازاتها وتهمس لها:

- والآن يا عزيزتي أطلب منك ألا تُخبري أحدًا عن فرانك مور، فلو علم أبي أمرًا كهذا سيقتلع رأسي! في الواقع أنا لست مهتمة به على الإطلاق، فهو معجب بصديقتي تريكس، ولكن حدث خلاف بينهما في الأيام الماضية، وأراد

أن يستخدمني لإثارة غيرتها. لقد وبختِه على فعلته تلك ووعدني أن يصلح الأمر معها قريبًا. سنذهب جميعًا إلى الحفلة الموسيقية ظهرًا وسنقضي وقتًا ممتعًا هناك، ستذهب بيلا وتريكس إلى هناك أيضًا، وسيكون كل شيء على ما يرام.

قالت بولي التي لم تعتد حفظ الأسرار حتى لو كان الأمر يتعلق بشيءٍ صغير: أخشى ألا يكون الأمر كذلك.

قالت فاني نافدًا صبرها: لا تقلقي أيتها الطفلة، فالأمر لا يعنينا، فكل ما يهمنا هو أن نذهب إلى الحفلة ونستمتع بالموسيقا، وإذا غازلنا أحدهم فهذا ليس خطأنا.

- بالطبع لا، ولكن إذا كان والدك لا يريدك أن تفعلي ذلك، فلماذا إذًا عليكِ الذهاب؟

- لقد أخبرت أمي وقالت لي إن الأمر لا يهمها في شيء، أما والدي فهو عصبي جدًا، وجدتي تتدخل دائمًا في كل ما أفعله، هل ستلتزمين الصمت؟

- أجل، بالطبع سأفعل ذلك، فأنا لا أميل إلى سرد القصص والحكايات. قالت بولي وقد التزمت بالفعل الوعد الذي قطعته، فكل ما كانت ترغب فيه هو أن تتأكد أن فاني لم تخدع والدها وأنها أخبرت أمها بكل شيء.

- مع مَن ستذهبين؟ سألت والدتها السيدة شو

ما إن أخبرتها أنها ستذهب إلى الحفلة الموسيقية في الساعة الثالثة.

- فقالت فاني: سأذهب مع بولي فقط، فالحفلة ستكون جميلة ومبهجة جدًا، وكما تعرفين لم أستطع الذهاب إليها الأسبوع الماضي. ثم غادرت المنزل برفقة صديقتها بولي وهمست:

- إذا قابلنا أحدهم ليس بيدي حيلة، أليس كذلك؟

سألتها بولي ببراءة: يُمكنكِ إخبارهم ألا ينضموا إلينا، ألا يمكنكِ فعلها؟

- لا يمكنني ذلك، فذلك تصرف وقح. ربما نلتقي شقيق بيلا مثلًا، سيرافقنا إلى الحفل الموسيقي. بالمناسبة، هل شعري جميل؟ وقبعتي؟

قبل أن تُجيبها بولي انضم شقيق صديقتها بيلا إليهما، تراجعت بولي إلى الوراء قليلًا، شاعرةً بأن الأمور لا تسير على ما يرام، ولكنها لم تدر كيف تتدخل لإصلاحها! كانت مغرمة بالموسيقا فظنت أن الجميع جاء إلى الحفل الموسيقي لنفس السبب، شعرت بالتشتت من كثرة الهمسات المحيطة بها في المكان. ارتدت بيلا وتريكس ثيابًا جميلة تناسب السيدات الصغيرات، ووقف بجانبهما ميزرس وفرانك وجيس وغيرهم من الشباب اليافعين الذين كانوا يحاصرون الفتيات الجميلات بنظراتِ الحب والاهتمام ويراقبونهن من كثب.

تأملت بولي المشهد برمته بدهشة، ولم تصدق ما ترى. ومع أنها كانت جميلة كالطفلة فإن نظرات الشبان إليها لم تكن إلا نظرات عطف، فهم يرونها فتاة صغيرة هادئة لا تعرف كيف تُواكب المجتمع أو تتحدث لغته، ولذلك لم تجذب انتباههم، بل كانوا يبذلون جهودهم لإرضاء رفيقاتها الصغيرات الأخريات.

لحُسن الحظ نسيت بولي هؤلاء الحضور خلال استمتاعها بالموسيقا العذبة كما فعل كل من جاء للاستمتاع بالألحان الجميلة، ومضت الحال على هذا النحو حتى حل الغسق وتوجهوا إلى الخارج فوجدوا عربة تنتظرهم، شعرت بولي بالراحة الشديدة لأنها لم تكن تحب أن تُؤدي دور الطرف الثالث المُتطفل الدخيل على العُشاق.

قالت بولي عندما ابتعد الشبان: أنا مسرورة حقًا لأن هؤلاء الشبان رحلوا، كان حديثهم يزعجني بشدة طوال اليوم.

سألتها فاني بتكبر: مَن منهم أعجبكِ؟

- في الواقع لم يهتم بي سوى ذلك الشاب الأبله الذي لم يتكلم كثيرًا في الحفل. التقط قُفازي عندما سقط أرضًا واعتنى بي وسط الحشد، فيما لم يهتم بي الشبان الآخرون على الإطلاق.

- إنهم يظنون أنكِ مجرد فتاة صغيرة!

- تقول أمي دائمًا إن الرجل النبيل يكون لطيفًا

مع الطفلة والمرأة، ولهذا فأنا أحب السيد ستيفني كثيرًا لأنه يعاملني بود.

- يا لك من طفلة شرسة يا بولي! كنت أظن أنك لا تبالين بأمور كهذه، قالت فاني مدركة أن هناك كثيرًا من المشاعر الأنثوية في أي فتاة حتى لو كانت طفلة.

قالت بولي معتزة لأنها تكره أن يعاملها أصدقاؤها بشفقة: لقد اعتدت أن أعامل الآخرين بأخلاق وأدب مع أني أعيش في القرية.

قالت فاني ضاحكة: تقول جدتي إن أمك سيدة مثالية، وأعتقد أنك مثلها لذا لا تنزعجي كثيرًا من تصرفات أولئك الشباب اليافعين، سأبذل قصارى جهدي لأجعلهم يتصرفون معك جيدًا في المرة القادمة، فعلى الرغم من أن أخي توم لا يتحلى بالأخلاق أبدًا فإنك لم تنذري منه!

- لا يهمني إن كان لا يملك، فهو في نظري مجرد فتى، وأستطيع التعامل معه أحسن من أولئك الرجال.

في اللحظة التي كادت فيها فاني تطلب من صديقتها بولي أن تكرر قول «أولئك الرجال» مجددًا سمعتا صوتًا عاليًا قادمًا من المقعد الخلفي، فصاحت فاني:

- إنه أخي توم!

انفجر توم في نوبة من الضحك، ثم ركض

نحوهما بسرعة فائقة، وألقى بنفسه على الكرسي المُقابل، وبدأ يُلاحقهما بنظراته بوجه متورد وأنفاس لاهثة وضحكات مكتومة متلاحقة، كأنه ينتظر منهما أن تثنيا على ما فعله للتو، سألته شقيقته غاضبة:

- هل كنت تتجسس علينا؟

- لا، فأنا لم أسمع إلا بعض الكلمات فقط.

- هل رأيتِ من قبل شخصًا تافهًا كهذا يا بولي؟ أفترض أن عليك الآن إخبار أبي بقصة رائعة مثيرة!

- ربما أذهب وربما لا. أخبريني أولًا كيف قفزت بولي من مقعدها عندما صرخت فجأة؟ لقد سمعت صوت صراخها ورأيتها تحتضن قدميها!

قالت بولي برقة: وهل سمعتنا نمتدح أخلاقك؟

قال توم ممعنًا في النظر إليها ومتيقنًا: أجل، وسمعت أن تصرفاتي تعجبك لذا لن أقول عنكِ شيئًا.

قالت فاني: ما من شيء على الإطلاق تُخبر به أحدًا يا توم!

- حقًا؟ أفترض أن السيد الحاكم سيعجبه سماع قصة خروج رفيقاتك مع مجموعة من الرجال الأنيقين. لقد رأيتك!

- وما علاقة حاكم المنطقة بما نقوله الآن؟ سألته بولي في براءةٍ شديدة، لم تفهم أن توم يُشير بكلمة

«الحاكم» إلى والده.

ومع ذلك نظرت إليه بولي بثقة كأنها تُدرك تمامًا معنى الكلمة.

- يا إلهي! من الواضح أنكِ لم تفهمي المقصود، كأني أتحدث إلى جدتي!

قالت فاني: أود أن أعقد معك صفقة يا توم، ثم أردفت:

- لستُ المسؤولة عن وجود فرانك وجيس هناك في الحفل الموسيقي ولا عن حديثهم معي، فأنا أحاول التصرف بلباقة قدر استطاعتي حتى لا يغضب مني أبي، وعليه فإني أتصرف أفضل من بعض الفتيات، أليس كذلك يا بولي؟

سألها توم كأنه يتأمل الأمر بعض الوقت: صفقة!

- أجل، إذا لم تذهب إلى أبي لتخبره بما سمعت -وهو ما عليك فعله حقًا، لأن التجسس على الآخرين تصرف شائن- سأساعدك في الحصول على دراجتك التي ترغب فيها. ولن أعارض شراء تلك الدراجة عندما يقرر أبي وأمي وجدتي عدم منحك إياها.

سألها توم: هل ستفعلين ذلك حقًا؟ ثم شرع يُفكر جديًا في العرض المقدّم.

- أجل، وسوف تساعدنا بولي أيضًا. أليس كذلك؟

- في الواقع لا أعرف إن كان بمقدوري فعل أي شيء حول هذا الأمر، فكل ما باستطاعتي فعله أن أبقى هادئة وألا ألحق الأذى بأي شخص.

سألها توم في فضول: ولماذا لا يمكنكِ تقديم المساعدة؟

- لأن الأمر يبدو كالخداع!

قالت فاني غاضبة: لكن أبي عصبي المزاج جدًا!

- لا عجب إذًا أن يكون والدكِ حاد الطباع، بعدما علم بمغامرات كاري وغيرها من الفتيات. وأتساءل إن كان هناك سبب آخر. على كل حال، هذا يجعلني أسألك: لماذا لا تخبرينه بكل ما يحدث معكِ دائمًا؟ أليس هذا أفضل؟

- وهل تخبرين أنت والديكِ بكل شيء يحدث معك؟

- أجل أفعل ذلك، وأجد أن هذا ينقذني من الوقوع في المشكلات؟

- ألا تخافين منهما؟

- بالطبع لا أخاف منهما، ومع ذلك أحيانًا يصعب عليّ أن أقول شيئًا ما، لكني أشعر بالراحة التامة عندما ينتهي الأمر.

قال توم ناصحًا: حسنًا هيا بنا!

قالت فاني مرتجفًا صوتها كأنها على وشك البكاء

من فرط التعب: يا إلهي! ما هذه الجلبة غير المجدية!

قال توم بعد أن استيقظ ضميره فجأة: ليس الأمر بالتافه يا فاني! فأنتِ تعرفين جيدًا أنكِ ممنوعة من التسكع برفقة الشبان، ولهذا السبب تصرخين وتبكين، فأنتِ تدركين خطأك. لا يمكنني أن أعقد معكِ أيَ صفقة وسأخبر أبي بكل شيء.

- وماذا إذا قطعت لك وعدًا أنني لن أفعل ذلك مُجددًا؟ سألته فاني بصوت مرتعش فهي تعرف جيدًا أنه إن تولى شقيقها زمام الأمور سيجعلها تخضع له بطريقة ما.

- سأفكر في المسألة أولًا، فإذا أحسنت التصرف لن أخبرهم بشيء، واعلمي يا فاني أني سأُراقبكِ أكثر من أبي فالأمر كله يعود إليكِ يا آنستي. قالَ توم شاعرًا بالفخر أنه طبق عليها الاستبداد للتو.

قالت بولي ثم أحاطت شقيقته فاني بذراعيها: لن تفعل! اتركها وشأنها الآن ولا تُزعجها أكثر من ذلك، وتأكد أنها ستكون جيدة معك أيضًا إذا وقعت في ورطة ما وطلبت منها المساعدة.

- لن أفعل ذلك يومًا فلا يمكنني أن أطلب المساعدة من فتاة أصلًا!

سألته بولي بثقة: ولِمَ لا؟ ماذا لو طلبت منا بعد دقيقة مساعدة ما؟

- حقًا؟ هل ترغبين في ذلك؟ حسنًا سأضعك

ذلك في الاعتبار يا آنسة بولي، كوني واثقة من ذلك.

بدأ توم يتصرف بطريقته المتمردة المعهودة، لكن ثمة تغيير واضح في تصرفاته هذه المرة فقد وجد من يمدحه ويقدره بعد أن عاش دائمًا في ظل الخشونة والتجاهل.

بعد تناول الشاي مساءً، اقترحت فاني أن تعلمها بولي أسرار إعداد حلوى دبس السكر، ذلك الطبق الشهي الذي يحضر في العطلات الرسمية، كان المنزل خاليًا في ذلك اليوم، فكرت فاني في أن ترضي شقيقها توم فدعته للانضمام إليهما، وطلبت بولي أن تجلس معهم أيضًا الطفلة مود ذات الأعوام الستة لتحظى ببعض المرح، فجلسوا جميعًا حول طاولة المطبخ الكبيرة الطويلة المزودة بالمطارق والملاعق وغيرها من أدوات الطهي.

تولت بولي زمام الأمور فهي المسؤولة عن صنع الحلوى، ووزعت المهام على الآخرين، فانشغل توم في تقشير الجوز، وانتقت مود الصغيرة شرائح اللحم، وغلت بولي دبس السكر في الإبريق حتى أصبح لونه مثل لون أشجار الفاوانيا.

قالت في نهاية المطاف: والآن ضع الجوز داخل الوعاء. أفرغ توم طبقه فيما كان البقية يراقبون المشهد باهتمام.

قالت بولي شارحةً لهم طريقة إعداد الطبق: كما

رأيتم لقد أفرغتها داخل مقلاة يُغطيها الزبد، وما إن تبرد يمكنكم تناولها.

سألت مود مُستفسرةً: ولكن لماذا تملؤها القشور؟ ثم نظرت إلى المقلاة.

- أوه! يا إلهي! ربما أنا مَن وضعها عن طريق الخطأ! من الواضح إذًا أنني سأتناول تلك القشور بدلًا من شرائح اللحم. قال توم مازحًا مُخفيًا شقاوته، نظرت الفتيات إليه بذهولٍ واضح ثم اجتاحهنَّ الإحباط واليأس.

قالت فاني ضاحكة: لقد فعلت ذلك مُتعَمدًا! أيها الولد اللعين! أعرف جيدًا أنك لست جادًا في شيء. ثم مدت يدها مُحاولةً إمساك شقيقها ومداعبته لكنه أخذ يُقهقه في سعادة مُحاولًا تفاديها.

انفجرت مود الصغيرة في البُكاء لأن توم أفسد فرحتها بطبقِ الطعام الذي شاركت في إعداده مع الجميع. لقد خرب المشهد بأسره، لكن ما جذب انتباهها تلك المُشاجرة التي نشبت بين فاني تلك الفتاة البالغة من العمر ستة عشر عامًا التي هاجمت أخاها، فيما رد لها الأخير الإهانة وأجبرها على الجلوس داخلِ سطل الفحم ثم قيد يديها وراء ظهرها. شعرِ كل منهما بالغضبِ وتبادلا الضربات حتى تحوَّل المشهد إلى مشهد مزعج جدًا.

لم تكن بولي فتاةً مثالية وكانت تملك شخصية

هادئة وعصبية ومُتقلّبة كغيرها من الناس، لكنها لم تعتد يومًا الصراخ أو القتال ولم تتشاجر يومًا مع أشقائها على هذا النحو. لقد دهشت لرؤية صديقتها المُقربة في هذا الموقف الغريب، لذا حاولت أن تتدخل قائلة:

- من فضلكما يا رفاق! أرجوكما توقفا!، قالت هاتفة ثم اقتربت من توم وقالت:

- من فضلك دعها! اتركيه يا فاني! لا يستحق الأمر كل هذا العناء! يمكنني أن أعدّ المزيد، قالت بصوتٍ مرتفع، وحاولت أن تفرقهما.

شعر توم وشقيقته فاني بالخجل الشديد بعد رؤية علامات الاستياء على وجهها، ثم تغير المزاج العام فجأة.

- حسنًا أعدكم أنني لن أُكرر ما فعلته للتو مُجَددًا، ومن الأفضل لك أن تتركيني وشأني يا فاني، قال بنبرةٍ تحذيرية ثم أضاف:

- لقد وضعت القشور داخل الوعاء لأمزح معك فقط يا بولي، ولكن إذا أعددت طبقًا جديدًا أعدك أن أساعدكِ ولن أكرر هذه المزحة، هل أنتِ موافقة؟

- حسنًا يا توم رغم أنه كان عملًا شاقًا فإني مستعدة للمحاولة مرة أخرى إذا أردت ذلك. قالت بولي متنهدة، فقد شعرت بالتعب يخر عظام يديها ويشعرها بالحرّ الشديد.

قالت مود الصغيرة مُلوحةً بالملعقة نحوه: نحن لا نريدك معنا. ابق بعيدًا.

- اصمتي أيتها الصغيرة الباكية. سوف أبقى هنا لأساعد، أليس كذلك يا بولي؟

قالت بولي: تُحب الدِبَبَة الحلوى وعلى هذا سوف تحتاج إلى تناول كثير منها. أين دبس السكر؟ لقد استخدمنا كل ما تبقى داخل تلك الجرة على أي حال لكن يمكننا البدء من جديد.

- أسفل السرداب، سوف أذهب لإحضاره بنفسي، قال توم بحماس وذهب إلى هناك ليؤدي مهمته بإخلاص كأنه قديس!

في تلك اللحظة التي اختفى فيها ضوء مصباح توم، سارعت فاني إلى إغلاق الباب وقالت:

- ها نحن أولاء ننعم بالأمان الآن، لا مزيد من المكر والمقالب. دعيه يواصل الهتاف والنقر على الباب. يُلائمه هذا التصرف التأديبي وعندما تنطفئ الشمعة سنخرج هذا المُشاغِب من القبو.

- وكيف يمكننا صناعة الحلوة دون دبس السكر؟ سألتها بولي وفكرت أن سؤالها هذا سوف يتسبب في تسوية الأمر في الحال.

- هناك كثير من دبس السكر في غرفة التخزين، لا تسمحي له بالدخول وسوف أذهب إلى هناك لأحضر لك الكمية المطلوبة. عليه أن يعرف جيدًا أنه لا يمكنه ضربي على هذا النحو مرة ثانية.

اصنعي الحلوى ودعيه بمفرده في الداخل وإلا سأذهب وأخبر أبي بكل شيء، وحينها سوف ينصِت أخي توم إلى أسوأ محاضرة في حياته.

شعرت بولي أن الأمر ليس عادلًا، فيما كانت مود الصغيرة تتلهف لتناول قطعة الحلوى، ولم تكن تعرف ماذا يمكن أن تفعل لاسترضاء فاني.

استمرَّت بولي في عملها فقشَّرت الجوز وغلته في الإبريق ثانية، وإذ بصوت طرقات على الباب وكلمات تهديد من سجين القبو، يهدد بأنه سيحرق المنزل ويشرب الخمر ويكسر الجرار الموجودة هناك، لكن الفتيات الصغيرات لم يبالين به وأكملن عملهن.

- لا يمكنه أبدًا مغادرة المكان والذهاب إلى أي منطقة أخرى، وما إن ينطفئ نور الشمعة سوف نفتح له باب القبو ونركض على الفور. هيا تعالي معي لنضع طبق الحلوى على الطاولة. قالت فاني ثم فكرت بينها وبين نفسها في الذهاب إلى توم لكنها خشيت أيضًا أن يجن جنونه ويتصرف بحماقة.

عندما ذهبوا إلى الطابق السُفلي، فوجئوا بفقدان المقلاة والحلوى وبعض أدوات الطبخ.

لم يكن هناك تفسير منطقي لاختفاء الحلوى المفاجئ.

قالت فاني ساخرة: ربما ذابت الحلوى داخل

المقلاة، وربما أغرقتها زخات الجليد!

قالت مود الصغيرة وهي متأثرة بشدة: ربما أكلتها القطة!

قالت بولي مُضيفةً: البوابة مفتوحة، ربما جاء إلى هنا أحد المتسولين وسرقها. أتمنى أن يكون مذاقها قد أعجبه، ثم بدأت تفحص الأرجاء جيدًا.

- لو أن توم قد خرج من مكانه لكان أخذ الطبق من هنا، ولكن كيف يخرج من خلال نافذة ضيقة لا شيء يمكنه المرور منها! إذًا فالسارق ليس توم بالتأكيد، قالت فاني وهي تفكر في أنه قد يكون هذا عقابًا لإغضابها أخاها وحبسه في القبو.

قالت بولي: دعينا نفتح الباب ونخبره بما حدث.

- سيركض خلفنا. أظن أنه من الأفضل أن نفتح الباب بسرعة ثم نركض إلى غرفتنا، وحينها سيكون بمقدوره أن يلتقينا متى يحب. ذلك الولد الشقي! فلو لم يزعجنا على هذا النحو لما حدث كل ذلك. كنا حظينا بوقتٍ ممتِع.

فتحت الفتيات الصغيرات باب القبو ثم توجهن إلى الطابق العلوي، وعندما وصلن إلى الدور الثاني توقفن كأنهن شاهدن شبحًا. سمعن صوتًا غامضًا مكتومًا قادمًا من الطابق الأعلى، ثم فجأة ظهر وجه توم المُنهَك المُشاغب يهتف قائلًا:

- يا له من مذاقٍ طيب! هل تردن المزيد؟،

أمسك توم طبق حلوى دبس السكر التي صنعتها بولي منذ بضع دقائق وتناولها بنهم بالغ.

صرخت فاني محاولةً تهدئة نفسها قليلًا بعد أن ارتبكت:

- ما هذا؟ كيف خرجت من القبو بحق الجحيم؟

- طعمها رائع حقًا! قال توم متجاهلًا ما قالته أخته.

- يا إلهي! هل رفعت الغطاء وتسلقت إلى الشارع الرئيس، ثم سرقت الحلوى بعد أن ذهبنا إلى الغرفة الأخرى؟!

- ولكن ألا تستطيع القطط فعلها؟ قال الصوت الساخر بطريقة أضحكت بولي بشدة.

قالت بولي بعد أن التقطت أنفاسها: حسنًا، فقط يمكنك أن تمنح مود قطعة صغيرة من قالبِ الحلوى وإلا ستشعر بالإحباط الشديد، لا داعي لأن تمنحني أنا وفاني قطعة أخرى فنحن لا نريد إذا كنت تناولتها كلها.

قال الصوت الساخر: اذهبي إلى فراشك يا عزيزتي مود، وانظري أسفل الوسادة عندما تصلين إلى هناك.

توجهت الفتيات إلى فراشهن مُنهكات بشدة. نامت مود الصغيرة دون أن تُفتش أسفل وسادتها عن قالب الحلوى الذي وعدها به توم، فلا أحد يأخذ كلامه على محمل الجد على أي حال. كانت

بولي مُرهقة جدًا لذا سقطت في سُبات عميق، أما فاني فلم تتمكن من النوم مُباشرةً وظلت مُمددة على الفراش تفكر في مشكلاتها الصغيرة وتتألم بسبب صداع الرأس الذي داهمها لأنها تشاجرت مع شقيقها توم، وقد شعرت بالسخط وعدم الرضا من أجواء اليوم التي سيطرت عليها الخلافات.

توسدت فراشها وأخذت تتأمل الردهة المقابلة لها عبر ضوء مصباح الطاولة الخافت، فلمحت شخصًا يتحرك نحوها كأنه يزحف، تملكها الذُعر فهتفت مُتسائلة:

- مَن هناك؟

أيقظ صوتها بولي النائمة إلى جوارها.

- هذه أنا جدتك يا عزيزتي، يُعاني توم المسكين آلامًا في الأسنان، كنت أبحث عن زجاجة الدواء لكني لم أجدها لذا جئت أسألك عنها، فلم أرغب في أن أزعج أمك في هذه الساعة.

قالت فاني راضية: إنها داخل خزانتي. من الواضح أن توم سيدفع ثمن خدعته هذه المرة.

قالت بولي ضاحكة: أظن أنه تناول ما يكفي من الحلوى.

سقط جميعهم في سُبات عميق تاركين توم لآلامه ورحمات الجدة العطوفة.

الفصل الثالث

اكتشفت بولي أنها في عالم جديد تختلف فيه السلوكيات والعادات والتقاليد عن تلك الأمور البسيطة التي كانت في ديارها. لقد شعرت أنها فتاة غريبة في أرضٍ غريبة، وتمنت طوال الوقت لو أنها لم تأتِ إلى المدينة، كانت تستمتع بالثرثرة مع صديقاتها وقراءة الروايات والتجول في الطرقات وارتداء الثياب، ولكن بعد مضي أسبوع واحد ضاقت ذرعًا بكل ذلك، تمامًا مثل شخص يتمتع بصحة جيدة أدمن تناول الحلوى!

في المقابل، أحبت فاني تلك الأجواء وتعلقت بها لأنها اعتادتها، ولم تعش في حياتها يومًا أفضل منه، لكن بولي كانت تشعر كأنها طير بري محتجزٌ داخل قفص ذهبي، ومع ذلك كله فقد أعجبتها الكماليات وأوجه الرفاهية وأبهرتها، حتى أنها تساءلت كيف لا تكون عائلة شو أسعد عائلة في البلدة! لم تكن بولي حكيمة بما يكفي لتعرف السبب، ولم تحاول أن تعرف أي الحياتين أفضل لها، وظنت أن تلك إحدى أفكارها قديمة الطراز وحسب.

جدير بالذكر أنها لم تكن لتهتم بصديقات فاني، بل كانت تخشاهن، فقد شعرت أنهن أكبر سنًا وأكثر حكمة منها، وحتى أولئك الفتيات الأصغر سِنًا كن يتحدثن عن أشياء لم تكن لتعرف عنها

أي شيء، وكلما قدّمت فاني شرحًا تفصيليًّا عن تلك الأمور محط النقاش شعرت بولي بالصدمة وعدم الرغبة في معرفة المزيد.

يمكننا القول إن بولي لم تنسجم مع صديقات فاني، لم تكن تشاركهن أي اهتمامات، لذا كان تعاملها معهن رسميًا، كانت الفتيات ينظرن إليها أنها غريبة الأطوار. ابتعدت بولي عنهن وفضلت اللجوء إلى الصغيرة مود، فكرت أن تتخذ منها خليلتها المُقربة فقد ظنت أنهما سينسجمان معًا، لكن حتى الآنسة «مود» الصغيرة ذات الأعوام الستة كان لها مجموعتها الخاصة، وكانت مشغولة جدًّا في شؤونها، وقد اعتادت الذهاب برفقة صديقاتها إلى حفلاتهم الموسيقية وحفلات الشاي والتجول والتسوق! أجل حتى أولئك الفتيات الصغار كن يتصرفن على غرار الفتيات الأكبر سنًا فهن أيضًا يملكن عالمهن، فقد رغبن بشدة في مواكبة حماقاتِ الموضة التي يتعذر على براءتهن فهمها.

كان للصغيرة مود بطاقتها المالية وفواتيرها وصندوق القُفازات والدبابيس ودرج المجوهرات ومساحيق التجميل، وكانت تبدو مثل عروس فرنسية مثالية، ولها خادمة فرنسية. لم تكن بولي قادرة على الانسجام معها في البِدايةِ، لأنها لم تبدُ لها طفلة، بل كانت دائمًا تصحح لها تصرفاتها وسلوكياتها، فهي ترى نفسها آنسة صغيرة مثالية خالية من العيوب. من حين إلى آخر تدخل

الآنسة مود الصغيرة ذات السنوات الست في نوبات تشنج عصبية -مثل أمها- ثم تذهب إلى غرفة بولي حتى تلعب معها معتمدةً على أساليبها وطرقها البسيطة التي تجعل الفتاة تشعر بتحسن واضح. تستمتع بولي بتلك الأوقات وتسرد القصص وتلعب مع الفتاة وتذهب معها إلى الخارج، تحاول بذل قصارى جهدها حتى تفوز بقلبِ تلك الطفلة، وتزيح عن المنزل بأسره سِتار الطغيان الذي يُسيطر عليه.

اعتاد توم التحديق في وجه بولي كلما وقعت عيناه عليها، لم يكن ينتبه للفتيات عمومًا إذا التقى إحداهن، لكنه كان ينسجم مع بولي جيدًا ويحب أن يُشاكسها في أوقات كثيرة مُحاولًا إغاظتها قدر الإمكان، مثلًا كان يتعمد القفز خلفها عندما تصعد الدرج، أو يركض خلفها ويختبئ ثم يظهر فجأةً أمامها. كان يطيل النظر إلى وجهها عند تناول الطعام حتى تغضب وتعبس فجأة، فيصرف نظره إلى شيء آخر بارتباك وحرج. كانت بولي تزعجها تصرفات توم، لكنه قال لها إنه يفعل ذلك لمصلحتها، لأنها فتاة خجولة جدًا ويريد أن تكون أكثر جرأة مثل فتيات عصرها. لكن بولي ردت عليه بأنها لا ترغب في أن تشبه تلك الفتيات المتصنعات.

أحبت بولي توم تدريجيًا بعدما رأت ما يعانيه من إهمال أسرته وتجاهلها له، إذ يبدو أنه يعيش

في قوقعة مُنعزلة عمَّن حوله. حتى أنها تساءلت متعجبة: تُرى، لماذا لا تحنو عليه أمه كما تفعل مع الفتيات؟ ولماذا يعامله والده بنظام الأوامر العسكرية كأنه يُعاقب أحد العُمال المُتمردين وليس ابنه؟ كأنه لا يهتم بوجوده أصلًا.

لم ترَ فيه شقيقته فاني سوى دُب لا أكثر ولا أقل، وكانت تشعر بالحزن لأنه شقيقها ولا تفخر به أبدًا، ولم تحاول يومًا أن تتقرب منه. أما شقيقته الصغرى مود فقد عاشت معه يوميات القط والفأر، يمكن القول إن جدته الكُبرى هي الوحيدة التي اهتمت به وعاملته بلطف واضح، شاهدت بولي توم يفعل أشياء نبيلة خلال مكوثها في منزلهم. شعرت بالانجذاب نحوه، وفكرت في أن تُخبره بكل تلك السمات التي تُميزه. أرادت أن تمدحه على الملأ لكنها سرعان ما قررت أن تُبقي فمها مُغلقًا في ما فكرت فيه سرًا مدة طويلة.

كانت الجدة الكُبرى نفسها تُعاني الإهمال الشديد، ربما لهذا السبب نشأت علاقة صداقة قوية مع حفيدها توم، فلديهما قاسم مشترك في تلك النقطة. ومع أن الجدة كانت قديمة الطراز أكثر من بولي نفسها، فإن الناس فقدوا اهتمامهم بها، لم يكن هناك أحد يستشيرها أو يستفيد من خبرتها، كان الجميع يعاملونها كأن حياتها قد انتهت، وأصبح عليها فقط أن تطيع رأي الآخرين وأن تظهر بشكلٍ لائق أمام الضيوف وأن تلتزم

حياتها المنزلية الهادئة فحسب، فهي تقضي معظم ساعاتها داخل غرفتها القديمة ذات الأثاث القديم والكتب القديمة وجرائد الماضي، تلك التفاصيل التي لم تعد تنتمي إلى العصر الراهن وفقدت قيمتها بطبيعة الحال. كان ابنها السيد شو يزورها في غرفتها من وقت إلى آخر هامسًا في أذنها ببعض العبارات الودودة، ولكنه بالمقابل لم يسألها إن كانت بحاجة إلى المال، فقد حسم أمره أن لا حاجة لعجوز إلى المال، وأن كل المال يجب أن يكون له ليستمتع به، لم تكن زوجته السيدة شو تتذمر قط من ذلك الوضع الرتيب، وكانت ترسم على وجهها نظرة حزينة مؤسفة طيلة الوقت من خلف النافذة، ومع ذلك تشعر بولي أحيانًا أن السيدة شو تنظر إلى أولادها باشتياق بالغ مع أنهم جميعًا يسكنون في منزل واحد، لكنها تشعر أنهم يعيشون بعيدًا عنها في منطقة منعزلة وتود بشدة لو تحتضنهم وتدللهم كأطفال صغار!

من ناحيتها كانت بولي تعامل الجدة بودّ وألفة شديدة كأنها جدتها الحقيقية. كان هناك شيء آخر يزعج بولي خلال إقامتها في ذلك المكان، فقد كانت ترغب في ممارسة التمارين الرياضية، فهي لم تحب قط أن تذهب إلى الحفلات أو أن تركب العربات الفخمة أو تستعرض ثيابها خلال التنزه في الشوارع الرئيسة الشهيرة في البلاد، كل ما أرادته بصدق أن تمارس الرياضة التي اعتادتها

في الديار كالقفز على الحبال وتسلق أكوام القش والركض نحو الطاحونة والذهاب إلى الشاطئ وأعمال البَستَنَة في حديقة منزلها والصعود على متن قاربها.

لا عجَب إذًا أن بولي تتوق إلى حياة أكثر حيوية ومغامرة بعيدًا عن أسلوب حياة فتيات المدينة ذوات الجدائل الشقراء والأحذية ذات الكعب العالي والثياب المُزركشة.

كانت بولي تخجل من مصاحبتهنّ، فكانت تفضل أن تكون وحدها أو مع فاني التي تقضي وقتها في قراءة الروايات أو تكون برفقة أحدهم بعض الوقت أو تتجول بين الطرقات والأزقة. كانت بولي تُراقب الشاطئ من بعيد مستمتعةً بمشاهدة البحارة والسفن متذكرةً أباها في الريف متمنيةً أن تبحر هي أيضًا، ثم تعود مبتهجة وسعيدة.

في إحدى المساءات قبل موعد تناول العشاء بقليل، شعرت بولي بالإرهاق الشديد لكونها لا تمارس أي مجهود بدني على الإطلاق، أحسّت بالحنين إلى الرقص، لقد كان يومًا مُملًا، فعلى الرغم من أن الشمس تسطع على مرأى الجميع فإن البرودة تلسع البدن بلؤم واضح. حاولت بولي ألا تشعر بالحنين إلى الديار في تلك اللحظة الحرجة. تأملت البحارة بعينين مفتوحتين كما لو كانت ترى حلم يقظة، كانت الفتيات الصغيرات يلعبن على التلال القرمزية بمعاطفهن الثقيلة وأحذيتهن

المطاطية. اقتربت منهن بولي شيئًا فشيئًا شاعرةً بالدفء والبهجة.

قالت مود الصغيرة: أريد أن أذهب إلى هناك إلى الأسفل لكني أخشى المنحدرات. ردت بولي بلهجة واثقة:

- تستطيعين الذهاب إلى هناك، إن كنتِ تسمحين لي بأخذ مزلجتك، وسأحملكِ معي.

انطلقت بولي برفقة مود الصغيرة وصديقتها الأخرى، وبعد أن تفقدت أوضاع المنطقة. وضعت المزلجة على الأرض، وحملت الفتاتين معها، لتستمتع بالجولة على التلال.

وفجأة سمعت صوتًا يناديها من الخلف:

- مرحبًا يا بولي! كيف حالك؟ هل تعرف فاني شيئًا عن جولتك هذه؟ سألها توم ساخرًا متأملًا المزلجة.

- لا أعرف. ولا يهمني رأيها. فأنا أفعل ما كنتُ أفعله في دياري. لا ضرر في ذلك على الإطلاق. أنا أستغل الفرصة. قالت بولي، وهي ترتب خصلات شعرها التي تطايرت مع الريح شاعرةً بالبهجة لأنها أقدمت على تلك الخطوة بشجاعة.

قال توم في انتشاء بالغ: هذا جيد يا بولي. ثم ركض خلفها بمزلجته وقال:

- لكن إذا ذهبتِ إلى هناك، هل لي أن أُخبر

أمي بذلك؟

قالت بولي برقة وثقة: إذا شئتَ فافعل ذلك على الفور. لا تتردد لحظةً.

ابتسم توم وقال لها:

- لكني لا أريد أن أخبر أمّي بشيءٍ من هذا، خشيةَ أن تخبر أمَّكَ، فتقلق عليكِ.

- حقًّا؟ لن تخبر أمك؟

قال توم مازحًا: حسنًا، إن سألتني سأقول لها وإلا فلا أخبرها بشيء. ثم أضاف:

- ولكن هل يمكنكِ العودة إلى هنا الآن؟

- انتظر قليلًا، بقي لنا جولةٌ واحدةٌ. فقد وعدتُ الفتيات بهذا.

قال توم: دعي الفتيات يركبن المزلجة بمفردهن. لا ضرر في ذلك، وتعالي انضمي إليّ.

أوقفت بولي المزلجة وتركت الفتيات وحدهنّ، ثم توجهت نحو مزلجة توم وركبت إلى جواره مثبتةً أقدامها جيدًا، وبدأت الجولة المثيرة على التلال. ضحك الاثنان وتمايلا من شدّة السعادة. فرحا كثيرًا، ولأول مرة لاحظت بولي ذلك الجانب المشرِق الخفي في توم. استمرت جولتهما حتى غروب الشمس وحان موعد العشاء.

قالت بولي متوجهة ناحية الساحل: أظن أننا تأخرنا كثيرًا يجدر، بنا أن نركض.

- ابقي ساكنة كما أنتِ، وسآخذك إلى المنزل في لمح البصر.

دفع توم المزلجة إلى المنزل بسرعة هائلة، دلفت بولي برفقته إلى الداخل ليجدوا كُل أفراد العائلة مجتمعين حول طاولة العشاء.

سألتها فاني: أنفك شديد الاحمرار يا عزيزتي! إنه كصلصلة التوت البري! أين كنتِ؟

- لا تقلقي لقد حظيت بوقت مُمتِع جدًّا في الخارج، ومارست بعض رياضاتي المُفضلة.

- في الواقع لا أجد أي لذة في ممارسة تلك التمارين خصوصًا في ظل هذه البرودة القارسة!

قالت بولي راسمة ابتسامة عريضة على وجهها: ربما تشعرين بنفعها إذا مارستها.

ثم نظرتْ بولي إلى توم وضحكت، عندها انتبهت الجدة الكُبرى وسألتها على الفور:

- هل ذهبتِ وحدك يا عزيزتي؟

- لقد التقيت توم وجئنا إلى هنا معًا.

لمعت عيناها عندما قالت ذلك، وحينها كاد توم يختنق وهو يتناول حساءه.

- توماس! انهض وغادر الطاولة في الحال! أمره والده السيد شو بغضب.

قالت بولي: من فضلك لا تطرده يا سيدي، فأنا من أضحكه هكذا!

سألت فاني ساخرةً: ما المضحك في ذلك؟

قالت مود الصغيرة: لم أكن أتوقع أن تضحكيه فيما كان يحاول دائمًا إخافتك!

قال الأب مُتذمرًا: ما الذي كنت تفعله هنالك يا سيد توم؟

قال توم بصوتٍ خافت: لا شيء، كنت أتزلج عند التل فقط، فهو يعرف جيدًا أن والده على وشك أن يُلقي عليه محاضرة أخلاقية كاملة، ويجعل بناته يضحكن من قلوبهن على شقيقهن الوحيد الأبله.

قالت مود الصغيرة: كنا برفقة بولي يا أبي أنا ورفيقتي وتزلجنا معها على المزلجة، ثم رأينا توم وصديقه هناك.

قالت فاني: هل فعلتم ذلك حقًا؟ يا إلهي!

قالت بولي: نعم فعلنا. وكان التزلج على التل ممتعًا جدًا.

سألتها فاني بنبرةٍ غاضبة: هل رآكم أحد؟

- بعض الفتيات الصغيرات وتوم.

- هذا تصرف غير لائق! كان من المفترض أن يُخبركِ توم بأنه لا يجوز لكِ فعل ذلك. أنا أفضِّل أن أموت على أن يسمع أصدقائي بهذا الأمر!

- كفاكِ هراء يا فاني! لم تفعل بولي شيئًا خاطئًا، فهي تُحب التزلج واعتادت فعله في ديارها!

قالت بولي: لقد سمحت لي أمي أن أفعل ذلك، فلقد اعتدت التزلج هناك برفقة الأولاد ولا يوجد أي ضرر في ذلك.

قالت السيدة شو بحزم: يفعل الناس في القرى أشياء كثيرة لا يليق فعلها هنا.

قال السيد شو مُقاطعًا زوجته: دعي الطفلة تفعل ما يحلو لها، ولتأخذ ابنتنا مود الصغيرة برفقتها، في الواقع أنا مسرور جدًا باستضافة هذه الفتاة في منزلنا. كان ذلك بمثابة نهاية الحوار.

قالت بولي بامتنان: شكرًا لك يا سيدي. ثم أومأت برأسها لتوم الذي شعر بالارتياح وبدأ يلتهم طعامه بشهية مفتوحة كما لو كان ذئبًا.

قالت فاني في ذهول: أوه! أيتها الماكرة! هل خرجتِ حقًا برفقة شقيقي توم! ثم شعرت بالحرج والارتباك الشديدين، وغيرت الموضوع بسرعة وتظاهرت أنها تسأل أمها عن قفازات جديدة.

شعرت بولي بالسكينة، وما إن أنهت تناول العشاء غادرت الغرفة، وبدأت تفكر بصمت في تلك المسألة عمومًا. وعندما وصلت إلى منتصف الدَرج التقت توم يقف ثابتًا في مكانه وعلى وجهه ابتسامة خفيفة ثم قال:

- سأكون مسرورًا لو تزلجنا معًا غدًا عند التل.

- أعتذر إليك يا توم، لا يمكنني المجيء.

- لِمَ لا؟ هل أنتِ غاضبة؟ أنا لم أُخبر أحدًا.

دهش توم جدًا في تلك اللحظة.

- أجل، أعرف لقد حافظت على كلمتك معي، وأنا لست غاضبة أيضًا لكن الأمر يغضب أمك.

- أعرف أن هذا ليس السبب، فلقد أومأتِ لي برأسك بعدما قلتِ لهم الحقيقة، ما الأمر؟

- لا يمكنني إخبارك لكني لن أذهب إلى هناك.

- في الواقع يا بولي أنتِ أكثر الفتيات عقلانية، فلقد اعتدت لقاء كثير من الفتيات التافهات ولكن قرارك هذا يجعلني لا أعطيكِ أي اهتمام.

- شكرًا للطفك.

قال توم بغضب: أكره الجُبناء.

- لست جبانة!

- بلى، أنتِ كذلك. إنك ترفضين الخروج معي لأنكِ تخشين ما سيقوله الناس! أليس كذلك؟

كانت بولي تعرف جيدًا في قرارة نفسها أن توم محق فيما قاله، ومع هذا فقد أرادت حقًا أن تُفصح عمّا في داخلها، ولكن ماذا عساها أن تقول؟

- حسنًا ليكن..

قال توم:

- يا إلهي! لا أعرف ما الذي عليّ فعله! فها هو ذا يعاملني برقة وطيبة. وها نحن أولاء نحظى بوقتٍ جيد معًا لكن ما تقوله فاني سخيف جدًا،

كما أن السيدة شو لا يعجبها ذلك ناهيك برأي الجدة الكُبرى. أعرف أني إذا وافقته سأثير حالة من الفوضى في المنزل. حسنًا سأدعه يعتقد أنني خائفة فحسب، فأنا لم أرَ أناسًا سخيفين إلى هذه الدرجة من قبل!

عندما أغلقت بولي باب غرفتها انفجرت في نوبة بُكاء. لقد شعرت أنها مُستنزفة داخليًا، وبدأت تلك الأفكار السلبية تراودها. فكرت في كل هؤلاء العاشقين اليافعين. وتأملت حماقاتهم وردود أفعالهم الطائشة. وتساءلت: تُرى، هل ما فعلته للتو كان سخيفًا؟ هل الحب شعور مُقدّس حقًا؟ حاولت بولي أن تقنع نفسها أنها اتخذت القرار الصائب بالابتعاد عن توم حتى إن اضطرها ذلك إلى التوقف عن ممارسة رياضة التزلج على التل.

أخذت تُقاوم شعورها بالحب في صمت، حتى جاءت تلك المرة التي سألت فيها مود الصغيرة أمها ببراءة:

- أمي، هل يُفترض أن يكون لي حبيب؟ كل الفتيات لديهن حبيب! هل كان لك حبيب يا أمي؟

أجابتها أمها أنها كانت تملك حبيبًا. أعادتها تلك العبارات الرومانسية إلى شعورها السابق الذي بذلت كل جهدها لمقاومته.

تذكرت بولي أمها في تلك اللحظة وتخيلت نفسها

مكان مود الصغيرة. ماذا إن طرحت على أمها هذا السؤال، ثم ارتبكت قليلًا عندما تخيلت جواب والدتها يتردد في أذنيها، بالتأكيد كانت تعد سؤالًا كهذا أمرًا غريبًا غير طبيعي لا يُفترض بها التفكير فيه أصلًا، ولم تكن لتتعامل مع المسألة بنفس الطريقة التي تعاملت بها السيدة شو مع ابنتها للتو.

التزمت بولي العزلة خلال تلك المدة التي قررت فيها الابتعاد عن توم. حاولت الاشتراك في الأنشطة مع فاني ومود الصغيرة، فكن يحضرن الدروس معًا ويتقاسمن الأوقات، يرقصن ويقفزن على الحبال، إلخ. تمكن توم بمهارة من تجاهل بولي تمامًا كأنه لا يراها أصلًا. لقد أثبت لها بالدليل القاطع أنها غير جديرة باهتمامه.

ثمة شيء آخر كان يزعج بولي كثيرًا وهو ثيابها، فعلى الرغم من أنه لم يتذمر أحد بشأن ما ترتديه فإنها كانت تشعر في داخلها أن ثيابها بسيطة جدًا ولا تليق بها، لذا فكرت في خطة لتغيير مظهرها، أحبت أن ترتدي الأقمشة الزرقاء والأوشحة الملونة والقلادة، وفكرت لأول مرة في حياتها أن تغير تسريحة شعرها. ولكنها احتفظت بتلك الأفكار سرًا في رأسها، ثم فكرت أن تكتب خطابًا لأمها وتسألها:

«ما رأيك يا أمي أن أغير ثيابي وأرتدي أزياء أخرى مثل فاني؟»

ردت أمها:

- لا يا عزيزتي، ثيابك تناسبك جدًّا، فالملابس البسيطة هي الأكثر أناقة على الإطلاق، فلا أحب أن يعجب الآخرون بابنتي بولي بسبب ثيابها فحسب، لكن أريدهم أن يعجبوا بشخصيتها الطيبة، لذا ارتدي ثيابك العادية البسيطة، واتركي أثرًا لا ينسى في هذا العالم الواسع، ربما تثبت ابنتي الصغيرة تلك الفكرة التي تقول إن قلبًا تملؤه السكينة ووجهًا يغمره الجمال أفضل من أغلى مساحيق التجميل الباريسية وأجودها، وإذا كنتِ ترغبين في قلادة يا عزيزتي فسأرسل إليكِ واحدة تحمل صورة والدك على أحد الجوانب وصورتي على الجانب الآخر، فكلما شعرتِ بالضيق نظرت إلينا فإذا بشمس حياتكِ تُشرِق من جديد.

لاحقًا تخلت بولي عن فكرة تغيير ثيابها التقليدية تمامًا. وفكرت مرارًا فيما قالته لها أمها وأدركت بالفعل أن البساطة سرّ الأناقة الحقيقية، وأن ما يهم فعلًا هو جوهر نفسها الحقيقية وليس ما ترتديه أمام الآخرين.

قالت فاني في أثناء تسوقهما معًا في أحد المتاجر: هل يمكنني أن أناديكِ باسم ماري يا بولي؟

- ماري؟ ولِمَ ترغبين في مناداتي بهذا الاسم ما دمت أملك اسمًا؟ أعتقد أن اسمي يعجبني فأنا لا أريد أن أكون سواي.

- لأننا نحب أن ينادي بعضنا بعضًا بتلك الأسماء الفرنسية، ولكن لا يهم، ليس هذا ما أردت قوله لكِ، هناك شيء آخر، هل تريدين شراء حذاء بروَنزي؟ أظن أنكِ تحتاجين زوجين منه.

- ولماذا عليّ ذلك؟

- لأنه يتوافق مع الموضة يا عزيزتي، وأنا سأشتري زوجين منه أيضًا.

- كم التكلفة؟

- أظن ثمانية أو تسعة دولارات، إن كنت لا تملكين المال الكافي الآن يمكنني أن أقرضكِ.

- لدي بعض المال الذي جلبته معي لشراء بعض الهدايا للأطفال.. نحو عشرة دولارات.

- لا تهتمي بالهدايا كثيرًا، شراء الحذاء البرونزي أفضل في الوقت الراهن.

قالت بولي: حسنًا سأفعل، وذهبت مع فاني نحو متجر الأحذية على طريقة الأثرياء.

قالت فاني هامسة: انظري! يبدو هذا الحذاء رائعًا! من فضلك ارتديه في حفلتي سترقصين حينها مثل جنية الحكايات!

تأملت بولي الحذاء البرونزي جيدًا وشعرت بالحيرة، فمع أنه جميل وأنيق ولكنها كانت تود شراء الهدايا للأطفال. ربما تشعر بالسعادة إذا اشترت هذا الحذاء الجميل لبعض الوقت. ربما يُلائمها، ربما ترقص فيه بخفة، لكنها فكرت في

الفرحة التي ستدخل قلوب من تُحِبُّ عندما تهديهم الهدايا، وعندما قارنت بولي بين السعادتين أدركت أنها لا تستطيع إلا أن تعيد الحذاء إلى مكانه وتشتري الهدايا بدلًا منه.

سرت الجدة الكبرى بما فعلته بولي عندما أخبرتها بما حدث، وأثنت عليها، وحينها اطمأن قلب الفتاة وسعدت بقرارها، ولكنها عندما خلدت إلى فراشها تَمتمت هامسةً في شوق: «الحذاء البرونزي».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الرابع

- لا يمكنني الذهاب، إنني أشعر بالألم الشديد فلا أحد يريد أن يلعب معي على الإطلاق، قالت مود الصغيرة عندما عثرت عليها بولي تجلس على الدرج تنتحب ثم سألتها عن السبب.

- سوف ألعب معك، لا تصرخي حتى لا تنزعج أمك، ماذا يمكننا أن نلعب؟

قالت مود مُشيرةً إلى إحدى دُماها الباريسية التي عثرت عليها في إحدى الزوايا بقدم واحدة: لا أعرف. لقد سئمت كل شيء فقد تحطمت كل ألعابي، والدمى اهترأت تمامًا.

سألتها بولي محاولةً التخفيف عنها: حسنًا هل ترغبين أن أرتدي لكِ زي الأميرة الساحرة لنلعب معًا قليلًا؟

- كلا ستبدين حينها أجمل مني لأن ثياب الأميرة أحلى من ثيابي، كما أن توم لن يكف عن السخرية مني في تلك الأثناء.

- حسنًا وماذا لو قصصنا الأقمشة وتجهيز الثياب التي ترغبين في ارتدائها؟

ابتسمت مود ثم قفزت فرحًا قائلةً:

- أوه! كم أود ذلك! أحب قص الأقمشة! حسنًا يمكنني فعلها!

جلست بولي برفقة مود الصغيرة وشقيقتها كيتي

في غرفةِ الجلوس، وبدأت تلعب مع الصغيرات بالدُمى، فرحت مود كثيرًا عندما تمكنت من قص ثوب أكثر جمالًا من هذا الثوب الذي كانت ترتديه صديقتها كلارا، وضحكت ضحكة عميقة عفوية. لاحقًا دخلت فاني إلى الغرفة ولاحظت أن بولي تلعب بالدُمى مع الفتيات الصغيرات، فنظرت إليها ساخرة وقالت بتهكم:

- ما الأمر يا بولي! أتلعبين بالدُمى! أذكر أني لم ألمس تلك الأشياء السطحية السخيفة مذ كنت طفلة صغيرة جدًا! ألا تشعرين بالخجل؟

قالت بولي بنبرة واثقة: كلا! لا أشعر بالخجلِ على الإطلاق، ما دامت مود سعيدة وكيتي تشعران بالسعادة، فاللعب بالدُمى بالنسبة إلي أفضل من التسكع في الشوارع وقراءة الروايات السخيفة. ثم أكملت ما كانت تفعل.

- بربكِ يا بولي! ألا يُمكنك التحدث إليّ قليلًا الآن؟ قالت فاني وهي تتوق لأن تعود صداقتها بالفتاة الريفية بولي إلى طبيعتها مُجددًا، فقد كان يومها مملًا دونها.

قالت بولي وهي تواصل حياكة ثياب الدُمى: أنا مشغولة جدًا يا فاني.

سألتها فاني وهي تُراقبها بفضول شديد: أوه! أنتِ دائمًا مشغولة يا بولي! في الواقع أنا لم أرَ فتاة مثلكِ من قبل! فما الذي تفعلينه طوال الوقت؟

- إنني أجد لذتي دائمًا في ممارسة التمارين، لكني أحيانًا أشعر بالكسل الرهيب فأتمدد على الأريكة أقرأ الحكايات الخيالية دون أن أفعل شيئًا.

انضمت إليها فاني وشاركتها دون تأخير في حياكة ثياب الدمى، وساعدتها في تركيب الشعر المستعار الملون للأميرات الصغيرات، ومع أنها كانت تشعر بالملل الشديد فإنها انسجمت فجأة في العمل مع بولي، فيما كانت الجدة الكبرى تبارك جلسة الفتيات راسمةً تلك الابتسامة الهادئة العريضة على وجهها.

تأمل السيد شو رب المنزل وجوه الفتيات الصغيرات التي تفيض بالإشراق والابتهاج حول طاولة العشاء، وأطال النظر إلى الثوب الذي حاكته الفتاة الريفية لدمية ابنته الصغرى مود ثم قال:

- من الواضح أن بولي أبدعت في عملها اليوم!

نظرت إليه بولي وقالت:

- في الواقع لم أفعل شيئًا هائلًا، كل ما في الأمر أني حكت ثوب دمية مود فقط.

اعتقدت بولي أنها لم تفعل شيئًا كثيرًا، فقد كانت ترى تلك الأنشطة من الأمور البسيطة التي تحب مشاركتها مع الآخرين، ففي الأيام الماطرة تجد الأرواح العظيمة تأخذ بأيدينا نحو سحابات الدفء، فتلك الأفعال الجيدة البسيطة هي التي

تعود علينا بالنفع، تجعلنا تلك السلوكيات البريئة التي تخلو من الأنانية ننعم بالسعادة وراحة البال. لا يمنح هذا العطاء إلا النبلاء، فهو يشبه إلى حد كبير عطاء الأمهات الفطري، إذ تقدم الأم كلّ ما لديها لأطفالها فقط لرؤيتهم سعداء. فهمت بولي هذا السر جيدًا.

كانت بولي كالشمس المضيئة، فقد كانت تحب مساعدة من حولها، وتعاملهم بقلب كريم ونقي. فقد نشأت في منزل محبٍ وسعيد.

كان شو والد توم يعاملها جيدًا، فقد جذبت بولي قلوب كل من حولها، كانت تُقدّر معاملة السيد شو لها، وتظهر له احترامًا كبيرًا.

كانت تجلب البهجة إلى ذلك المنزل الفخم، فكثيرًا ما تزور مكتب السيد شو في الصباح، وتبتسم له بفرح، وتقفز في المكان بحيوية كأنها تنيره بوجهها الجميل وروحها الخفيفة وصوتها العذب.

تعلّق بها أفراد أسرة السيد شو حتى أن رب المنزل نفسه كان يراها فتاة مفعمة بالحيوية وكان يتمنى لو أن تتعلم ابنته فاني صديقتها المقربة منها كثيرًا من الأشياء. من جانبها كانت بولي تُشفق جدًا على السيد شو، فهو رجل مسكين فقد أهمل كل شيء من أجل جمع المال، ولم يجد الوقت ليقضيه مع أبنائه. وعندما أصبح لديه وقت فراغ، كان أبناؤه قد كبروا واستغنوا عنه. شعرت بولي

أن الرجل يفتقد شيئًا هامًا ضاع منه في رحلة حياته. فهو لم يكسب ثقة أبنائه، وقد أدمن معاملتهم بلا مبالاة.

وعندما كانت الفتيات تستعد للذهاب إلى الفراش، نهضت بولي وقبلت الجدة الكُبرى كعادتها، ضحكت فاني ساخرة وقالت:

- يا لك من طفلة صغيرة يا بولي! لقد كبرنا على فعل ذلك!

- لا أعتقد أن المرء يتوقف يومًا عن تقبيل أفراد عائلته الأكبر سِنًا.

قال السيد شو: أنتِ مُحقّة يا عزيزتي بولي. ثم مد يده نحوها مُحاولًا مصافحتها بلطف حيث بادرت الفتاة بذلك، بدت الصدمة جليةً على وجه فاني التي قالت مذهولة:

- لم أكن أعرف أنك تهتم بتلك الأشياء يا أبي!

قال الأب: بالطبع أهتم يا عزيزتي. ثم مد يده الأخرى ناحية ابنته محتضنًا إياها لأول مرة.

بالمقابل، كانت السيدة شو تعاني عصبيةً شديدة ومزاجًا متقلبًا يتغير كل لحظة، فأرادت بولي أن تكون لها سندًا ومعينًا في تخطي أزماتها، فأظهرت مهارة عالية في ذلك الجانب، فقد كانت تقرأ لها الروايات وتخرج معها للتنزه لبعض الوقت وتُحيك لها الأوشحة، وكانت الجدة الكبرى تفرح بوجود بولي طيلة الوقت معها لخدمتها ومشاركتها

الأنشطة، مثل الاستماع إلى دروس الموسيقا والفنون المختلفة وتعلم الحرف اليدوية.

ظل توم بالنسبة إليها لغزًا عصيًا على التفسير مدة طويلة من الوقت، فلقد كان يعاملها بطريقة توحي بتقلبه المزاجي، وكان يختفي في أماكن مختلفة دون أن يكتفي بمكان واحد فيصعب عليها إيجاده عندما تطلبه، كان الفتى وديعًا جدًا، وأصبح فجأة شرسًا كالدب، لقد كان يعاملها بطيبة وود في السابق، وقد تبدل كل ذلك فأصبح يتجاهلها منذ شجارهما الأخير، لكنها لم تستطع أن تعامله بنفس الطريقة، بل كانت تسعى دائمًا لمساعدته إذا احتاج إليها، فلقد اعتادت دائمًا أن تكون هكذا معه.

رأته بولي جالسًا إلى الطاولة يتصفح كتبه المدرسية تصفحًا فوضويًا مثيرًا للشفقة.

سألته بولي: هل يمكنني مساعدتك؟ أهناك خطب ما؟

نظر إليها توم بلا مبالاة ثم قال:

- في الواقع أعاني صعوبة بالغة في فهم تلك الكتب التي تغوص في أعماق التاريخ، فما علاقتي أنا بالقرطاجيين بحق الجحيم؟ ما الفائدة من قراءة هذه المواضيع الآن؟ ناهيك بالمعارك الحربية والقادة والجنود! كل هذا الهراء!

قالت بولي: أنا أحب اللغة اللاتينية، كنت

أساعد أخي جيمي في قراءتها، يمكنني تقديم بعض العون إذا أردت ذلك.

قال توم مُحاولًا إغاظتها قدر الإمكان: تتظاهر الفتيات دائمًا بالتَّفوق والمعرفة! ولكن هذا غير حقيقي! لكن بولي اقتربت منه أكثر، وبدأت بتصفح كتابه المدرسي، ثم شرعت في قراءة النصوص باللغة اللاتينية ببراعة حتى وصلت إلى منتصف المادة تقريبًا.. حينها، ضحك توم مازحًا واستوقفها فجأة ثم قال:

- أيتها المُخادعة! لقد تخطيت عدة صفحات الآن!

ضحكت له بولي ثم أعادت القراءة من جديد بنفس المهارة حتى كادت تنتهي من الكتاب كاملًا.

حدق في وجهها بإعجابٍ بالغ ثم قال:

- وكيف لكِ أن تعرفي كل هذا؟

- كنت أدرسه مع شقيقي جيمي، واستطعت أن أُحرز تقدمًا فيه حتى يسمح لنا أبي بالذهاب إلى الدروس معًا، كان هذا شيئًا لطيفًا لذا تعلمت بسرعة.

- هل جيمي شقيقك؟

قالت بولي بشفاه مُرتعشة: أجل لكنه رحل عن عالمنا الآن، فأنا أتحدث عنه من حين إلى آخر، عليك أن تدرس، ربما يمكنني مساعدتك لاحقًا.

قال توم: لم أعد أشك في عدم قدرتك على

ذلك، لا أتعجب حقًا من تفوقك الواضح! ثم وضع كتابه في تلك المساحة الفاصلة بينه وبين بولي وشرعا في القراءة والمتابعة معًا.

قال توم بنبرةٍ متحمسة: حسنًا انتهينا من تلك المادة.

قالت بولي: انتهينا!

قاطعها توم:

- لقد استمتعت حقًا بمذاكرة تلك النصوص التاريخية برفقتك يا بولي، والآن يا سيدتي علينا إلقاء نظرة على مادة الجبر فأنا أكرهها تمامًا كاللغة اللاتينية.

قبلت بولي دعوته، وشرحت له قواعد مادة الجبر التي تعلمتها في السابق أيضًا، ثم اقتربت منه حتى التصقت به، ثم شعرت أنها على وشك الاستسلام له. فأخذت تنظر إليه خجلًا من حين إلى آخر، ثم تعود إلى القراءة، وعندما ابتعدت عنه قليلًا اقترب منها راسمًا على وجهه تلك الملامح المُضحكة، فلم تتمالك نفسها وانفجرت ضاحكة ما إن رأته.

قالت بولي محاولةً الابتعاد عنه قليلًا: عليك المحاولة مرة أخرى في فهم مادة الجبر، في الواقع هناك أمور كثيرة يتعذر عليّ فهمها.

- من فضلك تعالي إليّ كل مساء حتى نذاكر مادة التاريخ معًا، وربما يمكنني أيضًا بذل جهودي في محاولة فهم مادة الجبر، هل يمكنكِ ذلك؟

- ولماذا لا تعرض على والدك أن يشرحها لك؟

- في الحقيقة لا أجرؤ على إزعاجه أو أن أطلب منه شيئًا كهذا.

- ولِمَ لا؟

- كان ليقرصني في أذني ويُلقبني بالغبي!

- لا أعتقد أنه سيفعل ذلك فهو يعاملني بلُطف، كما أنني أطرح عليه أسئلة كثيرة فلا يتردد في إجابتها، من الخطأ أن تظن هذا الأمر في والدك يا توم فهو يحبك جدًا ويتمنى تقديم العون لك.

قال توم حزينًا آسفًا: ولكن لماذا برأيك لم يُقدم لي أبي هذا العون من قبل؟

قالت بولي: لأنك تتصرف بغرابة! فكيف تريد أن يعاملك؟

صمت توم مدة من الوقت ربما لأنه لا يجد جوابًا أفضل مما قالته للتو.

- ولماذا لم يُحضر لي الدراجة التي طلبتها منه في الصيف الماضي؟ لقد قال لي إنه بإمكاني الحصول عليها إذا اجتهدت في الدراسة، ومع ذلك تجاهل الأمر برمته في حين أنه منح شقيقاتي كل ما طلبنه لقاء نجاحهن!

قالت له بولي مُحاولةً أن تبدو مثالية لكنها أشفقت على توم المسكين: أعتقد أن هذا أمر سيئ بالفعل، ولكن يجدر بك أن تنهي مهامك دون أن تنتظر مكافأة من أحد.

- لا تحاولي أن تقومي بدور الواعظ يا بولي فأنا لا أهتم صدقًا بأمر الهدايا، فالحكاية وما فيها أنني أعلم أن أبي لا يهتم بي أصلًا.

نظرت إليه بولي بتعاطفٍ واضح ثم قالت له:

- لكنك تملك القدرة على النجاح والتفوق وإتمام المهام وإحراز التفوق يا عزيزي لذا لا تفكر هكذا.

شعر توم بالخجل وأن روحه قد أشرقت من جديد. لم يقل كلمة واحدة، وفجأة اقترب منها وتمايل أمامها على أنغام موسيقية قادمة من الخلف، ثم تسارع إيقاعه مع حركة قدميه فبدت رقصته متناغمة كأنه يطير بلا أجنحة.

انضمت الجدة الكُبرى إلى المشهد، ونظرت إليه بدهشة، ثم هتفت في فرجٍ واضح:

- يا إلهي!

تقدم السيد شو بضع خطوات باتجاه ابنه وبدا الإعجاب على ملامحه وقال:

- كم أنت رائع يا عزيزي توم! أعتقد أنك تستحق الحصول على الدراجة!

لم يصدق توم ما سمعه للتو. هل حقًّا يتذكر والده ذلك الوعد الذي قطعه منذ زمن؟ منذ إجازة الصيف الماضي؟ شعر أن الأمور لم تكن كما كان يظن خلال المدة الماضية. لقد كانت بولي على حق! فوالده يحبه ويهتم به.

غمرت السعادة قلبه فجأة، ولم يتمالك نفسه فوجد

نفسه يهتف بحب قائلًا:

- شكرًا يا سيدي! شكرًا لك.

حصل توم على دراجته في اليوم التالي، ودعا بولي إلى الذهاب برفقته.

ذهبت بولي ومود الصغيرة معه في جولةٍ بالدراجة.

هتف توم بصوتٍ مسموع:

- ها هي ذي الدراجة الخارقة قادمة إليكم انتبهوا جميعًا، ثم تأهب للانطلاق وسط الشوارع الرئيسة خارج الحديقة العامة.

تأرجحت الدراجة في الهواء بعد أن غادرتها بولي ومود واتجهتا إلى إحدى زوايا الطريق، وسقط توم على وجهه. تأملته بولي من مسافة بعيدة ولاحظت أن هناك بعض الخدوش والجروح في وجهه. نظر إليها توم مترنحًا كأنه يوشك أن يفقد وعيه على حافة الرصيف. اقتربت منه بولي ومسحت جبينه بالمنديل.

- لا تنزعجي، سأكون بخير، ولا تخبري أمي.

قالت بولي غاضبة بشدة: كنت أعرف من البداية أنك ستسقط أرضًا بسبب هذه الدراجة اللعينة!

اتكأ توم على ذراع بولي بعد أن نهض عن الأرضِ متألمًا، ثم مضيا في طريقهما إلى المنزل. لسوء الحظ كانت السيدة شو في الخارج برفقة

الجدة الكُبرى، وكانت فاني مشغولة بمكالماتها مع صديقاتها، لم يكن هناك أحد في المنزلِ، فكثت بولي إلى جوار توم طيلة الوقت.

كانت تلك فرصتها الذهبية لتبرهن لتوم أنها ليست جبانة كما سماها يومًا، لكنها الآن تمسك بذراعه وتعينه على الوقوف جيدًا. إنها تشعر بالشفقة الشديدة عليه، وها هو ذا يتمدد على الأريكة بعد أن ربّتت على كتفه برقة، ووضعت شريطًا لاصقًا فوق جبهته المجروحة.

تناول توم كأسًا من النبيذ حتى يتخلص من أوجاع رأسه، ثم استلقى في فراشه كعجوز مرهق. مكث في مكانه مدة دقيقتين أو أكثر، ثم قال لبولي بامتنانٍ واضح بعد أن شعر بالراحة:

- شكرًا لكِ يا بولي.

ظل توم راقدًا في فراشه مدة أسبوع واضعًا ذلك اللاصق الأسود على جبينه. كان الجميع يربت على كتفه في عطفٍ من حين إلى آخر؛ أخبرهم الطبيب أنه كان سيفارق الحياة لو جاءت الضربة قريبة من رأسه!

فزع الجميع من فكرة خسارته المفاجئة، فأصبحوا يقدرون قيمته أكثر ويعتنون به أكثر، فكان والده يسأل عن حاله باستمرار، وتحادثه أمه بود وحنان، وشقيقاته يجلسن إلى جانبه قلقات خائفات. كان لذلك تأثير إيجابي فيه فأصبح أكثر قوة وتحسنت

حالته الصحية تحسُّنًا ملحوظًا، فالمرضى يتماثلون للشفاء سريعًا إن كانت معنوياتهم عالية. أشرقت روح توم بعد أن تلقى معاملة رائعة من أفراد عائلته، فاستعاد صحته مرةً أخرى، ولم يعد يلعب دور الطفل المُهمَل الغاضِب المكروه مرة أخرى.

حرصت شقيقته فاني على العزف له يوميًا، والقراءة له بصوتٍ عالٍ، اعتادت بولي الغناء له وسرد القصص حتى بات ذلك الأمر روتينًا يحظى به دائمًا وهو يتمدد في مكانه المُفضل على الأريكة.

استمرت الحال على هذا النحو حتى جاءت اللحظة التي شردت فيها بولي قليلًا وجلست في رُكنها المُنعزل تتأمل النار أمامها ونظرة الحزن تعتلي وجهها ثم قالت:

- لا يمكنني مواصلة القراءة اليوم يا توم، لقد سردت لك كل القصص، ولم تعد لدي طاقة لمواصلة الأمر في الوقتِ الراهن.

نظر إليها توم في تعاطُفٍ واضح ثم سألها:

- ما خطبك؟ فيمَ تفكرين؟

- كنت أفكر في شقيقي جيمي.

- هل تمانعين الحديث عنه قليلًا؟ لقد ذكرته من قبل لكنكِ توقفتِ عن ذكره.

- أود ذلك حقًا، ولكن ليس لديّ ما أخبرك به، فوجودي برفقتك هنا يُذكرني بجلوسي معه

عندما كان مريضًا. كنا نحظى بأوقاتٍ سعيدة حقًا.

- هل كان يُعاملكِ جيدًا؟

- أجل، في الواقع كان يعاملني بطريقة رائعة، كان ولدًا مثاليًا في أعين الجميع ومحبوبًا من الآخرين.

- ألم تتشاجرا يومًا كما نفعل عادةً؟

- بلى، أحيانًا، ولكن لم يكن باستطاعتنا البقاء متخاصمين طويلًا، فقد كان يحرص دائمًا على إضحاكي بكل السبل.

- هل كان يتصرف بحماقة في بعض الأحيان؟

- أجل، أظن ذلك، لكنه كان أيضًا يجتهد في دراسته ويساند أبي وأمي. كان الناس حولنا يثنون عليه ويحترمونه، وكنت أشعر بالفخر الشديد لسماع ذلك، كان حكيمًا دون تكبر، وكان يتعامل بتواضع مع الجميع. كنت أحبه حقًا.

- هل كان جيدًا معكِ إلى هذا الحد؟ فما أعرفه أن الفتيات لا يقدرن أشقاءهن الذكور عادة.

- ربما يعود ذلك إلى طبيعة العلاقة بينهم، ولكن أخي كان يُحبني كثيرًا، ولم يخجل يومًا من التعبير عن ذلك.

سألها توم بأسى وحيرة: كيف مات شقيقك يا بولي؟

- لقد تعرض لإصابة خطرة خلال تزلجه على الجليد في الشتاء الماضي، لم يُفصِح عن الفتى الذي تسبب في ذلك، ولم يلُم أحدًا، بقي طريح الفراش أسبوعًا إضافيًا ثم ازدادت حالته سوءًا وتوفي. لقد اعتنيت به خلال هذه المدة الحرجة، أودعني كتبه وكلبه وألعابه، وقبل جبيني ثم قال:

- إلى اللقاء يا بولي!

- آه عزيزي جيمي! لو يعود إلى الحياة مُجَددًا!

ارتعشت شفتاها ثم انتحبت مُكَررةً كلمة «الوداع». حاول توم أن يساندها في تلك المحنة، فتقدم نحوها واحتضنها برفق، وربت على كتفها بحنان وحب حتى توقفت دموعها تمامًا.

- في الواقع لم أكن أرغب في البُكاء الآن، لكني كنت أفكر في أخي العزيز طيلة المساء لأن وجودي معك يذكرني به.

قال توم في دهشة: حقًا؟ ولكن كيف أذكرِكِ به وأنا لا أشبهه أبدًا؟

- لكنك تُشبهه في بعضِ الصفات.

- أتمنى لو أني كنت كذلك، لكنه كان ولدًا جيدًا وأنا لست كذلك كما تعلمين.

قالت بولي: لكنك تستطيع أن تكون كذلك دائمًا، فأنت فتى جيد عندما تتحلى بالصبر والحكمة.. أليس كذلك يا فاني؟

قالت فاني مُحاولةً انتقاء كلماتها قدر المُستطاع

حتى لا تزعج شقيقها: أجل بالطبع إلا أنه بحاجة إلى أن يلتزم السلوكيات التي يتصرف بها الآن.

ابتسم توم مبتهجًا لأن بولي ترى فيه شخصًا طيبًا مثل أخيها جيمي المحبوب والمحترم. ثم راقب لمعة عينيها في أثناء حديثها عنه. تمنى أن يذكره الجميع بهذه الطريقة يومًا ما عندما يغادر هذه الدنيا. أدهشه هذا المدى من المحبة الصادقة التي تحمله بولي لشقيقها الحنون.

قال توم مُحاولًا إغاظة أخته قليلًا: كم أتمنى لو أحظى بأختٍ مثلك!

قالت فاني بنبرة ساخرة، فقد فهمت ما يعنيه أخوها بكلماته تلك: كم أتمنى أن أحظى بأخ مثل جيمي!

قالت بولي: أظن أنه يجب أن يعتني بعضكما ببعض لتحظيا بأوقات مُمتعة تمامًا كما كنت أنا وجيمي. ورمقتهما بنظرة أسف واضحة.

قال توم: لا تهتم فاني بأحد سوى نفسها.

قالت فاني: يتصرف توم بخشونة كالدُّب.

- ما أريد قوله إنه يجب أن يتقرب بعضكما من بعض قدر الإمكان والابتعاد عن الخلافات والمُشاجرات، فأنا لا أندم على شيءٍ إلا على قول بعضِ الكلمات الجارحة لأخي جيمي. كم أتمنى لو ستطيع التراجع عنها.

جففت بولي دموعها برفق مُتذكرةً أخاها

الحبيب، ثم غادرت الغرفة بعد أن ودعت توم وتمنّت له ليلة سعيدة، تأثرت فاني بما سمعته من صديقتها المُقربَة، وضمّت شقيقها توم ثم ربتت على رأسه برقة قائلة:

- طابت ليلتك عزيزي توم.

ابتسم شقيقها لها، وقال:

- طابت ليلتك يا فاني.

الفصل الخامس

تفانت الفتيات الصغيرات في رعاية توم خلال مرضه باهتمام وعطف، فكن يحطن به في مودة ويقضين كل حاجاته. كان تعاملهن ملائكيا جدا، فقلقت الجدة الكبرى منه، وبقيت تراقب المشهد في صمت تام، لكن الأمر لم يستمر طويلا، فلم يلبث توم أن استرد عافيته وعاد كل شيء إلى طبيعته مرة أخرى.

في صباح اليوم التالي رن جرس الباب، ركضت بولي لتفتحه ببراءة، وإذ بها تجد شخصا يقدم لها باقة من الزهور. ابتسمت الفتاة الريفية البسيطة وأمسكت بالباقة مرتبكة؛ فهي لا تعرف ماذا يحدث، ثم التفت فوجدت السيد شو يقف أمامها مباشرة، وقد رسم على وجهه ابتسامة عريضة ثم سألها:

- مَن أرسل تلك الزهور يا عزيزتي؟ هل هي لك؟

لم يكن لدى بولي فكرة عن هوية المرسِل، حتى أنها لا تعرف إن كانت تلك الباقة مُرسَلة إليها أم لا، فأعطت بولي الزهور للسيد شو الذي قرأ على الفور العبارة المكتوبة على البطاقة البريدية المرفقة معها، ثم قال:

- منذ متى تُرسَل تلك الباقات بحق الجحيم؟

سألها السيد شو بعد أن تورد وجهه بحُمرَةِ

الغضب، وتغيرت نبرة صوته كُليًّا، بعد أن اتضح له أن باقة الزهور مُرسَلَة إلى ابنته فاني من مجموعة من الفتيان في عيد الحب.

كانت بولي متأكدة من أن صديقتها فاني موافقة على إرسال تلك الرسائل، لكنها لم تجرؤ على التحدث في الأمر. فها هو ذا السيد شو يقف مُتذمرًا ساخطًا مستاء لأنه عثر على تلك الرسائل المُنمقة، وحينها ارتعش صوت بولي المسكينة تلقائيًّا ثم قالت:

- في الواقع لا أعرف شيئًا على الإطلاق يا سيدي. متناسية ما حدث أمامها في المرة السابقة عندما التقت صديقتها فاني بأولئك الشباب اليافعين في الحفل الموسيقي. لم يكن السيد شو ليوافق على ذلك، كما أنه كان قد منعها في السابق من ذلك.

- يا إلهي! أخبريني يا عزيزتي كيف لي أن أُعاقب تلك الفتاة بربك؟ إن الفتيات الصغيرات الجيِّدات لا يُخفين أسرارًا عن آبائهم! أخبري فاني أني أنتظرها في المكتبة.

سألتها فاني عندما أخبرتها بما حدث: ماذا؟ أحقًا فعلت ذلك التصرف الغبي يا بولي؟

- وما الذي كنت أستطيع فعله أيضًا يا فاني؟

- كان عليكِ أن تدعي أبي يظن أن باقة الزهور أرسلت إليكِ! لو فعلتِ ذلك لما حدثت أي

مشكلة.

- ولكن أليس هذا كذبًا؟ أليس من الخطأ أن أقول له شيئًا غير صحيح؟

- لا تكوني حمقاء يا بولي! لقد ورطتني في هذا المأزق وعليكِ إخراجي منه.

- سأبذل قصارى جهدي من أجل ذلك لكني لن أخبر أحد بأمورٍ كاذبة.

- لا أريد منكِ هذا، كل ما أوده حقًا أن تُغلقي فمك وتتركين لي المجال للتصرف.

ناداها والدها السيد شو من الخارج فجأة:

- ألن تأتي يا فاني؟ أرغب في التحدث إليكِ الآن!

نظرت فاني بذُعر إلى بولي ثم تشبثت بذراعها وهمست:

- من فضلك تعالي معي يا بولي، فأنا أخشى أن أذهب بمفردي وأبي في تلك الحالة. قِفي إلى جواري.

- سأفعل ذلك. قالت بولي.

وقف السيد شو في إحدى الزوايا ثم نظر إلى باقة الزهور بتجهم محدقًا في الاسم المدون على البطاقة البريدية «فرانك مور» ولوح بيده مقطبا جبينه:

- سأضع حدًا لتلك المسألة الآن، وإذا فكرتِ في

تكرار هذا التصرف مرة أخرى، فسوف أرسلكِ إلى دير الراهبات في كندا.

شعرت بولي بالرهبة الشديدة عند سماع اسم هذا الدير فقد كانت تعرف أن ذلك عقاب حقيقي. ولكن فاني لم تخف كثيرًا لأنها سمعت هذا الكلام من قبل، فأجابت:

- أقسم لك يا أبي إني لم أفعل أي شيء خاطئ، لم أوافق على هذا وليس لي ذنب إن كان الأولاد يرسلون باقات الزهور لي في عيد الحب مثل بقية الفتيات.

- لقد حذرتك من التعامل مع هذا الشاب فرانك، وطلبت منكِ الابتعاد عنه في الحال لكنكِ لم تستمعي إليّ.

قالت فاني في ارتباك واضح: في الواقع أنا لا أرى فرانك أبدًا.

- هل هذا صحيح؟

قالت بولي بصوت يرتعش: من فضلك يا سيدي لا تسألني عن هذا الأمر، فلقد أقسمت لك إني لا أعرف شيئًا عنه فهو يخص فاني وحسب.

- أخبريني بما تعرفين عن هذه الحكاية يا بولي، فهذا لن يضر صديقتك في شيء بل سينفعها.

- أيمكنني ذلك يا فاني؟

قالت فاني بتوتر وخجل شديدين: لا أهتم.

أخبرته بولي بكل شيء رأته خلال تلك اللقاءات والاجتماعات والمناسبات التي اجتمعت فيها فاني مع الشاب فرانك، ثم قالت:

- من فضلك يا سيدي، لا تلُم فاني فهي لم تتصرف بلؤم مثل بقية الفتيات، كما أنها لا تعرف أن فرانك يحاول استخدامها أداة لإثارة غيرة حبيبته تريكس! إن فاني حقًا نادمة على ما فعلته وتشعر بالأسف الشديد، هل يمكن أن تسامحها؟

توسلت بولي إليه حتى يسامح ابنته على ما فعلته، وفي أثناء ذلك رن جرس الباب.. طلب السيد شو من بولي أن تفتح الباب، وإذ بالفتى فرانك واقفًا أمام الباب، عليها أن تُعيد له باقة الزهور وتطلب منه أن يُغادر. تسمرت بولي في مكانها، ولم تعرف كيف تتصرف في أمرٍ لا علاقة لها به، لكنها اضطرت إلى تنفيذ الأمر، ثم عادت لتقرأ إحدى الروايات في صمتٍ مُمددةً على الأريكة.

انزعجت فاني كثيرًا مما حدث، فقررت تغيير ثيابها والذهاب إلى حفلة أخرى لتقابل فرانك! أصرت على موقفها على الرغم من اعتراض بولي على قرارها، ثم ذهبت متأهبةً لارتداء ثوبها الجديد.

علم توم أن أخته تُخَطط للذهاب إلى حفل موسيقي مع فرانك الذي منعها والدها من مرافقته. ركض بسرعة نحو غرفتها، وأخبر شقيقته بأنه لن يسمح لها بالذهاب إلى هذا الموعد، لكن

فاني سخرت منه كعادتها وأكدت له أنها لن تفوت تلك الفرصة أبدًا. فهناك تمشي بأناقة وفخر بين الحضور، وهناك تعامِل مثل ملكة، وهناك تجد مَن يهتم بها ويطبع قُبلة على يدها، لكن توم رفض هذا الأمر نهائيًا وأخبرها أنها لن تفعل ذلك ما دام والدها قد منعها. وبالفعل توجه توم إلى داخل الغرفة وحاول سرقة المفتاح من بولي دون أن تشعر، لكنها التفتت إليه ورفضت تمامًا أن تعطيه له، فهي تدعم صديقتها فاني للنهاية حتى إن كانت غير راضية عما تفعله.

في تلك الأثناء كانت مود الصغيرة تتصفح دفتر يوميات بولي الذي فتحته ووضعته أمامها وبدأت تتأمل الصور الكثيرة الموجودة داخله بفضول. رأى توم تلك المذكرات الهزلية في أثناء المشاجرة، فاقترب من الدفتر، وقال:

- هل يمكنني أن أقرأ تلك اليوميات قليلًا يا بولي؟

قالت فاني: أجل يا بولي! دعينا نقرأ قليلًا فقط. ثم فتحوا دفتر اليوميات وانفجروا في ضحك عالٍ عندما رأوا بعض الرسومات الساخرة التي تخصّ توم وفاني والسيد شو وحتى فرانك الجذاب والجدة العزيزة.

قالت فاني مُتهكمة: أوه كم أنتِ ماكرة يا بولي! ها أنتِ ذي تسخرين منا على الورق!

قال توم متأملًا وجه بولي راسمًا تلك الابتسامة العريضة على وجهه: لكنها ترسم جيدًا.

- أعتقد أنك لو عرفت ما كتبته عنك لما قلت ذلك أبدًا!

سألها بفضول: ما الذي كتبته عني؟

قالت فاني: كتبت «سأحاول أن أُحب توم مع أنه يعاملني بسوء معظم الوقت، ويعامِل والديه دون احترام، ويغضب شقيقاته الفتيات، يا إلهي كم أكرهه!»

أخبرني الآن هل يُعجبك ما سمعته للتو؟

ضحك توم مُتهكمًا:

- تعالي وانظري ما كتبته عنكِ يا آنستي!

- حقًا؟

- أما فاني فلن نستطيع أن نكون أصدقاء مُجددًا لأنها كذبت على والدها ولم تسامحني على ما فعلته. كنت أظن أنها فتاة جيدة لكني لا أعرف.. ربما تسرعت في الحُكم عليها، ومع هذا يجدر بي أن أحبها مثل صديقة مقربة لي رغم أنها لم تعد تتعامل معي بطيبة.

- حسنًا، لقد نلتِ ما تستحقين يا فاني، عليكِ الآن ترك دفتر اليوميات وشأنه.

- فقط أود أن أُلقي نظرة أخرى على صفحة أو صفحتين إضافيتين.

تواصل فاني قراءتها:

«هذا اليوم من أسوأ أيام حياتي، فقد استيقظت متأخرة، ولم أعد أتحمل المكوث هنا مدة أطول فكل شيء حولي يقلقني ويزعجني. كنت أحسد فاني على حياتها في هذا القصر الفخم لكني اكتشفت لاحقًا أن والديها لا يهتمون بها مثل والدي، وأدركت أن المال لا يمنح الناس كل شيء، ولكن مَن أنا لأقول ذلك، فأنا مجرد فتاة ريفية قديمة الطراز!

توردت وجنتا فاني عندما قرأت السطر الأخير، فهي تعلم جيدًا أنها مَن قالت ذلك لبولي.. ثم نظرت إليها دون كلام.

تجمدت الفتاة في مكانها في تلك اللحظة التي رأت فيها بولي واقفةً أمامها ترمقها بنظرةٍ غريبة لم ترها من قبل.

سألتها بولي: ماذا تفعلين بأشيائي؟

كانت مود الصغيرة تعبث بدفتر يومياتك، ثم قرأنا بعض كتاباتك عن طريق الخطأ.

- ماذا؟ هل كنتم تتجسسون على دفتر يومياتي الخاص، وتريدون الآن إلصاق التهمة بطفلةٍ صغيرة! لن أسامحكم بقية حياتي!

نطقت بولي تلك الكلمات بأنفاسٍ لاهثة، ثم ركضت بسرعة كبيرة متوجهةً إلى خارج الغرفة. بكت فاني بحرقة لأنها شعرت بفظاعة ما فعلوا.

حاول توم اللحاق بالفتاة الريفية فركض خلفها لكنه لم يجدها في الخارج، ثم توقف في مكانه وقال:

- لا أظن أنها عادت إلى بلدتها!

واصلت فاني بُكاءها دون توقف، ثم بدأ توم بحث عن بولي في كل مكان في الخارج، وفجأة رآها تجلس في خزانة قديمة متهالكة مطأطئة رأسها. تأملها توم من بعيد في صمت ثم قال:

- مرحبًا!

لم تكن بولي تذرف الدموع في تلك اللحظة، وإنما كانت مكومة في زاوية مظلمة، تنظر بحزن عميق، كانت تجلس في سكون تام. بدا وجهها أكثر حمرة من ذي قبل. اقترب منها توم واعتذر لها بصدق مثل صديق حقيقي. وبعد قليل من التفكير، قبلت بولي اعتذاره، شرط أن تندم فاني على ما فعلته، وأن تبكي بشدة، وأن يسخر توم من نفسه ويضحك عليها خمس أو عشر دقائق متواصلة.

- بربك يا بولي، كُفي عن التصرف هكذا، ففاني تنتحب بشدة في الطابق العلوي، وأنتِ تجلسين هنا في هذه الخزانة الضيقة الداكنة. أشعر أنني أنا المذنب في هذه المسألة.

شعرت بولي بقليل من السعادة عندما عرفت أن فاني تبكي في الطابق العلوي، لكنها لم تستطع

أن تظل غاضبة على توم الذي اعتذر لها بصدق. رسمت الفتاة الريفية ابتسامة بسيطة متواضعة على وجهها، ومدت يدها ببطءٍ على استحياء، فصافحها توم وذهبت برفقته خارج تلك الخزانة.

فجأةً، لاحظ توم الكدمة الحمراء على رسغ بولي التي سببها هو بغير قصد، فتغير لونه ونظر إليها بخجلٍ واضح قائلًا:

- أنا آسف حقًا يا بولي! أشعر أني وحش مُفترس، هل تسامحينني على هذا الشيء أيضًا؟

قالت بولي مُشيحةً وجهها بعيدًا عنه: إنها لا تؤلمني كثيرًا.

- حسنًا، فاني نادمة جدًا على ما فعلته، وهي تبكي كثيرًا. هل تودين أن تقبليها لنعود أصدقاء مجددًا؟

- بالطبع، سوف أذهب إليها.

لا أحد يعرف كيف تصالحت الفتاتان هكذا ببساطة! بكتا ثم قبّلت كل منهما وجنة الأخرى وتبادلتا الضحكات وتجاذبتا أطراف الحديث كعادتهما. كانت فاني حنونة جدًا مع بولي في تلك الليلة، وكان توم أكثر لُطفًا وأدبًا، فقد كان يريد التكفير عن أخطائهما في حق تلك الفتاة التي سامحتهما سريعًا لأنها تملك قلبًا كريمًا يؤمن بالغفران.

استعدت بولي للخلود إلى النوم، وجلست على

سريرها قليلًا بعد أن رتَّبت شعرها. ثم سمعت طرقًا على باب غرفتها، فتحت الباب فوجدت زجاجة سوداء مغطاة بقبعة كتب عليها:

«عزيزتي بولي، أعتقد أنه عليكِ وضع بعض هذا الدواء على رسغك، وربطه بقطعة قماش، أعتقد أن كل شيء سوف يكون بخير في صباح اليوم التالي، هل ترغبين في الذهاب معي للتزلج على الجليد؟ أنا آسف حقًّا لأني ألحقت بكِ الأذى.

توم

الفصل السادس

في إحدى الأمسيات الشتوية الباردة، عادت فاني من الخارج ووجدت توم مستلقيًا على الأريكة رافعًا قدميه في الهواء. كان يقرأ كتابًا ممتعًا من الكتب التي يفضل الأولاد اصطحابها إلى إحدى الجزر النائية المنعزلة، تلك الحكايات الخيالية التي يحرص مؤلفها على غرس كل أنواع أشجار الخضراوات والفاكهة فيها ليضيع أبطالها في الغابات ويخوضون مغامراتٍ مثيرة لقتل الوحوش البرية.

سألت فاني: أين بولي؟

- لا أعرف، قال توم على عجل، إذ إنه كان مُستغرقًا في القراءة متخيلًا نفسه أحد هؤلاء الهاربين من التماسيح الضخمة.

قالت فاني بعد أن تجولت في أرجاء الغرفة على مَضض: دعك من هذا الكتاب الغبي الآن وافعل شيئًا ما، ثم أردفت:

- أين بولي؟

قال توم بنبرةٍ غاضبة: لا تحاولي إزعاجي الآن، فأنا مشغول جدًّا بقراءة هذا الكتاب.

- أخبرني أين بولي فأنا أعرف أنها كانت برفقتك هنا منذ قليل!

- أعتقد أنها في غرفة الجدة الكُبرى.

قالت مود الصغيرة ساخرةً: يا إلهي! هل كنت تعرف ذلك منذ البداية ولم تُخبرنا!

لم ينتبه توم إليها، كان غارقًا أسفل المياه العميقة يُطارد التمساح ضمن أحداث الرواية.

قالت فاني: في الواقع لا أعرف لماذا تقضي بولي معظم وقتها في غرفة الجدة الكُبرى! فأنا لا أجد أي متعة في ذلك. ثم صعدت إلى الطابق العلوي.

- دعينا نسترق النظر لنعرف ما الذي يجري هناك؟

في غرفة الجدة، كانت بولي تجلس بجوارها وتستمع إلى قصصها المدهشة بإعجاب. ركضت فاني برفقة مود الصغيرة إلى الداخل، وجلست على المقعد المقابل لكرسي السيدة العجوز، وقالت:

- لماذا لم تخبرينا بتلك الحكايات المُمتعة من قبل يا جدتي، كما تفعلين الآن مع بولي؟

- لأنكِ لم تطلبي مني ذلك يا عزيزتي لذا كنت أحتفظ بها لنفسي.

- حسنًا، هل يمكنك يا عزيزتي أن تقصي لنا مزيدًا من تلك القصص المُضحكة المُثيرة.

- يمكنني ذلك فقط إذا وافقت بولي فهي رفيقتي منذ مدة.

- بالطبع أيتها الجدة يُمكننا الاستماع إلى تلك الحكايات معًا الآن.

سردت الجدة الكُبرى كثيرًا من القصص والحكايات المُدهشة عن المغامرات المُمتعة التي خاضتها مع شقيقتها نيلي. استمعت الفتيات الصغيرات لحكاياتها باهتمام، روت لهم عن بسالتها وجرأة شقيقتها ورحلاتهما المتنوعة إلى الغابات الفسيحة.

قالت مود الصغيرة: أوه! كم أحب تلك الحكايات يا جدتي! أود أن أعيش مثل هذه المغامرات يومًا ما!

بحثت الفتيات في الأدراج عن الخطابات القديمة التي كتبتها الجدة بيدها، قالت بولي بمرح:

- دعي فاني تبدأ هذه المرة يا جدتي. ثم نظرت إلى صديقتها مواصلة حديثها:

- هيا يا فاني، اختاري خطابًا عشوائيًا واسألي الجدة عن قصته.

اختارت فاني خطابًا ثم ابتسمت وسألت الجدة عن مناسبة كتابته، نظرت إليها الجدة وقالت بخجلٍ بالغ:

- أوه! مضى وقت طويل على كتابة هذا الخطاب أيتها المشاغبة الصغيرة! كان ذلك عندما كنت طالبة في المدرسة الثانوية.

في هذه الأثناء، سمعوا صوتًا مرحًا خارج الغرفة. كان توم قد أنهى قراءة روايته وأراد أن يشاركهم. اقترب من مقعد الجدة الكبرى وقال:

- أريد أن أختار أنا أيضًا خطابًا عشوائيًّا يا جدتي.

قالت بولي ساخرة: تَمهل وانتظر دورك يا توم. أكملت الجدة سرد بقية حكاياته المثيرة المبهجة متلذذةً بوجوه الأطفال السعيدة حولها، فقد كانت تلك المرة الأولى التي تحظى فيها بكل هذا الاهتمام والسعادة ممن حولها.

شعرت السيدة العجوز أنها عادت طفلة صغيرة مرة أخرى، فقد حملتها الذكريات على أجنحتها لتعيدها إلى مُدن الطفولة. لاحظت بولي تغير ملامح الجدة وهي تقص تلك الحكايات، لذا طلبت من فاني ومود وتوم التزام الهدوء مراعاةً لمشاعر المرأة العجوز.

قالت بولي هامسةً: دعونا نقبل الجدة ونشكرها على قصصها الرائعة قبل أن نذهب.

قبّلت الفتيات وتوم الجدة وشكروها، ثم غادر الجميع الغرفة. عندما توجهوا إلى خارج الغرفة وقفت بولي في مكانها ثم قالت:

- أنا أحب جدتنا كثيرًا. فهي امرأة طيبة وودودة. تروي لي قصصًا رائعة عن حياتها ومغامراتها. لكنها تشعر بالوحدة لأنكم لا تصغون إليها. لو أنكم تظهرون لها اهتمامكم وتسألونها عن حكاياتها، لتمتعتم بها كثيرًا. إنها امرأة طيبة جدًا!

قالت فاني: لم أقل إنها غير طيبة، لكني أحاول

دائمًا الابتعاد عن العجائز قدر الإمكان لأنهم يثرثرون حول أمور مُملة ومرهِقة.

- حسنًا يا فاني، عليكِ ألا تضيعي أي فرصة قادمة دون الاستماع إلى جدتكِ والتحدث إليها، فقد علمتني أمي أنه يجدر بنا دائمًا التحلي بالصبر والتقدير عند التعامل مع العجائز فهذا يعني كثيرًا لهم.

- أعتقد أن أمكِ من هؤلاء الذين يلقون محاضرات أخلاقية دائمًا.

- لا، أمي ليست كذلك. لكنها تحاول جاهدةً أن تشرح لنا كيف تبدو الأمور، وتعطينا نصائح تساعدنا على فهم كل شيء حولنا جيدًا.

وقف توم أمام باب الغرفة مُباشرةً مستمعًا إلى حوارهما وقال: أفهمك جيدًا يا بولي!

قالت مود الصغيرة وهي تركض في أرجاء الغرفة مُحاولةً القفز على الحبل: بولي غاضبة! بولي غاضبة!

كانت بولي غاضبة بالفعل، فحديث فاني قد أزعجها بشدة وأربكها، فقد سخرت لتوها من أمها واتهمتها بأنها تلقي محاضرات أخلاقية على أسماع أبنائها دون جدوى! حاولت بولي كبح جماح غضبها خوفًا من أن تتفوه ببعض الكلمات التي قد تندم على قولها لاحقًا.

وصل السيد ستيفني مدرس فاني إلى منزلهم

الفخم في هذا اليوم، كانت التلميذة المُشاغبة فاني تجلس في انتظاره، فهو مُعلمها الوسيم الأنيق الذي تستحوذ صورته على عقول وقلوب كل الفتيات.

جلست التلميذة إلى جانب أستاذها الذي يحدق إلى بولي، تلك الفتاة البسيطة الجالسة في زاوية الغرفة تتحدث مع مود الصغيرة وتعطيها النصائح والإرشادات. نظرت فاني إلى معلمها في فضول وسألته:

- أتتعجب من تصرفات بولي ونصائحها غريبة الأطوار يا سيد ستيفني؟

- على النقيض فأنا شديد الإعجاب بشخصية الآنسة بولي، فهي تتصرف بقدرٍ عالٍ من الحكمة والحصافة.

كم تمنت فاني في تلك اللحظة أن تتبدل الأدوار، فتجلس محل بولي وينظر إليها هذا المُعلِم الساحِر الأنيق النظرة نفسها.

بعد انتهاء الدرس اقتربت فاني من صديقتها العاقلة بولي، وابتسمت لها ثم اعتذرت لها عما قالته، قبلت بولي اعتذارها وقالت مُتهكمةً:

- حسنًا يا فاني، أعتقد أنكِ محقة فأمي تحب إلقاء المحاضرات والخُطَب الوَاعظة على أسماعنا دائمًا!

ضحكت الفتيات من الأعماق، ثم هتف توم من الخلف مُقلدًا نبرة والده في الحديث:

- تحيا بولي صانعة السلام!

لم يقل أحد شيئًا آخر. ولكن من ذلك اليوم، بدأ الجميع يهتمون بالجدة الكبرى ويرعونها ويستمعون إلى قصصها الممتعة كل يوم.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل السابع

قالت فاني بعد مرور بضعة أيام لاحقة: هل عليكِ حقًّا العودة إلى الديار يوم الأحد يا عزيزتي؟

قالت بولي شاعرةً أنها قضت في منزلهم عامًا كاملًا: أظن أنه عليّ ذلك، فقد جئت لأمضي شهرًا هنا فقط.

قال توم: من فضلكِ ابقي معنا شهرًا آخر ولنحتفل بعيد الميلاد معًا.

- هذا لطف بالغ منك، ولكن لا يمكنني تفويت عطلة عيد الميلاد في الديار مع أفراد أسرتي، فأمي تنتظرني بفارغ الصبر.

سألتها فاني بتوسل: في الواقع يا بولي ستفقد عطلة عيد الميلاد متعتها إن لم تكوني معنا، هل يمكنك أن تغيري رأيك؟

قالت مود الصغيرة موجهةً حديثها لشقيقتها فاني: لا أعتقد أنه بمقدور بولي فعل ذلك، فهي ليست فتاة أنانية.

- لا تُزعجي بولي يا فاني، دعيها تفعل ما يحلو لها فهي تفضل قضاء عطلة عيد الميلاد مع أفراد عائلتها في الديار ولا ضير في ذلك كما أنه يجدر بك الاستمتاع بقضاء العطلة أيضًا معنا في المنزل كأسرة واحدة بالإضافة إلى أننا جميعًا نتأهب لحضور حفلة الليلة قبل مغادرة بولي.

كانت بولي تأمل في قضاء وقت ممتع في هذه الحفلة لكنها شعرت بخيبة أمل كبيرة، فقد كانت الفتاة الوحيدة التي ترتدي أزياء غير مُلائمة قديمة الطراز في حين كانت كل الفتيات يرتدين ثيابًا حريرية رائعة حتى الطفلة مود الصغيرة كانت ترتدي ثوبًا أفضل منها! ناهيك بالأوشحة والحُلي المزخرفة.

مع أن بولي بذلت قصارى جهدها لتبقى هادئة قدر الإمكان. فقد حاولت إخفاء كل علامات الارتباك بعيدًا عن وجهها حتى لا تظهر بصورة الفتاة غير الواثقة أمام الجميع، لكنها لم تستطع إنجاز المهمة على أكمل وجه، فقد لاحظتها الجدة الكبرى وتمكنت من معرفة سبب حزنها الظاهر دون أن تنطق الفتاة بحرف. تجولت فاني وشقيقتها الصغرى مود في أنحاء المكان بمرح، فقد كانت ثيابهن تعكس ثقتهن الكاملة بأنفسهن، فيما تجمدت بولي واقفةً في إحدى الزوايا تحدث نفسها:

- أعرف أن مظهري لا يبدو جيدًا لكن أتمنى ألا يكون بهذا السوء الشديد!

اقتربت الجدة العجوز من بولي والفتيات، فسألتها فاني:

- ما رأيك في الثياب التي نرتديها يا جدتي؟

- في الواقع لم تُعجبني هذه الأزياء العصرية فهي لا تناسب الفتيات الصغيرات، ولكنني أحببت

الثوب التقليدي البسيط الذي ترتديه بولي.

أشرق وجه بولي وقالت:

- حقًا؟ هل أعجبكِ ثوبي يا سيدتي؟

- أجل يا عزيزتي فأنتِ ترتدين ثوبًا يُناسبكِ كفتاة صغيرة.

قالت بولي فرحة متحمسة: شكرًا لكِ أيتها الجدة. فقد شعرت كأن تلك الكلمات أعطتها جناحين وجعلت ثوبها يبدو سحريًا رائعًا فجأة.

قال توم: أظن أن بولي جميلة دائمًا مهما ارتدت، فهي تبدو مذهلة في كل المناسبات.

قالت فاني وأيدتها مود الصغيرة: لكن أظن أنه كان من المفروض أن ترتدي بعض الإكسسوارات البسيطة التي تُناسب الثوب الرسمي، أو ربما كان بإمكانها وضع إكليل من الزهور أو وشاح ملون.

جلست بولي في حالة سكون تام، وشعرت بالحرج الشديد عندما قدمتها فاني إلى صديقاتها الصغيرات اللواتي أبدين إعجابًا بها في البداية ثم تجاهلن وجودها لاحقًا. لاحظت فاني ارتباك بولي واضطرابها فذهبت إلى شقيقها توم وقالت:

- أعتقد أنه من اللائق يا توم أن تطلب من بولي الرقص معك.

- لا يمكنني ذلك، فأنا لا أجيد الرقص، كما أن بولي لا تهتم لهذا الأمر.

- عليك أن تسمع كلامي فقد أزعجناها عدة مرات، لذا علينا إصلاح الموقف قدر المستطاع، هيا اذهب إليها واطلب يدها للرقص.

- لكني لا أجيد الرقص!

- كيف ذلك وقد علمتك الرقص عشرات المرات في السابق؟ تحرك الآن وتصرف مثل رجل نبيل.

تقدم توم بضع خطوات ثم خلع قفازاته واقترب من بولي وقال:

- هل لي أن أرقص معكِ يا آنسة بولي؟

قالت بولي ساخرةً: حسنًا يمكنك ذلك يا سيد توم لكن لا تتصرف بحماقة من فضلك!

قال توم وأمسك بذراعها برقة: طلبت مني فاني أن أتصرف بلُطف وسأبذل قصارى جهدي من أجل ذلك.

قالت بولي: حرك قدميك مع إيقاع الموسيقا.

- لا عليكِ، سوف نواصل الحركة مع الموسيقا عشوائيًا حتى نصل إلى نتيجة مرضية.

تابع توم الرقص بشكلٍ مُضطرب وبخطواتٍ مرتعشة متخبطة وكاد يسقط بولي عدة مراتٍ، لكنها سيطرت على مشاعرها حتى لا تتسبب في إحراجه أمام الجميع، لكنه انزعج فجأة ووقف في مكانه جامدًا ثم قال:

- آسف يا بولي، أشعر بأني أربكتك لأني لا أجيد الرقص.

لم تقل بولي شيئًا لأنها لم ترغب في إحراجه، وكل ما فعلته هو أنها تنحت جانبًا وواصلت مراقبة بقية الراقصين من مكانها.

لم يلفت انتباهها بين هؤلاء الرجال اليافعين المتأنقين سوى السيد ستيفني الذي كان يرقص مع فتاة أخرى بمهارة. راقبته وهو يتمايل هنا وهناك متنقلًا في انسجام بين أنغام الموسيقا.

في تلك اللحظة أيضًا وقعت عين السيد ستيفني على بولي، فاقترب منها وقال:

- أعجبني رقصكِ يا آنسة بولي.

ابتسمت له الفتاة الريفية بخجل، لاحظت التفاف مجموعة من الشباب المتأنقين حولها كأنهم جميعًا يرغبون في طلب يدها للرقص! لقد انعكست شخصيتها في أدائها الخارجي، ولم يعد الأمر متعلقًا بنوع الثياب التي ترتديها.

اقترب منها أحد الرجال اليافعين الذي عرفتها عليه صديقتها فاني وطلب منها الذهاب معًا لتناول العشاء. مضت بولي في طريقها بشكل آلي مع الشاب، مع أنها لم تكن تود ذلك، ثم جلست معه حول طاولة الطعام وقد فقدت شهيتها، تمنت أن يأتي إليها توم ويصطحبها إلى مكانٍ آخر.

أغلقت عينيها بضع ثوانٍ فوجدت توم يقف

أمامها يطلب منها مُغادرة المكان والذهاب لتناول الطعام معه. جلست بولي إلى جواره وشرعت في تفقد أطباق الطاولة فإذا بها تجد مجموعة من الأطباق الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من الأطباق الأخرى. شعرت الفتاة الريفية بالارتباك والضيق فهي لم تعتد الوجود وسط تلك الأجواء الأجنبية الرسمية. لم تكن من هذا النوع من الفتيات اللواتي يجدن التصنع والادعاء، بل كانت تعبر فقط عما تشعر به بصدق، ضاق صدرها قليلًا فنهضت من مقعدها ومشت بضع خطوات نحو المكتبة حيث ركضت الفتيات الصغيرات إلى هناك، وبينما كانت تسير نحو الباب الرئيس تذكرت ما قالته لها أمها في السابق:

- عندما تجدين نفسك غير قادرة على التأقلم، افعلي شيئًا لإسعاد أحدهم فحينئذ فقط ستشعرين أنتِ أيضًا بالسعادة

داخل المكتبة تحلقت الفتيات حول الطاولة وشرعن في طرح الأسئلة.

سألت إحداهن صديقتها مود قائلة:

- أخبريني يا مود هل هذا الثوب الذي ترتدينه مستورد من الخارج أم محلي الصنع؟

- إنه ثوب مستورد.

- أوه، هل كلفكِ مالًا كثيرًا؟

- أجل. إنه باهظ الثمن، صُنِع في مدينة

نيويورك.

قالت فتاة أخرى مُتباهية: لا يمكنني أن أرتدي ثوبي الأسود دون قلادتي الأصلية النادرة.

- لا أهتم بالثياب المُستوردة، يكفيني فخرًا أن ابنة عمي تستورد أجود أنواع النبيذ النادرة في العالم.

- حقًا؟

- أجل، أكد لي أبي ذلك بنفسه.

قالت أليس إحدى صديقات مود: تقول أمي إن قبعتك لا تواكب الموضة،

أظن أن القبعات الحريرية أفضل من الصوف وأكثر عصرية منها.

- أخي لا يفضل أبدًا ارتداء القبعات الحريرية.

- رجاء يا مود، لا تتحدثي عن أخيكِ فهو أشبَه بالخنزير.

- أيتها الحقيرة!

- وأنتِ أيضًا!

في تلك اللحظة صفعت الآنسة مود الصغيرة صديقتها على وجهها فبكت بصوتٍ عالٍ وتذمرت.

لم يهدأ الأمر حتى تدخلت بولي لفض النزاع، وبالفعل تمكنت من فصل الفتيات الصغيرات عن بعضهن، وجمعتهن حولها لتقرأ لهن، وأثبتت

في تلك اللحظة المُحَددة الحرجة أنها صانعة سلام.

نشرت بولي روح البهجة بين الجميع، واستطاعت بذكائها الحاد أن تجمع شَمل الفتيات الصغيرات اللواتي قبّل بعضهن بعضا بحب.

مضت الليلة على ما يرام، وفي ذلك الوقت سألت فاني بولي:

- هل تحبين الحفلات يا بولي؟

- أجل، أحبها كثيرًا لكني لا أعتقد أنها تُناسبني.

- ولماذا تعتقدين شيئًا كهذا؟

في الواقع لا أفضل الذهاب إليها إلا إذا كنت أملك ثوبا جيدًا، فلن أتمكن من الرقص الجيد ما دمت لا أملك زيًا مناسبًا.

قالت فاني بدهشة: لم أكن أظن أنكِ تهتمين بتلك الأمور.

- وأنا أيضًا لم أكن أظن أني مهتمة بأمرٍ كهذا إلا الليلة. على أي حال، أعتقد أنني محظوظة لأنني سأعود إلى المنزل غدًا.

قالت فاني متأثرة: أوه يا عزيزتي! وأنتِ أيضًا! لا أعرف حقًا ماذا سأفعل دونك يا حلوتي!

سأل جميع أفراد المنزل عن هذا الأمر في اليوم التالي، وكانت أعينهم المُحبَة تراقب الفتاة الريفية الصغيرة في أثناء تجولها بخطواتٍ وئيدة في

أرجاءِ المنزل لتقديم تلك الخدمات الصغيرة للمرةِ الأخيرة.

كان من المفترض أن تغادر الفتاة بولي مباشرة بعد تناول وجبة العشاء بعدما تعد حقيبتها وتجهزها، لكنها شعرت أن هناك مفاجأة تنتظرها في تلك اللحظة التي انصرفت فيها الجدة الكُبرى إلى غرفتها الخاصة، فيما اختفت فاني دون أن تطلب منها مرافقتها، كانت مود الصغيرة تلعب في الأرجاء، أما توم فقد هرع إلى غرفة أمه بطريقة غامضة كأنه يخطط لأمر ما، فهمت بولي تلكَ الإشارات الخفية وشعرت بسعادة غامضة في أعماق نفسها كأنها ستحصل على كنزٍ.

لم يعتد السيد شو العودة إلى المنزل باكرًا، لكن بولي ظنت أنه ربما يفعل ذلك اليوم ليودعها قبل الرحيل. مضى نحوها بخطى متثاقلة مرتديًا قبعته المُستديرة التي تُخفي وجهه المُشرق، وعلى الرغم من انشغال بولي فإنها هرعت نحو الرجل العجوز راسمةً على وجهها تلك الابتسامة العريضة المُمتزجة بالتقدير.

قال وبولي تمسك يده لتساعده على السير: من الواضح أنه لن يكون هناك أحد ليساعد الرجل العجوز في الأيام المقبلة.

قالت بولي: هناك كثيرون يرغبون في مساعدتك يا سيدي بالطبع. ثم ابتسمت ونظرت إلى فاني مشيرةً إلى أن صديقتها المُقربة ستبذل قصارى

جهدها لتأدية ذلك الدور نيابةً عنها.

- في الواقع يسرني سماع ذلك لكني أريدك يا عزيزتي أن تقطعي لي وعدًا أنكِ ستأتين لزيارتنا كل شتاء.

- سأفعل ذلك إذا سمحت عائلتي بذلك.

- يجب عليهم السماح لكِ بذلك فوجودكِ معنا يُشعرنا بالسعادة.

- حقًا؟ إنني مسرورة جدًا لسماع ذلك!

- لا أقدر أن أصف لكِ مقدار السعادة التي منحتها لعائلتنا، أصبح جو المنزل أكثر دفئًا ومحبة وأتمنى ألا يزول ذلك لحظة رحيلك يا ابنتي.

لم تسمع بولي السيد شو يتحدث بتلك الطريقة العطوفة من قبل، ولم تكن تعرف ما الذي عليها قوله؟ ولم تشعر برغبةٍ في قول أي شيء. شعرت بالفخر والسعادة عندما اختبرت صدق تلك الكلمات التي أخبرتها بها أمها يومًا: «حتى الفتاة الصغيرة تملك تأثيرًا هائلًا في العالم».

في تلك الأثناء رمقتها صديقتها بنظرة امتنان أشد تعبيرًا من الكلمات، وسارتا معًا متشابكتي الأيدي وسط كل تلك الندف الثلجية المتساقطة. لم تكن بولي تعرف أن صديقتها المقربة تعاونت مع جدتها الكبرى لإعداد مجموعة من الهدايا الصغيرة لكل أفراد عائلة بولي ميلتون. حرصت فاني وجدتها الكبرى على صناعة تلك الهدايا وإعدادها بكل

الحب والنية الطيبة التي لا تشوبها شائبة. لم تكن بولي تعرف أن عائلة السيد شو قد صنعت لها ساعة تحمل اسمها داخل حقيبة سفرها الكبيرة الممتلئة. لو كانت تعلم تفاصيل تلك المفاجأة المذهلة لما أهملت نصيحة الجدة الكُبرى ولما تناولت عشاءها في هدوءٍ تام. شعرت أن قلبها مغمور بالبهجة والعطف وأحست بمدى أسف وحُزن عائلة شو على مُغادرتها المنزل.

لم يكن توم مُضطرًا إلى إزعاجها مثل السابق، أصرت فاني ومود على المُغادرة أيضًا، نسيت السيدة شو تلك الأمور المُربكة التي كانت تزيد من شعورها الدائم بالعصبية، وحرصت الجدة الكُبرى على صناعة خبز الزنجبيل من أجلها، ناهيك بأن السيد شو قبلها كما لو كانت الابنة الأغلى على قلبه، واحتضنتها الجدة بشدة وهمست في أذنها:

- من فضلكِ يا عزيزتي الصغيرة تعالي إلى هنا مُجددًا.

تمنى لها الجميع رحلة مُوفقة سعيدة، وقبل أن تغادر الفتاة هرع نحوها توم الذي بدا عليه علامات التوتر والارتباك بشكلٍ واضح وقد خضبت حمرة الخجل وجنتيه وقال:

- أتمنى أن تنال تلك الهدية البسيطة إعجابك يا بولي.

كانت هديته عبارة عن حقيبة الفول السوداني الورقية التي وضع في أسفلها صورة مضحكة له ودون فوقها:

«هذا مُريع»

ضحكت بولي كثيرًا إلى هذا الحد الذي جعل دموعها تنهمر مُصافحة وجنتيها برِقَّة ثم ودعته ورحلت عن هذا المكان.

سرعان ما انتهت تلك الرحلة الطويلة الشاقة سريعًا، في اللحظة التي وصلت فيها العربَة أمام أحد تلك المنازل الصغيرة الدافئة التي كانت تعني كثيرًا لها، فهناك يقع وطنها الذي تراه أجمل أماكن الأرض.

الفصل الثامن

- خمنوا يا رفاق ما تود بولي فعله هذا الشتاء؟ سألتهم فاني في مرح، ثم نظرت مرة أخرى إلى خطاب بولي الذي كانت تقرؤه.

قال الفتى الشاب صاحب الشعر الأحمر الذي كان يجلس بالقرب من المدفأة: هل ستلقي محاضرات عن حقوق المرأة؟

قالت السيدة شو بعد تفكير مطول: أعتقد أنها ربما ستتأنق لتخرج في مواعدة أحدهم لتتزوجه خلال الربيع.

قالت مود الصغيرة بشيءٍ من الثقة: أعتقد أنها ستمكث في المنزل، وتنجز كل المهام المنزلية لأن الخدم يتطلبون نفقات كثيرة، فهذه هي طبيعتها التي نعهدها.

قال السيد شو متأملًا ذلك الخطاب الذي تُمسك به فاني: أظن أنها ستفتتح مدرسة لتساعد أشقاءها في تعليمهم.

قالت فاني: إنكم جميعًا مُخطئون، مع أن أبي قد اقترب من الحقيقة، ثم أضافت كأنها تتحدث عن ضحية:

- ستعطي بولي دروسًا في الموسيقا حتى تتمكن من دعم نفسها ماديًا، ولتساعد شقيقها ويل في الذهاب إلى الجامعة! فهي مفجورة جدًا بأخيها لأنه طالب مجتهد جدًا، فيما يمتهن شقيقها الآخر

نيد حرفة ولا يهتم بأمر الكتب والدراسة عمومًا. ولعلهم لن يحتاجوا إليها في المنزل بعد الآن، فشقيقتها كيتي تستطيع أن تحل مكانها بسهولة. فكل همها الآن أن تكسب قوت يومها. يا لها من فتاة مسكينة حقًا!

- إنها فتاة حساسة وشجاعة وطيبة القلب. إنني أحترم كل ما تفعله لعائلتها، وعلى أي حال لا يمكن للإنسان تخمين ما سيحدث في المستقبل، وما أومن به جيدًا أن الاستقلالية لا تُسبب الضرر للصغار.

قال توم على الفور: لو كانت بولي جميلة مثل آخر مرة رأيتها فيها لن أمانع أن تعطيني دروسًا في الموسيقا. ثم رفع رأسه أمام المرآة مُدلِّلًا خصلات شعره المُجعدة التي بدت داكنة فجأة.

- لكني متأكدة من أنها لن توافق على منحك دروسًا في الموسيقا أبدًا، قالت فاني متذكرةً تلك النظرة المُحبَطة التي رسمتها بولي على وجهها عندما ذهبت لزيارتها مؤخرًا بعد لقائها بشقيقها غريب الأطوار.

رد توم: حسنًا، سننتظر ونرى!

- لو نفذت بولي خطتها، لأسعدني أن تعلم مود أو فاني بعض الدروس الموسيقية. أود حقًا أن تغني إحدى فتياتي الصغيرات مثل بولي. فأنا أميل إلى هذا النوع من الفن أكثر من الأغنيات

الأوبرالية المُنتشرة هذه الأيام.

وهو يتحدث عن الغناء نظر السيد شو إلى ذلك المقعد البعيد بجانب المدفأة الذي كانت تجلس عليه الجدة في الماضي. لقد أصبح كرسيها فارغًا الآن بعد أن غادرت هذا العالم.

قالت مود الصغيرة: تُعجبني تلك الفكرة يا أبي، فأنا متحمسة جدًا أن تدرسني بولي الموسيقا. أريد أن أبدأ على الفور.

سألتها السيدة شو وهي تفكر إن كان هذا القرار حكيمًا أم لا: متى ستأتي بولي إلى المدينة؟ فعلى الرغم من أنها تريد مساعدة تلك الفتاة الريفية، فإنها أيضًا ترغب في أن تحظى ابنتها بأفضل تعليم في البلدة برمتها.

- لم تقل شيئًا عن ذلك. شكرتني فقط وقالت إنها ستذهب إلى العمل على الفور وستستأجر غرفة، ألا يبدو ذلك غريبًا بعض الشيء، أقصد أن تكون بولي في المدينة ولكن لا تسكن معنا؟

- ستكون مُرحَّبًا بها، سيكون استئجار غرفة مُكلفًا لها، لذا من الأفضل أن تقيم معنا.

- لا أظن أنها ستوافق على ذلك، هي تريد أن تكون مستقلة وتسعى لتحقيق هدفها بطريقتها الخاصة. أعتقد أن الجدة الكبرى كانت لترحب حقًا بأمرٍ كهذا، فطالما أحبَّت أن تسكن برفقتنا مدرسة موسيقا.

قالت السيدة شو: في الواقع، يُمكنني أن أُرشحها لأصدقائي فهي مدرسة موسيقا جيدة، ربما تستطيع إذًا تكوين قاعدة عريضة من الطلاب، يمكن لبولي تحقيق هذا الغرض إذا استطاعت تبني معايير عالية، وبنت اسمها على نحوٍ مُشرِف. أعتقد أنها ستؤدي دورها على أتم وجه، فالفتاة تُجيد حقًا التصرف بأخلاقيات سيدة ناضجة.

قال توم بكسلٍ واضح: على الرغم من أنها مجرد فتاة صغيرة نحيلة فإنني سعيد حقًا لرغبتها في المكوث في المدينة، مع أني لا أريدها أن تشغل نفسها بالتدريس فما أريده حقًا أن تجلس هنا وتستمتع بوقتها فقط.

قالت فاني بنبرةٍ ساخرة كعادتها: ليس لديّ أدنى شك أنها ستشعر بالفخر إذا حققت تلك الإنجازات التي تطمح لها، فهي لا ترغب في الحياة في هذا القصر الفخم وسط كل هذه الكماليات والنفقات الباهظة، ولا تحب الغزل أيضًا، لذا سيكون من الأفضل أن تختار طريقها الخاص وتمضي نحوه بإرادتها الكاملة، وأن تدخر رأيك الثمين لنفسك.

قال توم ثم نظر إليها باستعلاء واضح: أنتِ تتصرفين بلؤمٍ يا فاني وتتحدثين بقسوةٍ شديدة.

- التزموا الهدوء يا أولاد، فليس هناك شيء يُزعجني في هذا العالم أكثر من المشاجرة. هل يمكنكِ جلب هذا الوشاح من أجلي يا مود،

وضعي أيضًا وسادة خلف ظهري.

أطاعت فيها مود أوامر والدتها، ألقت نظرة على شقيقتها وشقيقها، بدا أن جميع أفراد الأسرة يشعرون بالامتنان. لقد كانوا يجلسون حول مدفأة النار بعد تناول العشاء. كان ذلك أحد أيام شهر نوفمبر الباهتة التي سرعان ما انقشعت غيومها وأغرقت أشعة الشمس الغرفة، وعندما نظر أفراد الأسرة أمامهم وجدوا بولي، تلك الفتاة الريفية ذات الوجه المُشرق تقف أمام عتبة المنزل، والسعادة تبدو عليها كأن أجواء نوفمبر هي الأفضل على الإطلاق.

هتفت فاني: أوه يا عزيزتي! متى أتيتِ؟ ثم قَبلت وجنة صديقتها المُقربة منتظرةً أن تُجيبها.

أجابت بولي بصوتٍ مُبتهج: لقد جئت أمس إلى هنا، واستأجرتُ غرفة صغيرة في المدينة، ثم جئت لأسأل عن أحوالكم.

قال السيد شو: أنتِ دائمًا تجلبين معكِ السعادة يا عزيزتي الصغيرة، ثم مَد يده ليُصافحها.

حاولت بولي أن تواسي السيد شو وتعزيه، فهي تعرف جيدًا أنه فقد أمه خلال العطلة الماضية، لذا حاولت أن تكون عطوفة وحنونة قدر الإمكان. لو أن توم يُعاملها بنفس طريقة والده! لو أنه يحاول أن يتعلم منه الآداب والسلوكيات العامة التي تتسم باللياقة لكانت بولي غيرت رأيها

فيه. على أي حال حاول توم أن يكون رصينًا مهذبًا هذه المرة، تقدم نحوها بضع خطوات ثم همس:

- سُررت جدًّا بلقائكِ يا بولي. إنكِ تبدين أكثر جمالًا من ذي قبل.

ثمة مسحة من الجمال في وجه بولي كأن هناك شيئًا إضافيًا اكتسبه وجهها الطفولي خلال تلك المدة القصيرة، ما زالت عيناها زرقاوين هادئتين متألقتين، وفمها يبدو كثمرة فاكهة نضرة، وذقنها يظهر كأنه منحوت ببراعة، وجبينها الواسع يبرز خصلات شعرها المجعدة التي تضفي عليها طلة بهية تميزها وتجعل منها شخصية محبوبة.

من ناحية أخرى، ما زالت بولي مُلتزمة نمط أزيائها القديم المتمثل في القبعة المستديرة والمعطف الخشن، فقد كانت ترتدي ثوبًا رماديًا خاليًا من الحلي أو زخارف إلا تلك الياقة الزرقاء. إذا نظر إليها أحدهم لا يلتفت إلى طبيعة ثيابها أو تكلفتها وإنما ينجذب إلى تلك الحالة من الصحة والحيوية التي تغمرها، فكل إيماءة منها تظهر حالة من اليقظة والنشاط يندر وجودها في الفتيات في مثل عمرها.

- من الرائع حقًّا استضافتكِ في منزلنا المتواضع مجددًا يا بولي، قالت مود بعد أن أمسكت بيدها الباردة، حيث كانت تجلس أمام قدمها إلى جوار فاني والسيد شو، فيما كان توم يخفي إلى الأمام

صوب كرسي أمه مُستمتعًا بالإصغاء إلى كل هذا.

قالت فاني شاعرةً بالفضول الشديد حول خطة بولي الجديدة: كيف جئتِ إلى هنا؟ متى حدث ذلك؟ وأين استأجرت غرفتكِ؟ أخبرينا من فضلكِ عن كل تلك الأمور.

أعتقد أن الأمور تسير معي جيدًا حتى الآن، فلقد تمكنت من جمع اثني عشر طالبًا للبدء معهم، وعلى هذا يمكنني الشروع في إعطاء دروس الموسيقا يوم الاثنين.

سألتها فاني: ألا تخشين الأمر؟

أجابتها بولي: ليس كثيرًا، ولماذا عليّ الشعور بذلك؟

- ربما لأنه شيء جديد وقد يكون مُحرجًا في المرة الأولى. قالت فاني متلعثمة فهي لا ترغب في إخبارها مباشرةً أن مسألة العمل لدى أحدهم لكسب لقمة العيش قد تبدو أمرًا قاسيًا وصعبًا بالنسبة إليها.

- أعرف أنها ستكون مهمة شاقة قليلًا، ولكن عليّ اعتيادها، فمن المفترض أن التدريب الجديد سوف يمنحني القوة والخبرة اللازمين، كما أني أحب الذهاب إلى أماكن جديدة والتعرف على أشخاص جدد، فالشعور بالاستقلالية هو أمر مبهج تحديدًا إذا تمكنت من مساعدة شقيقتي الصغرى

كيتي من خلال إنجاز تلك المهمة.

أشرق وجه بولي عندما تحدثت عن العمل كأنها تتحدث عن مسألة أخرى تشعرها بالبهجة والمرح بدلًا من الإرهاقِ والمسؤولية الكاملة، ما جعل حديثها يبدو مثيرًا للاهتمام في أعين الآخرين حولها.

سألتها السيدة شو كأنها قد نسيت تمامًا أمر انفعالاتها العصبية لوهلةٍ من الزمن: هل لكِ أن تُخبرينا بأسماء تلاميذكِ يا عزيزتي بولي؟

ذكرت بولي أسماء طُلابِهَا، وهي تراقب تعبيرات المُستمعين حولها.

سألتها السيدة شو في فضولٍ ودهشة: وكيف تعرفتِ إلى آل دافن بورتس وجراي يا عزيزتي بحق الله؟

- في الواقع إن السيدة دافن قريبة والدتي.

- لم تُخبرينا عن هذا من قبل!

- لقد سافرت عائلة دافن بورتس إلى الخارج بضع سنوات، وعندما عادوا إلى الديار كنت قد بدأت خطتي الخاصة، فتواصلت معهم وأرسلت للسيدة دافن رسالة أشرح فيها كل شيء وهي قررت مساعدتي. إنها حقًا امرأة صالحة.

سألها السيد شو: من أين تعلمتِ كل هذه الحكمة يا بولي؟ فيما كانت زوجته تتقلب في مقعدها متململة كأنها لا تحتمل الجلوس على تلك الحالة

لمدة أطول.

قالت بولي مُبتسمةً: لقد تعلمت ذلك هنا يا سيدي. ثم أضافت:

- كنت أظن في البداية أن الحماية والدعم والمساعدة هي أشياء لا تليق بشخص مثلي، ولكن بعد مدة أدركت أن عليّ استغلال كل الفرص التي تقع في مجال قدرتي.

قالت السيدة شو التي بدت كأنها تتحرق شوقًا ليكون دورها معروفًا ومُقدرًا تمامًا كالسيدة دافن بورتس: ولماذا لم تسمحي لنا بمساعدتك في أول الأمر؟ أعتقد أننا سنشعر بسعادة عارمة إذا حصلنا على تلك الفرصة.

- في الواقع يا سيدتي لم أرد أن أثقل عليكم بمشكلات قد تحدث في بداية مشروعي المتعب، ولم أعرف أنكم قد تتحمسون لترشيحي كمدرسة موسيقا، فأنتم لا تعرفون عني سوى أني بولي الفتاة الريفية الساذجة.

- نحن نرغب حقًا في مَد يَد العون لك يا عزيزتي، ونرغب في أن تعلّمي ابنتنا مود الغَناء، فهي تملك صوتًا جيدًا، ولا تجد معلّمًا يحفزها على تطوير موهبتها.

احتلت الابتسامة العريضة وجهها في تلك اللحظة التي تبادلت فيها عبارات الشكر مع تلميذتها الجديدة مود، ثم تذكرت عندما أخبرتها السيدة شو

في السابق أن أغنياتها قديمة الطراز ولا تواكب موضة العصر.

سألتها مود: أين غرفتكِ؟

أخذتني صديقتي القديمة السيدة ميلز إلى غرفة متواضعة لكنها جيدة، فلم تحب أمي فكرة ذهابي إلى منزل آخر غريب، لكن صاحبة المنزل أعدت كل شيء من أجلي، وقالت إنها ستتكفل بإعداد وجبة العشاء، ولكن عليّ أن أتدبر أمر الإفطار والغذاء على طريقتي الخاصة بشكل مستقل. في الواقع يعجبني العيش هكذا وطعامي لا يشكل أزمة حقيقية، فكل ما هناك أني أتناول كوبًا من الحليب والخبز مساءً وشطائر التفاح نهارًا.

- هل غرفتكِ مفروشة جيدًا؟ ألا تحتاجين إلى أي أثاث إضافي يا عزيزتي بولي، يمكننا أن نقرضك مقعدًا صغيرًا أو أريكة بسيطة أو أي شيء ترغبين فيه.

قالت بولي: شكرًا لكِ يا سيدتي، في الحقيقة لا أحتاج إلى أي شيء على الإطلاق، ثم نظرت إلى فاني وأردفت:

- أوه يا فاني! لو تعلمين يا عزيزتي سوء ما مررت به في محطة القطار! كان علي حمل حقائب ثقيلة كثيرة، وأخذت أمضي بها على غير هدى. قالت ضاحكة، ما حفز الجميع على مشاركتها ضحكتها.

واصلت بولي سرد مغامرات رحلتها المُضحكة

دون تَوَقُّف، ولم يكن ذلك لأنها تؤمن بأنها أشياء تستحق أن تُروى، وإنما محاولة منها لإبهاج أصدقائها ورفع روحِهم المعنوية، فهي تعلم أنهم بحاجة إلى تلك الجرعة من البهجة تحديدًا عندما وقعت عينها على السيد شو الذي كان يجلس في مقعده راسمًا تلك الابتسامة الكريمة الدافئة التي أشعرتها بالرضا.

قالت مود: كم أحب حكاياتك المُمتعة يا بولي!

- في الواقع كنت أتمنى لو كنت التقيتك في محطة القطار، ربما حينها جلبت لكِ كثيرًا من الحلوى والهدايا المُبهجة.

ابتسمت له بولي كعادتها.

قالت فاني بنبرة ساخرة محاولة إغاظة شقيقها: أعتقد أن أشد ما يُبهج بولي هو حُب أشقائها لها.

قال توم: لكني أعتقد أن ما يُبهج أشقاء بولي هو تقديرها لهم يا آنسة! لا تنسي ذلك!

- أخبرينا بمزيد من الحكايات عن حيواناتكِ الأليفة يا بولي!، قالت مود الصغرى.

- أوه، في الواقع لدينا قطة وعصفور يعيش بعضهما مع بعض بسلاسة.

عندما لاحظت الفتاة الحكيمة تلك النبرة العدائية بين فاني وشقيقها توم حاولت تلطيف الأجواء قليلًا وبادرت إلى تغيير موضوع الحوار، ثم قالت:

- هل أخبرتكم أن ويل سيذهب إلى الجامعة.

قال توم بلهجة رجل ناضج: أتمنى أن يستمتع حقًّا برحلته تلك.

قالت بولي: أعتقد أنه يستمتع بذلك حقًّا فهو مُغرَم بالدراسة ويميل إلى تطوير نفسه دائمًا. أنا فقط أخشى أن يُرهِق نفسه كثيرًا في المذاكرة فيصاب بالمرض فجأة!

نظر إليها توم نظرة يمتزج بها الحنان والشفقة من واقع خبرته، وقال بغطرسةٍ كأنه أحد أصحاب الخبرة:

- أعتقد أنه لن يُلحِق الأذى بنفسه إذا لم يُرهِقها في أعباء الدراسة.

نظرت إليه بولي بقلق بالغ فقد شعرت أنه يرمقها بشفقة. أحست في تلك اللحظة أنه يتعاطف مع ضعفها فحسب، فشعرت بالغيظ والحنق، لذا ونظرت إليه بملامح بائسة تُشبه وجه طائر البومة.

في تلك الأثناء كان توم مُنشغلًا بتدليل أمه السيدة شو. فقد أخذ يُمطرها بالقُبلات. ثمة لمحة من الحزن قد احتلت عينيه في تلك اللحظات العابرة، فقد كان يُفتش عن جدته الكُبرى الحنون في كل مكان حوله، ثم وقعت عينه على كرسيها الفارغ الذي يتوسط الغرفة، أطال النظر إليه، ثم واصل مُداعبة أمه وتقبيلها كأنه يبحث في وجهها عن بديل لوجه جدته الراحلة.

لاحظت بولي ذلك فابتسمت له مُجَددًا مثلما فعلت أول مرة التقته فيها في محطةِ القطار.

قالت فاني بصوتٍ يغمره المرح كأنها نسيت تلك الخطط التي وضعتها بولي لنفسها: أنا مسرورة حقًا لأنك ستقضين هذا الشتاء برفقتنا يا عزيزتي، فيمكننا إذًا التجول معًا من حين إلى آخر.

- يبدو هذا لطيفًا ولكن لا يمكنني ذلك يا فاني. فلقد جئت إلى هنا للعمل وليس للتسلية أو المُتعة، وأرغب في ادخار بعض المال، وبالنسبة إلي ستكون الحفلات أمرًا لا حاجة لي إليه مطلقًا.

- لكنكِ بالطبع لا تُخططين للعمل طيلة الوقت يا عزيزتي، أليس كذلك؟

- ما أعنيه أنه لا يمكنني أبدًا التخلي عن تلك الأهداف التي جئت إلى هنا لتحقيقها. لقد ابتعدت عن كل شيء لإنجاز تلك المهمة. في الواقع لا أعتقد أنني أستطيع إعطاء دروس الموسيقا في أوقاتٍ متأخرة، وليس باستطاعتي تحمل نفقات الثيابِ والحُلي والعربات حتى أصبح مثل فتيات المجتمع الراقي، فمن الأفضل إذًا أن أقوم بدورٍ واحد، إذ لا يمكنني أن أؤدي الدورين معًا، أليس كذلك؟

قالت فاني: لكني لن أسامحك أبدًا يا بولي إذا لم تأتِ إلى حفلاتي المبهجة.

- لا مانع لدي من حضور حفلاتك البسيطة

التي تقبل بثوب حريري أسود متواضع، فهذه هي حدود ما يمكنني تحمله.

فكرت فاني في تلك اللحظة في تقديم ثوب جديد رائع لبولي هدية في عطلة عيد الميلاد، فحينها ربما لن يكون هناك عائق يمنعها من حضور الحفلات الصاخبة.

سألها توم: ألن تعطينا دروسًا في الموسيقا يا بولي؟

- في الواقع ربما عليّ إذًا أن أحصل على مبلغ إضافي، تحديدًا إذا أعطيتك دروسًا فأنت تعرف جيدًا كيف يتصرف الأولاد عمومًا!

قالت مود الصغرى: لكن أخي توم ليس ولدًا يا بولي! لماذا تواصلين معاملته على هذا النحو؟ إنه في العشرين من عمره كما أنه خطب إحداهن.

سألتها بولي دون أن تأخذ المسألة على محمل الجد: ومن تلك الفتاة؟

قالت مود بجدية كبيرة كأنها تسرد لتوها تفاصيل أحد تلك الأخبار الوطنية البارزة: إنها تريكس صديقة فاني.

- هل هذا صحيح يا فاني؟

قالت فاني بنبرة غاضبة لأنها كانت ترغب في أن تعقد خطبتها أولًا قبل شقيقها توم: أجل صحيح، لقد نسيت تمامًا أن أخبرك بهذا الأمر في آخر خطاب بيننا.

قالت السيدة شو: لقد كانت خطوة لطيفة جدًّا

جعلتني أشعر بالرضا التام.

- لم تصدق بولي ما سمعته للتو! ربما تظنني مجرد فتى طائش، ألا يبدو عليّ أني أسعد رجل في هذا العالم بأسره؟

- كلا! لا يبدو عليك ذلك على الإطلاق.

قال توم بنبرة غاضبة: وكيف لهذا أن يحدث؟ كيف لأحدهم أن يكون أكثر سعادةً مني؟

- ربما كان ليبدو عليك ذلك لو كنت تهتم لأمر خطيبتك أكثر من نفسك! قالت بولي بعد أن توردت وجنتاها بحمرة الخجل، ثم ألقت نظرة أخرى على توم ذلك الفتى المُدلل الذي بات فجأة رجلًا مسؤولًا دون سابق إنذار.

قال السيد شو: في الواقع أتفق معكِ يا بولي، فأنا شخصيًا لم أعجب بشخصية تريكس يومًا، وكنت أتمنى حقًا ألا تكون قصتهما أكثر من مجرد حكاية غرامية عابرة فحسب.

ما إن سمع توم تلك الكلمات شعر بحالة مفاجئة من الضجر، وقرر على أثرها مغادرة المكان على الفور، لاحظت أمه ذلك وسألته:

- إلى أين ستذهب يا عزيزي؟

- لأرى تريكس بالطبع. قال توم بانتباه شديد كأنه يقصد كل حرف قد تفوه به للتو. شعرت بولي أنه ينظر إلى خطيبته تلك أنها لجمة الكون فيما يراها شيئًا تافهًا لا قيمة له على الإطلاق.

لو أنه قد سمع صوت ضحكاتها. لو أنه أصغى إلى نبرة شقيقته الساخرة وتهكماتها لكان اشتعل غضبا، لكنه قرر على الفور الذهاب مباشرةً إلى تريكس ربما يجد في لقائها عزاءه عن نظرة بولي له.

- في الواقع يا عزيزتي على الرغم من أن شقيقي توم يبدو شقيًا جدا فإنه يمتلك قلب طفل صغير، كانت تريكس مخطوبة مرتين في السابق ولكنها فسخت خطبتها، وفي آخر مرة بدا عليها التأثر جليًا، شحب وجهها ونحل جسمها وأصبحت ضعيفة وحزينة، وفي تلك الأثناء أشفق عليها توم واقترب منها وحاول مساندتها بكل طاقته، لكن تريكس الماكرة استغلت هذا الموقف وحاولت إيقاعه في غرامها، وبالفعل تمكنت من تحقيق ذلك الهدف، وقد شعر أخي بالضعف الشديد تجاهها كأنه غير قادر على التحكم في مشاعره، ولذا خطبها لاحقًا.

قالت بولي: يا للفتى المسكين.

- إن عزائي الوحيد يا بولي أن تريكس تفسخ خطبتها في نهاية الربيع دائمًا، لذا فأنا على أمل أن تنهي علاقتها بتوم قريبًا. إني أكره حقًا أن يتحول أخي إلى أضحوكة تسخر منها إحداهن على هذا النحو، فمع أننا نتشاجر كثيرًا فإنني أغضب لأجله وأهتم لأمره فهو شقيقي.

قالت بولي: يُسعدني حقًا سماع ذلك.

- لقد تأثر أخي توم كثيرًا أيضًا بموت جدتنا الكُبرى. فلقد تأذى قلبه على نحوٍ ملحوظ كما أنه بدا في غاية الحزن والألم مدة طويلة، حاولت خلال تلك المدة أن أتقرب منه قدر الإمكان. وفعلًا، تمكنت من تهدئته قليلًا وتوطدت علاقتنا، لكن الأمر لم يستمر فكثيرًا ما تنتهي اللحظات السعيدة بسرعةٍ فائقة، وعدنا كما كنا.

حاولت بولي تغيير موضوع الحديث سريعًا ثم قالت لها:

- ما رأيكم في القدوم برفقتي لإلقاء نظرة على تلك الغرفة التي استأجرتها في المدينة؟

وافقت فاني وشقيقتها مود الصُغرى على الذهاب برفقة بولي إلى تلك الغرفة. بدت الغرفة قديمة جدًا وعتيقة. صعدوا درجات السلم الخشبية حتى وصلوا إلى الطابق الثالث أمام أحد الأبواب الخشبية المهملة، حركت بولي مقبض الباب ثم هتفت مبتهجة:

- هذه هي حيواناتي الأليفة يا مود. قالت مُلوحةً للفتاة الصغيرة التي شاهدت قطة صغيرة نائمة إلى جوارِ الباب، وراحت عيناها تُراقب عصفورًا صغيرًا حط سريعًا على كتف بولي ما إن دخلت إلى الغرفة، وأخذ يصدح بأغنياته العذبة كأنه يهديها لها.

قدمت بولي لهن أكواب الشاي، وجلسن حول

الطاولة يتأملن مُستلزمات المنزل وأدواته كلها، فيما يتجاذبن أطراف الحديث.

أعدت بولي لصديقاتها وجبة ريفية مُتكاملة تشمل قشدة ثقيلة وخبزًا أسمر وكعكة مصنوعة في المنزل وعسلًا مُصفى، وقالت:

- لقد زودتني أمي بكل المؤن اللازمة لكني لا أحب تناولها كلها بمفردي، هيا يا مودي ضعي قليلًا من العسل على شريحة الخبز.

قالت فاني: يبدو أنكِ ستصبحين أيضًا ربة منزل ممتازة يا عزيزتي!

- أعتقد أنني أتدرب قليلًا على ذلك أيضًا من خلال هذه التجربة.

قالت مودي بفم ممتلئ بالطعام: هذه أفضل حفلة أذهب إليها في حياتي كلها. أريد حقًا أن تكون لدي غرفة مثلك. أحلم أن أملك قطة وعصفورًا متفقين مثلكِ، وأرغب في تناول هذا الطعام الشهي كل يوم.

- بالنسبة إليّ ربما فلا تهمني تلك الأشياء كثيرًا، ولكني معجبة جدًا بروحك المعنوية المرتفعة يا بولي، فأنا لست قادرة على التعامل مع كل هذه المسؤوليات بهذه السهولة، من المؤكد أن القلق سيبتلعني إذا فكرت في ذلك.

- إن القلق يُباغتني من حين إلى آخر أيضًا لكني أحاول قهره بكل الطرائق ولا أستسلم له أبدًا،

فعندما يستغل المرء وقته على النحو الأنسب ويتحلى بروح الشجاعة يحقق غايته دون شكوى أو تذمر.

- لا يمكنني أبدًا تحمُّل هذه الأعباء، ولن تمكني وسائلك من تجاوز قلقي.

قالت بولي متأملة سنوات عمرها التي قضتها تحت رحمة الفقر: إن سنوات الفقر تعلمك فضيلة العمل الجيد يا عزيزتي فاني. فهي تجعلك مشغولة دائمًا بتحقيق الإنجازات، وعندما تتعلمين ذلك لا يمكنك الشكوى من القلق مجددًا.

- إني أكره ذلك حقًّا! ولكن يمكنني القول أيضًا إننا بحاجة إلى شخصٍ يخترع وسيلة جديدة لإمتاع الأشخاص الأثرياء، فلقد مللت بشدة من الحفلات والمغازلات وارتداء الثياب الغالية عامًا بعد عام تمامًا كما لو كنت عصفورًا حبيس قفصه الذهبي!

تحدثت فاني بنبرةٍ كئيبة أشعرت بولي أنه ثمة خطب يجثم على صدر صديقتها المقربة، فقد بدا وجهها منتفخًا من شدة الحزن، كأن هناك ما ترغب في الإفصاح عنه لكنها لا تملك القدرة الكافية على فعل ذلك. نظرت إليها بولي بشفقة واضحة وتعاطف ثم قبلتها وتمنت لها ليلة سعيدة، فقالت لها فاني:

- كم أتمنى القدوم إليكِ دائمًا يا عزيزتي فاني لأنكِ قادرة على تحسين حالتي.

الفصل التاسع

لم تكن أيام إقامتها الأولى في المدينة سهلة أو مريحة على الإطلاق، فقد واجهت عدة مشكلات كان أشدها الخجل المفرط من التعامل مع الغرباء، لكنها تغلبت على هذه المشكلة بالتحلي بالشجاعة والإصرار، وسرعان ما نالت محبة طلابها خلال تلك المرحلة أيضًا.

اعتادت بولي حياتها الجديدة تدريجيًا حتى فقد كل شيء بهجته، فباتت تشعر بالملل والضجر من تكرار الأشياء نفسها يوميًا، حتى تلك الأدوات والمعدات المنزلية التي كانت تشعرها بالبهجة في البداية لم تعد تُشكل أي فارق. كان برنامجها مقتصرًا على إلقاء المحاضرات وتناول الوجبات وحيدة فلم تعد تشعر بمذاقها الشهي. لم يكن لديها أصدقاء سوى تلك القطة الناعسة والعصفور الصغير. اعتادت الفتاة الريفية أيضًا أن تخلد إلى فراشها كل ليلة عند الساعة التاسعة مساء، فيما كانت عجلات العربات تصدح في الشارع، حاملة فتيات المدينة إلى الحفلات الموسيقية والأوبرا والمسرح.

في صباح اليوم التالي واجهت بولي صدمتها الأولى عندما أخبرها طلابها أنهم سيتركون دروسها وسيذهبون إلى مدرس آخر في الجنوب ليتعلموا الموسيقا! كان الخبر قاسيًا على الفتاة

المسكينة التي كانت تبذل قصارى جهدها لكسب لقمة عيشها لمساعدة أخيها في الالتحاق بالجامعة، بالإضافة إلى أنها كانت تعاني مشكلات مالية عديدة، فلم تتمكن من تأمين مبلغ كبير خلال مدة عملها، أما الصدمة الثانية فكانت عندما رأت توم وخطيبته تريكس في أثناء عبورها الطريق المؤدي إلى منزلها!

وقفت جامدةً في مكانها دون حِراك. لم تعرف ماذا تفعل. نظرت بولي إلى توم الذي لم يرها، لكنها ظنت أنه رآها، وعندما رمقت خطيبته بنظرة أخرى وجدتها تتجاهلها وتمضي دون الالتفات إليها. لقد شعرت بولي في تلك اللحظة أنهما سعيدان جدًا إلى درجة أنهما لا يلفتهما أحد في هذا العالم.

وقفت بولي في مكانها لبرهة غير قادرة على استيعاب ما رأته. لم تكن تصدق أن توم يتصرف معها الآن بتلك الطريقة، لطالما كان شخصًا جيدًا معها. ها هو ذا يقترب منها مُجددًا متأبطًا ذراع خطيبته تريكس. وبولي تنظر إليهما مرة أخرى مُتأهبةً لإلقاء التحية.

يتجاهلها توم ثم يشرع في الحديث مع رفيقته كأنه لا يراها. تتورد وجنتا بولي خجلًا وتشعر كأن أحدهم صفعها للتو! ها هي ذي تحاول المُضي قُدمًا ببطء. من الواضح أن توم قد شعر بخطئه فجأة فإذ به يعود إليها من جديد ليرميها بنظرة

خاطفة، ثم يقول بلهجة شديدة الرسمية:

- مرحبًا يا آنسة بولي! أعتذر إليكِ، هل يمكنني خدمتكِ؟

شعرت بولي أنه تصرف هكذا لسبب واحد فقط، فهو يعلم أن بولي غير معجبة بشخصية الآنسة تريكس على الإطلاق، وربما يشعر بالخجل ولا يريد أن يصافحها أمام حبيبته الجديدة فهي في النهاية مجرد فتاة ريفية فقيرة تحمل أمتعتها وتحاول كسب لقمة عيشها بكل السبل.

ردت عليه بنبرة غاضبة:

- في الواقع يحزنني أن يتجاهلني أصدقائي القدامى هكذا!

تقدمت بولي بضع خطوات إلى الأمام محاولة السيطرة على انفعالاتها. وفجأة، لمحها السيد ستيفني الوسيم واقترب منها ليمنحها منديلًا لتجفيف دموعها.

شكرته بولي وجففت وجهها جيدًا. منحها السيد ستيفني كتابًا صغيرًا ثم قال:

- في الواقع ترغب ابنة شقيقتي في الحصول على مساعدة. إنها تريد أن يقرأ لها أحدهم هذا الكتاب، فهل من الممكن أن تفعلي ذلك الأمر لأجلها يا آنسة بولي؟

- حقًا يا سيد ستيفني؟، سألته بولي شاعرةً أن السيد الشاب قد اخترع الأمر كله للتو لإرضائها

فحسب بدافع المحبة.

ابتسم السيد ستيفني وقال:

- كوني واثقة أني أخبركِ بالحقيقة كاملةً يا آنسة بولي!

قال الشاب بصوتٍ دافئ ثم شرعا يتحدثان معًا عن الدروسِ الموسيقية، امتدح موهبتها وشجعها على المُضي قدمًا، شكرته بولي وقالت:

- في الواقع أشكرك كثيرًا لأنك حاولت إخراجي من مشكلاتي بتصرفك النبيل يا سيد ستيفني.

- على الرحب والسعة يا آنسة بولي لكني أريد إخبارك أن السيد توم شو لم يكن يقصد تجاهلك بكل تأكيد، فعلى الرغم من أن تلك السمة تخص طبيعة خطيبته الآنسة تريكس فإني أعرف توم جيدًا فهو لا يتصرف بتلك الطريقة الفظة مع أحد. إنه يملك قلبًا رقيقًا.

- أشكرك يا سيد ستيفني، قالت بولي ثم صافحته بامتنان ومضت.

توجهت إلى منزلها، لتناول العشاء برفقة شركاء غرفتها المُستأجرَة. وفيما كانت تتناول طعامها صاحت فجأة:

- كلا! هذا سخيف! لا يمكنني الجلوس هكذا مُقيّدَة الأيدي! عليّ مساعدة أحدهم في شيءٍ ما! حسنًا يمكنني الذهاب مع فاني إلى حفلتها المسائية اليوم. واثقة بأنها ستشعر بالبهجة إذا بادرت بذلك

كما أني سأحظى ببعض المُتعة أيضًا.

توجهت بولي إلى منزل آل شو دون أن تلتفت إلى الآنسة تريكس أو ما قد تفعله من مضايقات. عندما صعدت إلى الطابق العلوي وجدت فاني تجلس حول الطاولة فيما يرتب مصفف الشعر خصلاتها. بدت فاني متذمرة بشدة كأنها تريد أن ينتهي كل هذا الآن!

رافقتها بولي وامتدحت ثوبها ثم تحدثتا معًا بعض الوقت.

- لون ثوبك رائع يا فاني!

- أشكرك يا بولي! في الواقع لقد طلبت مني تريكس أن أرتدي هذا الثوب الأزرق لأنها سترتدي ثوبًا أخضر وعلى هذا سنُشكل فريقًا معًا، لكن لا أعرف أين اختفت الآن بحق الجحيم!

- ربما ذهبت لتقرأ كتابًا ما.

قالت فاني ساخرةً: كتاب! لا تقرأ تريكس الكتب نهائيًا يا عزيزتي! أعتقد أنك فقط من تملك تلك العادة المميزة، كما أنكِ تستطيعين سرد الحكايات الرائعة!

حرصت فاني على تصفيف شعرها بطريقة مُعقدة قليلًا، ووضعت كثيرًا من الزهور بين خصلاتها المموجة، ما جعلها تبدو أكثر تكلفًا من ذي قبل، ومع أن بولي كانت تصدقها القول دومًا فإنها لم

تستطع أن تُعبر عن رأيها في تلك اللحظة، لكن عينيها عكست كل ما تُخفيه، تأملتها فاني عن قُرب وقالت لها:

- ما الأمر يا بولي؟ أشعر كأن مظهري لا يُعجبكِ!

- في الواقع كنت أفكر فقط في تلك النصيحة التي منحتنا إياها الجدة الكُبرى عندما قالت إن البساطة هي أساس الموضة العصرية، أظن أنكِ لو حرصتِ على ذلك لأصبح شكلك أكثر جاذبيَة يا فاني، هذا ما أفكر فيه بالتحديد.

- أوه يا عزيزتي بولي! ليتني كنت فتاة بسيطة مثلكِ! ربما حينها لم أكن لأهتم بأحدث صيحات الموضَة على الإطلاق، وأرتدي ما يحلو لي فقط، لكن لا يمكنني ذلك فأنا أهتم كثيرًا لأمرها على خلافك.

ضحكت فاني ثم تحسست بيدها قلادتها الثمينة وقالت:

- لو أنني أيضًا أملك أكتافًا مثلكِ لما شعرت بأي اهتمام بمسألة الموضة، ولما ارتديتُ أي قلادة.

- علّي الآن الإسراع حتى ألتقي تريكس وتوم في الأسفل، لقد قطعت لهما وعدًا أن أصل إلى هناك في وقتٍ مبكر، هل ستذهبين برفقتي؟

- كلا! لا يمكنني ذلك.

- لماذا يا بولي؟ أنتِ فتاة عنيدة جدًا!

- سأذهب بمفردي، لا بأس يا فاني. يمكنكِ الانضمام إليهما الآن.

ما إن وطأت قدماها ذلك المكان المُضاء بأعمدة الإنارة الخفيفة الشاعرية شعرت بأجواء الاحتفال المُبهجة، تلك التي شهدت لحظات مجيء وذهاب العربات المُلَونة والوجوه والموسيقا.

على الرغم من كل هذا الصخب فإن بطلتنا بولي لم تشعر بالسكينة وأحست برغبة شديدة في العودة إلى المنزل في الحال. كانت تفضل أن تقضي ليلتها في غرفتها الباهتة الفاترة على أن تقضيه هنا وسط الأنوار والرقص والعبارات الحماسية. جلست تبكي كالطفلة في إحدى الزوايا المُهملة دون أن يراها أحد. شعرت كأنها تجاهلت قطعة حلوى للتو.

عندما وصلت بولي إلى غرفتها المُستأجرة وقعت عينها على السيدة ميلز صاحبة المنزل تجلس في زاوية ما تحيك ثوباً. فاقتربت من السيدة العجوز لتلقي عليها التحية.

قالت السيدة ميلز الودودة: كيف حالكِ يا عزيزتي؟

- أنا بخير يا سيدتي، كل ما في الأمر أنني مللت تلك الحفلة المسائية وقررت العودة إلى المنزل، هل يمكنني مساعدتك؟

- بالطبع يا عزيزتي، لكني لا أرغب في أن أُرهقكِ.

- إنني أفضل دائمًا مساعدة الآخرين في كل شيء يا سيدة ميلز، فذلك الأمر يسعدني.

ساعدتها بولي في الحياكة، صمتت السيدة ميلز بعض الوقت ثم تنهدت بعمق بطريقةٍ لفتت انتباه بولي فسألتها على الفور:

- ما الأمر يا سيدتي؟ هل هناك خطب ما؟

- في الواقع لقد استلمت خطابًا مؤلمًا اليوم، فحزنت كثيرًا.

- أي خطاب؟

- لقد أرسلته لي فتاة فقيرة يتيمة كانت تسكن إحدى غرف النزل، لكنها غادرت فجأة بعد أن طُردت من عملها، ولم تجد معينًا لها فلم تتمكن من دفع إيجار الغرفة. تركت لي خطابًا يقول إنها تفضل أن تموت بمفردها على أحد الأرصفة الباردة الموحشة على أن تمكث هنا عبئًا ثقيلًا!

قالت بولي: يا للأسف!

- لكني تمكنت من الوصول إلى مكانها، فوجدتها مريضة جدًا وأحضرتها إلى هنا مجددًا. كم يمزق قلبي حزنًا على حال تلك المسكينة!

شعرت بولي بالكآبة والحزن على حال تلك الفتاة التي تشبهها إلى حد كبير، فهي أيضًا مجرد فتاة ريفية لا تملك مالًا وتضطر إلى العمل لكسب لقمة عيشها، إنها أيضًا فتاة أخرى من الطراز القديم لا تناسبها أحدث صيحات الموضة ولا

تعرف كيف تجاريها. إنها مثلها تمامًا فتاة بائسة يدهسها الفقر بوحشيةٍ من حين إلى آخر.

- أين هي الآن؟

سألت بولي باهتمام كبير:

- إنها هناك في تلك الغرفة، قالت السيدة ميلز مُشيرةً إلى إحدى الغرف القريبة من باب السكن الرئيس، ثم أضافت:

- لقد جلبتها إلى هنا عندما وجدتها مريضة طريحة الفراش، تحسنت حالتها قليلًا منذ ليلة أمس حتى أنها قالت: كم أدين لكِ بهذا المعروف يا سيدتي. إنني أشعر الآن كأني وُلدت في عالمٍ جديد. من فضلك ساعديني أن أبدأ حياتي من جديد! سوف أبذل قصارى جهدي. سأصبح شخصًا أفضل. لقد أخبرتها أنها باتت طفلتي الآن وأني سأعتني بها حتى النهاية.

في تلك الأثناء التي تحدثت فيها السيدة ميلز ربة المنزل بنبرة تعكس روح الأمومة شعرت بولي بالفخر الشديد بتلك السيدة العجوز الطيبة التي سخرها الرب لخدمة تلك الفتاة الصغيرة ومنعها من الانهيار كأنها تمنحها حياة جديدة. عانقتها بولي وقبّلت وجنتيها وشعرت كأنها تقف أمام إحدى الراهبات الصالحات اللواتي ينشدن تحقيق الحب والسلام في العالم.

قالت بولي بصدقٍ بالغ فقد شعرت بضآلة

مشكلاتها وتفاهتها مقارنةً بمشكلات تلك الفتاة القاسية: كم أنتِ رائعة يا سيدة ميلز! من فضلكِ أخبريني كيف باستطاعتي مساعدتكِ في هذا الأمر؟ يمكنني فعل أي شيء.

احتضنتها السيدة ميلز ثم ابتسمت وقالت:

- حسنًا يا عزيزتي أعتقد أنه يجدر بكِ الذهاب إلى غرفة تلك الفتاة المسكينة ومواساتها، ما كنتِ لأسمح لفتاة أخرى بذلك، لكنكِ تملكين شعورًا مرهفًا وتتعاطفين مع الآخرين بصدق ولا تتسببين في جرح مشاعرهم.

سألتها بولي: حقًا؟

- أجل يا عزيزتي.

تقدمت بولي بضع خطواتٍ مقتربة من غرفة الفتاة المسكينة، كانت ممددة على الفراش في حالة سكون تام، فتحت عينيها الداكنتين فجأة ورمقت بطلتنا فشعرت بالارتباك قليلًا في بادئ الأمر، ثم أمعنت في النظر إلى وجهها العظمي. تمكنت بولي من فهم لغة عينيها بل استطاعت قراءة رسائلها الغامضة المستترة. قبلت جبينها فبكت الفتاة المسكينة قائلة:

- يتعامل معي الجميع جيدًا، أنا المذنبة الوحيدة. أعرف أني لا أستحق ذلك!

- أوه! لا تقولي هذا يا عزيزتي فأنتِ فتاة رائعة تستحق أن يحبها الجميع، ونحن هنا معكِ لخدمتكِ

والسهر على راحتكِ.

سألتها الفتاة المريضة: شكرًا لكِ، هل تعيشين هنا؟

- أجل، لقد استأجرت الغرفة المجاورة لكِ قبل بضعة أيام من السيدة ميلز ربة المنزل. في الواقع إنني أدعوكِ إلى زيارتي من حين إلى آخر فلدي قطة وعصفور وبيانو وأطعمة ريفية لذيذة. إنني أعيش هناك ملكة حقًا، يمكنكِ القدوم.

- هل تحيكين الثياب؟

- كلا. أنا مدرسة موسيقا أعطي الطلاب دروسًا طوال اليوم.

قالت الفتاة بإعجاب شديد: كم هذا رائع! من المؤكد أنكِ تثقين بنفسك كثيرًا، تبدين فتاة جميلة تُجيد كسب لقمة عيشها دون مساعدة أحد!

كان لتلك الكلمات البسيطة غير المُتكلفة أثر كبير في نفس بولي، غمرتها السعادة بعد أن كانت أسيرة القلق والحزن، ففي تلك اللحظة فقط أيقنت أنها راضية وسعيدة.

تذكرت بولي لحظة بكائها لأنها لم تتمكن من البقاء في الحفل. تذكرت ما حدث بسرعة ليكشف لها عن التناقض بين حياتها وحياة تلك الفتاة المسكينة الفقيرة التي لا تملك شيئًا في هذا العالم. لقد استفادت من تلك اللحظة بكثير من الخطب الواعظة والكتب الحكيمة التي كشفت لها جانبًا

مُظلمًا من حياة مَن هم أشد بؤسًا.

تأهبت الفتاة الريفية للنوم، ثم جلست على فراشها تفكر في حياتها القادمة. عاتبت نفسها على تشاؤمها وكيفية نظرتها إلى الحياة هذا المساء. شجعت ذاتها على التقدم، وتمتمت قائلة:

- حسنًا، ما الذي يجدر بي فعله الآن! يمكنني البدء دائمًا في أي وقت!

تذكرت كلمات جارتها:

- إنك فتاة قوية وجميلة وتسمعين الموسيقا في كل وقت! أنتِ محظوظة بكل تأكيد!

ترددت أصداء تلك الكلمات في أذنيها.

الفصل العاشر

كان أسعد أيام بولي على الإطلاق يوم الاثنين، فهو اليوم الوحيد الذي تجتمع فيه مع شقيقها ويل بعد أن ينتهي من جامعته.

كان ويل يرى شقيقته بولي أجمل وأفضل فتاة في البلدة كلها على الإطلاق، فقد اعتاد أن يعاملها معاملة راقية، ومع هذا فقد كانت بولي تعرف جيدًا أنه سيأتي ذلك اليوم الذي سيعثر فيه ويل على فتاة أكثر جمالًا وجاذبية. كانت شقيقته تحنو عليه، وتشاركه كثيرًا من الأشياء المشتركة، كانا ينظفان الأطباق معًا دومًا في المنزل، ويتبادلان الآراء ووجهات النظر حول أشياء مختلفة متعددة، ويكتبان الرسائل ويتابعان قراءة الكتب. كان ويل يحرص على إحضار الفول والخبز الأسمر من المخبز المجاور، وكانت بولي تشعر بالسعادة العميقة حين يقول لها «شكرًا يا دجاجتي» أو حين يقرصها في أنفها أو أذنها بلطف.

كانت تُخبر صديقتها فاني بتلك الأشياء مازحةً ثم تقول:

- إنه يقرصني دومًا يا فاني كما لو كنت دُمية تفتقر إلى الشعور.

على الرغم من أن حديثها كأنه شكوى رسمية فإنها كانت تشعر بالسعادة كثيرًا، وبالمقابل كانت

مود الصغرى تودّ بشدة لو يُعاملها شقيقها توم بالطريقة نفسها، فكم تود حقًا لو يمازحها. ربما حينها كانت لتشعر أنها شقيقته الغالية حقًا بدلًا من أن يتجاهلها تجاهلًا بغيضًا.

في مساء اليوم التالي، بينما كان شقيقها توم مُمددًا على الأريكة يقرأ روايته المفضلة للمرة الرابعة، كانت مود الصغرى تتأهب للذهاب إلى منزل بولي لتستمتع بوقتها وتدرس الموسيقا. ما زالت الثلوج تنهمر في الخارج، أخذت مود تذهب وتجيء في انتظار توقف انهمارها.

قال توم مواصلًا القراءة: من فضلكِ يا مود، هل يمكن أن تجلسي؟

- كلا! لا يمكنني، أريد الذهاب إلى منزل بولي الآن.

- لمَ تريدين الذهاب؟!

- لأني أحب الذهاب إلى هناك، المنزل جميل جدًا. وويل -شقيق بولي- هناك أيضًا، نقضي معًا وقتًا رائعًا ونصنع الكعك والفطائر الشهية.

- أوه! الكعك والفطائر الشهية؟ يبدو الأمر مُثيرًا حقًا، حسنًا هل بإمكاننا أن نعقد صفقة معًا؟

- أي صفقة؟

- أن تُخبريني بكل ما يحدث هناك، فلديّ فضول لأعرف ما الذي تفعلينه هناك، ألا تحبين

الإفصاح عن الأسرار؟

- في الواقع هذا ليس سِرًّا يا توم! عادة، أنت لا تهتم بما يجري هناك!

قال توم بصوت مُرهَق جدًّا: حسنًا، من فضلك، اجلبي لي الوسادة الصغيرة؟

جلبتها له وأعطته إياها وقالت:

- تدلّك بولي فروة رأس أخيها ويل كلما شعر بصداع أو إرهاق شديد نتيجة إجهاد نفسه في الدراسة، هل تحب أن أدلك رأسك لترتاح؟

- أجل، دلكي رأسي إذا أردتِ، لكنني لا أهتم بذلك أبدًا!

راحت مود تدلك فروة رأس شقيقها توم بحنان، حتى شعر بالاسترخاء الشديد... فقال:

- كم هذا رائع!

ثم توقف نهائيًا عن الكلام لتسأله مود متلهفة:

- هل نمت يا توم؟

- كلا!

- بالمناسبة، تقول بولي إنك أكثر وسامة من السيد ستيفني.

سألها توم: أوه! حقًّا! متى قالت ذلك؟

- لقد سألتها عن الشخص الأكثر وسامة واختارتك.

- أنا مُمتَن جدًّا.

هتفت فاني من بعيد: هل التقت بولي السيد ستيفني مؤخرًا؟

أجاب توم:

- لقد رأيتهما معًا منذ مدة، كان يقرضها بعض الكتب.

- حقًا! وكيف كانت ردة فعلها؟

- صافحته.

- هل تظن أن بينهما علاقة عاطفية؟

- في الواقع لا أعرف، ولكن أظن أنهما سعيدان بقرب بعضهما من بعض.

هتفت مود: كلا! ثم أردفت قائلةً:

- أعتقد أن بولي لن تتزوج أبدًا، فقد كرست حياتها لتنفيذ خططها الخاصة، لقد أخبرتني بذلك بنفسها ذات مرة.

قال توم ساخرًا: يا له من قدرٍ قاسٍ ينتظر بولي الجميلة!

- إنها تحب أن تخطط لحياتها كما تشاء! فمن الجيد حقًا أن يعرف الإنسان ما يريده بالضبط.

قال توم محاولًا تغيير موضوع الحوار: هل سرد لكم ويل شيئًا آخر أيضًا؟

- أجل، لقد سرد لنا كثيرًا من القصص والحكايات المُضحكة والساخرة عن أساتذته في الجامعة، استمتعنا كثيرًا. مع أنك طالب في

الجامعة مثله فإنك لم تتحدث معنا يومًا عن تلك الأمور!

قال توم مازحًا مُحاولًا إغاظة شقيقاته: ولن أتحدث!

اقتربت منه شقيقته فاني، داعبت شعره وقالت:

- هل ترقص مع خطيبتك تريكس كثيرًا في الحفلات الموسيقية؟

قال توم غير مُبالٍ بسؤال شقيقته: ليس كثيرًا.

- ولكن على الشاب أن يرقص مع خطيبته كثيرًا!

- في الواقع لا تُعجبني الأزياء التي ترتديها تريكس، كل هذا الريش والحلي والزخارف والألوان الزاهية! لا تعجبني أبدًا!

- هل قلت لها ذلك؟

قال توم: في الواقع حاولت كثيرًا لكنها لا تهتم بما أقول أو حتى بما أشير إليه. توقف قليلًا ثم سأل شقيقته:

- أخبريني يا فاني، هل تضع تريكس كثيرًا من مساحيق التجميل؟

- أجل، لماذا؟

- لقد اشتبهت في الأمر. شعرت بأن ملامحها مُتكلفة قليلًا، وذات يوم انسكبت بعض المياه على وجهها، وعندما أحضرت منديلًا رفضت

أن تُجفف به وجهها، كما أنها ترفض رفضًا قاطعًا أن أُقبلها على وجنتيها. وفي كثير من الأحيان ألاحظ احمرار إحدى وجنتيها بشكلٍ ملحوظ عن الأخرى.

- هل تحدثت معها في الأمر؟

- لا يهمني ذلك كثيرًا. فقط لا يعجبني هذا الأمر.

- لكنها خطيبتك يا توم! عليك أن تتحمل نتيجة اختيارك!

- لا أُبالي بتلك المسألة. أنا فقط لا أُفضل هذا النوع من الفتيات اللواتي يضعن كثيرًا من مساحيق التجميل كالمُمثلات!

- هل بولي من هذا النوع من الفتيات أيضًا؟ أقصد هل تضع كثيرًا من مساحيق التجميل؟

- لا! إنها ترى مساحيق التجميل عديمة النفع حتى عندما تصبح بشرتها شاحبة ترفض أن تضعها.

قال توم: أشك في ذلك.

قالت مود الصغيرة لفاني: تقول بولي إنه لا يجوز أن نفشي أسرارنا الخاصة أمام الآخرين.

قالت فاني: بربك يا مود، كفاكِ حديثًا عن بولي!

ذهل توم وقال: اعتقدت أنكما صديقتان مُقربتان!

- أجل، بولي صديقتي التي أحبها كثيرًا لكني سئمت من مديح مود لها طيلة الوقت! هيا يا مود، اذهبي والعبي في مكان آخر.

خافت مود وسألتها: يا إلهي! هل أنتِ غاضبة الآن؟

قرع جرس الباب، فصاحت مود الصغيرة:

- إذا كان هذا ويل، فسأغادر معه إلى منزل بولي الآن؟

قالت فاني منزعجة: لا أهتم بتلك المسألة على الإطلاق.

دون أن تنتظر مود الإذن بالموافقة ركضت نحو الباب، فوجدت ويل واقفًا هناك خجولًا ومحرجًا. كانت الثلوج تتساقط عليه. ظل الفتى في مكانه حتى جاء إليه توم.

تحدث الشابان وتعارفا، ثم اكتشفا أنهما يشتركان بصفات كثيرة، فعلى الرغم من أن ويل ينتمي إلى طبقة الفقراء وتوم إلى الأثرياء فإن لهما عادات مشتركة منها حب الكتب وزيارة المكتبات الرئيسة وتناول الطعام والألعاب الرياضية.

بعد أن توقف هطول الثلوج، انطلقت مود وويل إلى بولي، فيما ذهب توم للقاء خطيبته تريكس. كان توم يفكر في عالم بولي وويل والأشياء التي سمعها من مود عنهما. لم يفكر في

الآنسة تريكس كثيرًا لكنه شعر أنه قد وقع أسيرًا لحالة غامضة لم يجد لها تفسيرًا مُحَدَّدًا، ظل على تلك الحالة حتى وجد نفسه يسير رغمًا عنه نحو منزل بولي.

ركضت بولي سعيدة نحو عتبة باب المنزل، واقتربت من توم مبتسمة.

قال توم بصوتٍ أجش أذهل الفتاة الشابة: لقد أتيت من أجل مود.

قالت مود الصغيرة متأففةً: لا يمكنني الذهاب دون أن أتناول شطائر التفاحة اللذيذة، ولم تتجاوز التاسعة بعد. يمكنك المغادرة سيوصلني ويل.

قال توم ضاحكًا: سأوصلكما معًا. فالعاصفة قوية في الخارج، كما أنه يصعب السير في تلك الأجواء، هل توافق على مرافقتي خلال تلك الرحلة أيها العجوز؟ ثم أومأ برأسه ناحية ويل.

قالت بولي بابتهاج شديد: بالطبع سيكون هذا رائعًا، ثم أضافت:

- في الواقع كنت سأبذل قصارى جهدي لإبقاء شقيقي هنا الليلة لأني أخشى أن يغادر والجو عاصف، أحيانا توافق السيدة ميلز صاحبة المنزل على إبقاء بعض الضيوف في مثل هذه الظروف. ففرحت لما رأت توم يخلع معطفه ببطء استجابةً لرغبة أخته مود.

أجلسته بولي على أفضل مقعد في الغرفة وغمرته

بنظرةِ رضا ثم قالت:

- سُررت كثيرًا بزيارتك اليوم. لَمَ لم تزرنا سابقا؟

قال توم: للأسف، نحن طُلاب الجامعة ليس لدينا وقت إضافي للزيارات الاجتماعية.

قال ويل مازحًا: خُذ استراحة!

قدمت بولي الجوز لتوم وقالت:

- أعتقد أن مذاقه شهي جدًا يا توم، سيُعجبك.

ابتسم توم، فاقتربت منه بولي وقالت مبتسمة:

- أتذكر يوم التقينا في محطة القطار وأعطيتني بعض الجوز؟ ثم قلت إن سائق العربة مخمورا!

- أجل، ما زلت أذكر كيف كنتِ تترنحين في مقعدكِ! لقد حاولت أن أكتم ضَحكتي يومها بصعوبة!

- لقد حاولت أن أبدو فتاة شجاعة لأنك نعتني بالجبانة!

- أوه! هل فعلت ذلك حقًا؟ أعتقد أني مدين لك باعتذار يا بولي، لقد كنت شخصًا سيئًا مع أنكِ كنتِ إنسانة جيدة.

- لقد ظننت حينها أنك ولد سيئ بالفعل، ولم أستطع التوقف عن التفكير في الأمر.

قالت مود: لقد اعتادت جدتي توبيخ توم على معاملته لكِ في السابق يا بولي، لكنه كان عنيدًا جدًا.

قال توم في حزنٍ بالغ: في الواقع أفتقد جدتي كثيرًا هذه الأيام.

قالت مود: لقد اعتاد توم الجلوس في غرفة جدتي بعضَ الوقت، إن ذلك يشعره بالراحة. قاطعها توم محاولًا تغيير موضوع الحوار:

- حسنًا، أسرعي في تناول شطائر التفاح، وإلا ستضطرين إلى المغادرة وتركها!

سألته بولي: كيف حال فاني؟

- أظن أنها مريضة. تشكو من عسر في الهضم وتبدو مكتئبة وحزينة.

قالت مود: أظن أن سبب مرضها هو اكتئابها، فنذ يومين وجدتها تبكي وحيدة في غرفتها، وعندما سألتها عن السبب قالت لي إنه ما من أحدٍ يهتم بأمرها أبدًا!

قالت بولي: علينا أن نبذل كل جهدنا لإسعادها، لولا أني مشغولة جدًا هذه الأيام لذهبت إليها فورًا، فقد كانت تساندني وتساعدني دائمًا، وأنا مدينة لها بالوفاء.

- أتمنى لو تفعلين ذلك، فأنا غير قادر على فهمها فهي تتصرف دائمًا بمزاجية متقلبة. قال توم متأملًا بولي وشقيقها ويل أمامه والسعادة مرتسمة على وجهيهما. لطالما تمنى أن يحظى بشقيقة مثل بولي حتى تنظر إليه كما تنظر إلى شقيقها ويل.

بدأ توم يفكر في الأمرِ بشكلٍ مختلف. أحس فجأة بأن شقيقته فاني مسكينة حقًا فهو لم يعاملها بحنان يومًا ولم يُدللها، وبسبب ذلك تشعر الآن بالوحدة والإكتئاب. أشفق عليها وتعاطَف معها، عليه أن يُعاملها بحنان فهي شقيقته المزاجية والرقيقة.

تحدث توم مع بولي عن أهدافها التي تنوي تحقيقها من عملها، فأجابته الفتاة الريفية البسيطة أنها تريد كسب لُقمة عيشها لتساعد شقيقها ويل على إتمام دراسته في الجامعة، كما أنها تريد أن تدعم أسرتها ماديًا.

بدا تعاطفه واضحًا في تلك اللحظة كأنه يعقد مقارنة سريعة خاطفة بين شخصية بولي وشخصية خطيبته الآنسة تريكس.

قال توم: كم أنت فتاة نبيلة يا بولي! أوه، كم أنا نادم على معاملتي اللئيمة لك!

تحدثت بولي أيضًا عن أخيها جيمي.. شعر توم بألمٍ عميقٍ يعتصره ما إن رأى دموعها تسيل على وجنتيها.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الحادي عشر

عزيزتي بولي

ستنضم مجموعة الحياكة الليلة إلى منزلنا عند الساعة التاسعة مساءً، هل تستطيعين القدوم ومساعدتنا في الحياكة؟

صديقتكِ فاني.

- هل هناك أخبار سيئة يا عزيزتي؟ سألتها السيدة ميلز ما إن رأت شحوبًا على وجه بولي. كانت جالسة في إحدى زوايا المنزل تواصل الحياكة، خاصة بعد رحيل جيني المسكينة.

أخبرتها بولي بكل شيء، ثم أضافت:

- عليّ الذهاب إلى منزل فاني حتى أساعدها، رغم أني لا أرغب في ذلك، لأنهن يتحدثن عن أشياء غريبة لا أفهمها ولا أجد ثرثرتهن ممتعة عمومًا، وأشعر دائمًا أنني إنسانة غريبة عنهن كأني لا أنتمي أبدًا إلى هذا العالم، فهنّ لا يتقبلن فكرة انضمامي إليهن إلا لأني صديقة فاني ليس أكثر! أجد نفسي أكتفي بالجلوس في زاوية وأشرع في حياكة الثياب فيما يثرثرن معًا ويضحكن.

واصلت السيدة ميلز حياكة القميص الأبيض، وقالت: ألن يكون ذلك فرصة جيدة لتخبريهن عن جيني المسكينة يا عزيزتي؟ إنها بحاجة إلى العمل، ربما تستطيع بنات تلك الطبقة مساعدتها في الحصول على عمل يسد حاجتها. إن جيني

تؤدي عملها بمهارة عالية وهي تحترق شوقًا لكسب لقمة عيشها. لا أريدها أن تشعر بالبؤس وعدم الاستقلالية، كما أن حصولها على بعض المال سيعود عليها بالنفع في النهاية. يمكنك إخبار صديقاتك عنها، فإنهن يخدرن من عائلات ثرية جدًا بمقدورهن مساعدة فتاة يتيمة وفقيرة مثلها.

شعرت بولي بالمسؤولية، فقالت: أتفهم ذلك جيدًا، وأنا جاهزة للمساعدة، لكني لا أعرف من أين أبدأ؟

- قد يتعذر علينا القيام بكل ما نريده حقًا في هذه الحياة يا عزيزتي، لكن ما علينا فعله هو أن نبذل قصارى جهدنا لتحقيق تلك الأهداف المنشودة. يمكننا البدء مع جيني. أخبري صديقاتك بأمرها فمن المؤكد أننا سنعثر حينها على شيء جيد من شأنه مساعدتها على المُضي قدمًا.

قالت بولي: في الحقيقة أخشى أن يستهزئن بي إنْ تحدثت في أمرٍ كهذا.

- ألا تعتقدين أن الأمر يستحق العناء يا عزيزتي؟

- أجل، أظن ذلك.

- حسنًا، عليك مساعدة تلك الفتاة الفقيرة المسكينة، لقد أخبرتني أمس أن غايتك مساعدة الآخرين، ودوما تعملين على تحقيقها، ما أبهجني وأشعرني بالطمأنينة حقًا.

- إنني أريد أن أتصرف برصانة يا سيدتي. أحاول أن أتعامل مع الآخرين واضعةً في الاعتبار أسلوبه في التفكير، فلن يكون الجميع قادرين على فهم أهدافي وما أنشد تحقيقه. فقد يعتبرون ذلك تصرفًا من الطراز القديم الذي لا يتماشى مع العصر، وحينها سيشرعون في التهكم والسخرية من مبادئي بطريقةٍ ستجعلها عالقة في ذاكرتي إلى الأبد.

- إن الشعور بالشفقة والتعاطف تجاه الأشخاص الأضعف والأكثر فقرًا هو إحدى سمات النفوس الكبيرة يا عزيزتي. يعكف الإنسان على فعل الخير منذ بداية التاريخ فهل هذا يعني أنه أمر قديم الطراز وينبغي لنا التوقف عنه في عصورنا الحديثة حتى نكون أكثر مواكبة للموضة؟ إن آفة العصر الحقيقية يا عزيزتي تتمثل في شيء واحد هو الاهتمام الشديد بما يظنه الآخرون عنا، فإذا فعلنا حقًا ما نؤمن به دون أن نشغل بالنا بما يفكرون فسنتمكن من تحقيق أهدافنا وإنجازها على أتم وجه.

- سأحاول جاهدةً. قالت بولي متأثرة بكلمات السيدة ميلز، تلك المرأة العجوز التي على الرغم من أن الشيب غزا شعرها فإن لها قلبًا شابًا. كانت بولي تشعر بالخجل الشديد لأنها شديدة الحساسية، وكانت السيدة ميلز تعرف جيدًا بحكم خبرتها أن بولي لن تتوانى لحظة عن تقديم

يَد العون للآخرين متى استطاعت ذلك، فهي من النوع الذي يملك القدرة التامة على تقديم التضحية.

لم تكن بولي على علم بذلك. لم تكن تعرف على الإطلاق أنها تملك قدرة حقيقية على مد يد العون للآخرين، فكل ما كانت تعرفه أن نياتها صادقة، لكنها شعرت بالسعادة البالغة أنها تملك صديقة باستطاعتها تحقيق كل آمالها، منحها ذلك قوة لا يُمكن الاستهانة بها.

ارتدت بولي ثيابها تأهبًا للذهاب إلى منزل فاني. نظرت إليها جيني بفضول وسألتها: تذهبين إلى حفلة شاي؟ فأجابتها بولي ساخرة: لا، لحضور محاضرة عن فن الحياكة والتطريز.

وصلت بولي إلى منزل فاني وانضمت إلى مجموعة الفتيات اللاتي كن يحكن ثوبًا أبيض من الدانتيل. أشارت لها فاني أن تجلس في مقعد خال وتبدأ العمل. حرصت بولي على التصرف بحكمة ورزانة، وجلست في الزاوية المخصصة لها وبدأت تحيك ثوبها بدقة ومهارة. جلست إلى جوارها الآنسة بيركنز فتاة ناضجة ذات ملامح أرستقراطية باردة تحيك ثوبًا آخر، أومأت لها برأسها باقتضاب، كانت بيلا رفيقة فاني تجلس إلى يمينها، كانت فتاة شديدة الهدوء ولكنها بدأت تثرثر عن الخلاف الذي وقع بين توم وخطيبته الآنسة تريكس مؤخرًا.

بقيت بولي هادئة، وأصغت إلى تفاصيل القصة، نظرت إلى الآنسة بيركنز التي كانت جالسة كالتمثال الحجري، لم تكن تفعل شيئًا سوى تحريك أصابعها بطريقة آلية فتكمل غرزتين كل دقيقة تقريبًا.

امتلأ رأسها بحكاياتهن وثرثرتهن عن أخبار العلاقات الغرامية بين أبناء الطبقة الثرية الأرستقراطية، وعن نصائح الأمهات لبناتهن المراهقات حتى يتجنبن مصير رفيقتهن كاري التي وقعت في غرام رجل ألماني وهربت معه، كانت الفتيات يتبادلن أيضًا أبرز الفضائح والحكايات السرية عن الهدايا التي يقدمها الرجال لحبيباتهم وأسعارها. جلست بولي في ذهول تام، لم تكن تتصور أن العالم يسير بهذه الطريقة الجنونية الغريبة! فهي تعيش في عالم آخر أكثر صدقًا وبساطة مما تتحدث عنه.

قالت بولي بصوت خفيض: أعتقد أنه يمكننا الاستفادة من حياكة تلك الثياب بشكل دوري لصالح الفقراء، فهم يعانون حقًا من البرد القارس في فصل الشتاء.

قالت بيلا صديقة فاني: لا أوافق على هذا الأمر على الإطلاق، فأنا أحيك ملابسي الخاصة لأزينها بالحلي والزخارف التي أرغب فيها لا لأشارك في الأعمال الخيرية. وافقتها تريكس قائلة:

- تقول أمي دائمًا إنه بمقدورنا مساعدة الفتيات

الفقيرات بتوفير فرص العمل لهن، وليس بأن نحيك ثيابهن!

همست بولي:

- أعرف فتاة تدعى جيني تُجيد أعمال الحياكة.

لم ينتبه أحد على الإطلاق إلى ما قالته بولي كأنها لم تقل شيئًا. كانت تتحدث بصوت خافت لأنها تخشى من ردة فعلهن، لذلك لم تذكر تفاصيل إضافية، واكتفت بالإشارة إليه فقط.

صمتت الآنسة بريكنز لوهلة، ثم قالت:

- ليس مناسبًا أن يرتدي السادة ثيابًا تشبه ثياب الخدم، فهذا لا يصح. كيف سأرتدي ثوبًا حاكته لي خادمتي مثلًا؟ سأكون مضطرة إلى اتباع ذوقها، وهذا لا يروق لي. لذلك أفضل دائمًا حياكة ثيابي بنفسي دون الاعتماد على أحد.

ضحكت بولي بشدة، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها عندما قالت الآنسة تريكس:

- حسنًا لقد اكتفيت من الحديث عن أولئك المتسولين، فأنا مقتنعة تمامًا أنهم لا يستحقون المساعدة وإذا تركناهم لأنفسهم يستطيعون العناية بأمورهم. هناك مؤسسات خيرية كثيرة تهدف إلى تحسين حالهم، فهل يمكن أن نستمتع ببعض الهدوء الآن؟

قالت بولي بنبرة غاضبة وقد تغلبت على خجلها:

كلا! لا يوجد مؤسسات خيرية كثيرة تهدف إلى

تحقيق ذلك الغرض!

- حقًا؟ هل تؤمنين بذلك؟ سألتها الآنسة تريكس بعد أن اقتربت منها وخلعت نظارتها التي كانت ترتديها في أثناء الحياكة وتأملتها عن قُرب بتلك النظرة الأرستقراطية الاستعلائية.

كانت بولي تشعر بالغضب الشديدة دون سبب واضح، وتفقد القدرة على التحكم في انفعالاتها كلما اقتربت منها الآنسة تريكس. اعتادت تلك الفتاة المتغطرسة ارتداء نظارة عندما تحيك مع الفتيات الأخريات، ليس لأنها بحاجتها طبيًا وإنما لإخفاء أي علامة للبراءة في عينيها. حتى تتقن دور الفتاة ذات الشخصية القوية، وتستخدم كلماتها سلاحًا لحماية نفسها من الآخرين، كانت دائمًا تتخذ موقفًا دفاعيًا. لم تتحمل بولي نظرتها الساخرة المُتكبرة المرتسمة على وجهها وهي تتحدث عن الصراع بين الطبقات الفقيرة والغنية بأسلوب بغيض مستفز، فبولي أيضًا تنتمي إلى هذه الطبقات، فشعرت بالانفصال عن أولئك الفتيات اللواتي بدونَ كأنهن قادمات من عالم آخر. قالت بغضب:

- في الواقع لا يُعجبني أبدًا أن يتبنى أبناء الطبقة الغنية تلك العقلية، فأي سلام ينشدوه عندما يتصرفون بكل هذه الأنانية؟ ما فائدة وجودهم ما دام الفقراء يموتون يوميًا بسبب نقص الغذاء؟ وماذا عن أطفالهم الذين يتضورون جوعًا دون أن يمد لهم أحدهم يد العون؟

شعرت الآنسة تريكس بالحنق الشديد، ليس بسبب عدم اقتناعها بالمبادئ التي صاغتها بولي بفصاحة، بل لأنها شعرت بالغيرة من تلك الفتاة الريفية البسيطة. ما لا تعرفه بولي أن توم يحدّث خطيبته عنها مرارًا وتكرارًا ويصورها لها نموذجًا يجب أن تقتدي به، ما دفعها إلى كره بولي أكثر.

قالت الآنسة تريكس ساخرةً: لا أصدق أبدًا تلك القصص الإنسانية التي تنشرها الجرائد عن تلك الطبقة باستمرار. أشعر أنهم يتعمدون ذلك لاستغلال مشاعر القراء وزيادة مبيعات الجريدة، ولا وقت لدي لأعتني بأحدهم، يكفيني العناية بخطيبي توم.

شعرت بولي بالانزعاج الشديد فضغطت إبرة الخياطة حتى كادت تنقسم إلى جزأين، لكنها تمالكت نفسها، وقالت:

- لا أصدق حقًا أنكِ لا تملكين القدرة على التعاطف مع ما يحدث حولكِ، يبدو أن حياتكِ السعيدة تجعلكِ تنسين معاناةَ الآخرين وتتجاهلينَ حياتهم المؤلمة. أما أنا فأشعر بالتضامن معهم إلى درجة أن قلبي يتألم لأجلهم.

قالت الفتاة ساخرةً: حقًا؟ هل تشعرين بألمٍ في قلبك؟ إنكِ تبدين بصحةٍ جيدة!

كانت تلك الكلمات بالغة القسوة، وقد تركت أثرًا كبيرًا في نفس بولي المسكينة التي شَحب

وجهها وقطبت جبينها. لاحظت بيلا ذلك التَغيُّر المفاجئ فحاولت أن تتدخل بحكمة لإنقاذ الموقف، وقالت بلهجة ساخرة:

- لم يتهمك أحد على الإطلاق بالشعور بهذا الألم يا تريكس، لأننا نعلم جيدًا أن لا قلب لديك! بولي فتاة حساسة رقيقة تتعاطف دائمًا مع الأشخاص التعساء، أظنّ خطيبك توم أصبح أحدهم الآن!

في تلك الأثناء كانت الآنسة إيما دافين بورت تستمع إلى حديثهن بانتباه، قاطعتهن قائلة:

- في الواقع، يُحيرني كيف تتناول الكتب مشكلات الفقراء وأزماتهم، فنحن نتعاطف فقط مع ما نقرؤه في الكتب والروايات لكننا لا نبذل أي جهد حقيقي على أرض الواقع لمساعدتهم!

فردت بولي: أظن أن الدور الذي تؤديه الكتب يستحق تقديرًا كبيرًا، فهي تزودنا بالمعلومات عن تلك الطبقة وأبنائها، وتجعلنا نشعر بهم ونتعاطف معهم، ولا يوجد أي تناقض بين ما نقرؤه في صفحاتها وما نواجهه في الواقع.

- ولكن ما الذي نستطيع فعله نحن الفتيات الصغيرات؟ فنحن لا نملك المال الكافي الذي يُمكننا من مَد يد العون لهؤلاء الأشخاص، وحتى إن امتلكناه يومًا فلا نعرف الطريقة المناسبة لإنفاقه جيدًا، ولا نستطيع المخاطرة بالذهاب إلى

أماكن سيئة وقذرة للقاء أولئك المحتاجين.

- ربما تكون وسائل المساعدة الخيرية المثالية مناسبة للمجتمع الإنجليزي، لكنها لا تُناسبنا هنا. قالت فاني بعد أن فكرت طويلاً في ما قالته الفتيات الأخريات خلال جلسة الحياكة.

- لا أرى أننا نقدم ما يكفي من الخدمات، فهناك كثير مما يمكننا فعله. فأنا أعرف منزلاً أمريكيًا تحسن سيدته معاملة خدمها، وعلمت بناتها أن يفعلن نفس الشيء. فقد أعطتهم حقوقهم كلها كأنهم أصحاب المنزل! وسمحت لهم بالجلوس إلى الطاولة وتناول الطعام معهم، وأتاحت لهم وسائل التسلية في أوقات فراغهم. وبذلك شعر الخدم بالرضا والانتماء.

في تلك اللحظة التي توقفت فيها بولي عن الحديث، نظر الجميع إلى وجه إيما دافين بورت الذي احمر خجلاً، وأدركوا حينها أن بولي كانت تتحدث عن عائلة إيما.

سألت تريكس بنبرة ساخرة: هل أصبح جميع أفراد عائلة إيما قديسين؟

أجابتها بولي:

- لا، الأمر ليس كذلك، لكني أردت أن أُعطيكِ مثالاً حيًا لأشخاص يبذلون جهدهم لإسعاد الفقراء ومساعدتهم بكل الطرق المتاحة، فنحن كفتيات صغيرات نملك القدرة على

فعل ذلك، يمكننا مثلًا توفير تلك النفقات التي لا نحتاج إليها وإعطائها لهؤلاء الأشخاص، وباستطاعتنا الاستغناء عن شراء بعض التفاهات والمسائل الكمالية الزائدة عن الحد وإقراض هذا المال للخدم، فيها سوف يتمكنون من تأمين احتياجاتهم الأساسية.

قالت بيلا بحماس: بالطبع يمكننا ذلك!

قالت تريكسي مُتهكمة: أراهن أن حماس بيلا لن يستمر أسبوعًا!

- حسنًا يا عزيزتي لننتظر ونرَ.

- أراهن أن بيلا ستذهب في المستقبل إلى السجون لتقوم بحملات تبشيرية واعظة، ربما تتبنى أحد الأيتام الصِّغار، أو ربما تشارك في اجتماعات حقوق المرأة لمساعدة السيدات المقهورات!

قالت بيلا مبتسمة مُحاولةً إغاظتها: أوافقك الرأي، ربما سأفعل كل هذا معًا. مَن يعرف ماذَا يمكن أن يحدث؟!

- أظن أننا الآن بحاجة ماسة إلى سماع بعض الموسيقا، هل تستطيعين أن تعزفي لنا قليلًا يا بولي؟

قالت فاني: أجل، نتوسل إليكِ يا بولي.

قالت بولي: حسنًا يمكنني ذلك بكل سرور. تقدمت بضع خطوات نحو آلة البيانو، ونظرات

الآنسة تريكس تُلاحقها أينما ذهبت.

غنت بولي بعذوبَة بالغة إحدى الأغنيات القديمة الحزينة، فمع أنها لم تكن تميل إلى هذا النوع من الأغنيات فإنها اختارتها تحديدًا لأنها شعرت أن كلماتها تنطبق على جيني المسكينة، الفتاة اليتيمة الفقيرة التي ترقد طريحة الفراش في منزل السيدة ميلز. شعرت كأنها تتحدث عنها أمام كل هذا الجمع من بنات الطبقة الأرستقراطية الراقية اللواتي كن يجهلن تمامًا ما يعنيه الغناء في تلك اللحظة.

بعد أن أنهت الغناء، تحدثت عن جيني:

- إن تلك الأغنية الحزينة تذكرني بفتاة يتيمة فقيرة أصغر سنًا منا، حاولت إلحاق الأذى بنفسها مؤخرًا بسبب ظروف مرضها وفقرها.

قالت بيلا: هل من الممكن أن تحدثينا عنها؟

مهدت الأغنية الطريق لسرد القصة، ومنحتها شجاعة الإقدام على ذلك. أدت بولي مهمتها جيدًا إذ توقف الفتيات عن العمل وشرعن في الإصغاء لها باهتمام وفضول ثم دخلن في نوبة من البكاء. نهضت كل واحدة منهن ووضعت مبلغًا من المال أمام بولي، منحتها إيما قطعة من الحلي بدلًا من المال وقالت إنها لا تملك أي نقود في الوقت الراهن لكنها تريد حقًا مساعدة تلك الفتاة المسكينة.

وجهت لهن بولي عبارات الشكر الصادقة،

وقالت بصوت مُحتقن إنها تؤمن بأن تلك المساعدات ستُشكل فارقًا حقيقيًا في حياة جيني.

قالت الآنسة تريكس: يمكنني استضافتها في منزلي أيضًا إن كانت لا تملك منزلًا.

- إنها تملك منزلًا بالفعل فقد منحتها السيدة ميلز غرفة خاصة بها، وهي تعاملها كابنتها.

قالت بيلا: يا لها من امرأة طيبة!

قالت إيما: أريد أن أتعرف إليها.

- يسعدني حقًا أن أتيح لكن فرصة التعرف إليها، فهي سيدة طيبة جدًا تساعد الآخرين عندما يحتاجون إلى مساعدة.

- أخبرينا أكثر عن تلك السيدة.

شرعت بولي في التحدث عن السيدة ميلز العجوز وسرد حكاياتها الخيرية وأنها تمد يد العون لجميع الغرباء في البلدة، وتمنح المحتاجين غرفًا مجانية في منزلها، وتقدم التضحيات من أجل الآخرين. استمرت الحال على هذا المنوال حتى استطاعت بولي كسب ثقة صديقاتها، ومع أن معظمهن نسين تمامًا ذلك الأمر وفقدن شغفهن في الأسبوع التالي، فإن إيما وفاني وبيلا التزمن بصداقة الفتاة جيني المسكينة وحرصن على مساعدتها ماديًا قدر استطاعتهن.

كأن الكون أرسل إليها مكافأة تعويضية لقاء هذا الدور الذي لعبته فيما يتعلق بقصة جيني

المسكينة، فبعد أن غادرها طُلابها فجأة دون مقدمات، استقبلت مجموعة من الطلاب يتوقون إلى تعلّم الموسيقى منها. إنهم أبناء عائلات ثرية سمعت بصوتها العذب وموهبتها الموسيقية الفذة، فأوصت بها، وطلبت منها أن تكون معلمة لأولادها في هذا الفن الجميل.

وهكذا استعادت بولي ثقتها بنفسها وأملها في الحياة، وحصلت على وظيفة مرموقة تعينها على المُضي قُدُمًا في تلك الحياة.

الفصل الثاني عشر

في صباح اليوم التالي وقفت بولي أمام نافذتها متأملة أشعة الشمس الساطعة المحيطة بها، وقالت:

- عليّ أن أخرج من هذا الروتين المُمل إلى مكان ما وأستمتع بحياتي. لا أستطيع مواصلة العمل بهذه الطريقة المضنية. أحتاج إلى استراحة لأستعيد نشاطي وتحسين صحتي بعد الإرهاق الذي تعرضت له. سأذهب إلى الأوبرا. أعرف أنها غالية الثمن لكنها تستحق ذلك. فالموسيقا تعالج روحي. وربما أرسل تذكرة لأخي ويل عسى يخفف عن نفسه أيضًا.

ذهبت بولي إلى طابورٍ مُزدحم أمام قاعة الأوبرا، حاولت جاهدةً الحصول على تذكرتين، كان الزحام شديدًا، وموظف التذاكر يرسم على وجهه ذلك التعبير الذي يوحي أنه ما من أمل يلوح في الأفق. تذكرت بولي أن عليها تدريس مود الموسيقى، فانطلقت إلى منزل عائلة شو وهي مُكتئبة. لم تكن تشعر بالرغبة في شرح الموسيقى اليوم. كل ما ترغب فيه هو الراحة والمتعة. لحسن الحظ انضمت إليها فاني وهتفت:

- هل ترغبين في الذهاب معنا؟

- إلى أين؟ لم أذهب إلى المنزل لتناول العشاء الليلة.

سألتها فاني: ألم تصلكِ رسالتي؟! دعانا توم إلى

الذهاب إلى الأوبرا الليلة...

- واو.. فرحت بولي كثيرًا وشبكت يديها متحمسة ثم تابعت: لنذهب إلى هناك بالطبع! في الواقع إنني أتحرق شوقًا إلى زيارة الأوبرا حتى أني حاولتِ الذهاب لحجز التذاكر، لكن الزحام كان شديدًا فلم أتمكن من إنجاز من إتمام الحجز بأي وسيلة.

- هذا رائع! عليكِ أن تشاركينا حفلة الشاي أولًا ثم سنذهب معًا إلى الأوبرا برفقة توم.

- حسنًا ولكن عليّ أولًا الذهاب إلى المنزل لإحضار أشيائي.

- يمكنكِ ارتداء ثوبي الأبيض يا بولي، أعتقد أنه سيُناسبكِ كثيرًا وأخي توم يحبه.

ارتبكت بولي لحظة سماعها هذه الكلمات المفاجئة، فهي لا تود أن تغير من ذاتها أو أن تلبس ثياب فتاة أخرى لتحظى بإعجابِ أحدهم. فكل ما تفكر فيه أن ترتدي ما يلائمها وما يعبر عن شخصيتها الداخلية، فتلك الأزياء الفاخرة باهظة الثمن التي تتبع موضة العصر تخالف روحها الكلاسيكية جدًا. بدا الامتعاض جليًا على ملامحها، وهي لا ترغب في الظهور كأنها فتاة بسيطة جدًا إلى الحد الذي يُفقدها القدرة على التصرف في المواقف المختلفة بحكمة. انسحبت إلى الوراء قليلًا لتفكر في نوعية الثوب الذي ستلبسه

في تلك السيرة فأي ثوب يُلائمها شرط ألا يبدو مبهرجًا متكلفًا لافتًا للنظر.

ظلت بولي على هذه الحال مدة طويلة كأنها تتخذ قرارها الأكبر على الإطلاق، ثم هتفت:

- حسنًا سأفعل ما يجب، ربما أشتري ثوبًا جديدًا، ربما يكلفني ذلك مبلغًا كبيرًا، لكني سأتخلى عن بعض الأشياء التي كنت أحرص على شرائها في السابق. يمكنني أن أقتصر على بعض الوجبات المحدودة في طعامي، وأن أبتعد تمامًا عن هدر المال بضعة أسابيع قادمة. على أي حال سأبذل جهدي لفعل ذلك، فأنا أعرف جيدًا أن توم يهتم بمظهر أي فتاة ترافقه إلى تلك الحفلات الرسمية، ولا يمكنني أبدًا أن أجعله يشعر بالخجل لاصطحابه لي الليلة.

ارتدت بولي ثوبها الأبيض الذي ضحت من أجله كثيرًا، وزينت خصلات شعرها بقبعة صغيرة جميلة، ثم تقدمت بخطوات واثقة نحو توم المتأنق الذي كان يقف في انتظارها ويغمرها بنظرات الإعجاب الواضحة التي أحرجتها فكادت تتعثر، ركض كلب مود الصغير إلى جوارها بسرعة بالغة وخطف قبعتها ثم اختفى ذاهبًا إلى القاعة الرئيسة، فيما ركضت الفتاة الصغيرة خلفه.

هتفت بولي صائحةً في ذُعر: أوه! قبعتي!

قال توم: ما الأمر؟

- لقد خطف الكلب قبعتي! هل يمكنك اللحاق به وإحضارها؟

- أجل، بالطبع. لا داعي للقلق.

ركض توم خلف الكلب، وعندما عاد سألته بولي:

- هل تريكس مريضة؟

- لا، سافرت إلى مدينة نيويورك مدة أسبوع.

- حقًا؟ إذا غاب القط لَعِب الفأر!

قال توم مازحًا: أجل، تقريبًا.

عاد الكلب الصغير المُشاكس مرةً أخرى ثم خطف قبعتها مُجددًا، وفي هذه المرة أخذ الوشاح الأبيض الرقيق أيضًا وأخفاه بعيدًا ثم ركض بكل ما أوتي من قوة. وقفت بولي جامدةً في مكانها كأن أطرافها يبست من شدة المفاجأة. جرى توم خلف الكلب ليرد إليها ما أخذه.

أمسك توم بالقبعة ولوح بها نحو بولي.

قالت بولي بأنفاسٍ لاهثة: شكرًا لك!

- هل هناك شيءٌ آخر؟

- أجل، لقد سرق وشاحي أيضًا!

- حسنًا، سأحضره لكِ على الفور.

أمسك توم بالوشاح ثم أعاده إليها بعد أن أطال النظر إليه.

قالت بولي في تردد: أظن أن لونه فاقع جدًا،

أليس كذلك؟

قال توم مُبتسمًا: ليس كثيرًا، أعتقد أن لونه مُناسِب للحفلة المسائية.

قالت بولي ساخرةً: من فضلك لا تنظر إليّ وأنا أرتدي القبعة، أحاول أن أتصرف بعقلانية. من فضلك لا تحاول إضحاكي. أشعر أني أتصرف بجنون هذه الليلة.

قال توم هامسًا: إنكِ تبدين أكثر الفتيات جمالًا هذه الليلة يا بولي.

سمعت بولي تلك الكلمات باهتمام بالغ. فها هو ذا الفتى الوسيم يتغزل بها فيما يجتمع الأصدقاء هناك في الطابق العلوي لاحتساء الشاي معًا. ألقت بولي نظرة خاطفة على المرآة المقابلة لها لتطمئن أن كل شيء على ما يرام، ثم توجهت إلى المرحاض، وهناك التقت فاني التي كانت تضع بعض مساحيق التجميل على وجهها، رتبت بولي مظهرها وغيرت تسريحة شعرها، حلّت جدائلها وأطلقتها لتبدو أكثر عصرية.

جاءت مود الصغيرة برفقة توم نحوها، ثم قالت مود بصوت فرح:

- أوه! ألا تبدو بولي كعروس جميلة يا توم؟

- أجل، إنها كذلك. ثم انحنى أمامها وقال:

- تهانينا يا سيدة ستيفني!

صرخت بولي وقد توردت وجنتاها: ما هذا؟

كيف تجرؤ على قول ذلك؟ هيا اذهب من هنا الآن!

قالت فاني: إذا كنا نرغب حقًا في الذهاب إلى حفل الأوبرا الليلة، علينا إذًا الإسراع فالعربة تنتظرنا في الخارج منذ مدة، ثم تأهبت لمغادرة الغرفة على الفور.

سألها توم: أتعجبك هذه الأجواء يا بولي؟

- أجل تعجبني كثيرًا.

- أخبريني يا بولي لماذا جئتِ إلى هنا الليلة؟

- لأني أحب الموسيقا، لا حيلة لي في ذلك.

- ألم تأتِ إلى هنا من أجل السيد ستيفني؟

- نعم، لم آت من أجله.

- أعتقد أنه يجدر بكِ التفكير في الأمر.

- سأحاول.

كادت بولي تسقط في أثناء نزولها من العربة بسبب ارتباكها الشديد فهي تبدو كسندريلا. هي تفكر في توم وهو يحاول إغاظتها بحديثه عن السيد ستيفني من حينٍ إلى آخر. كادت تسقط لولا أن توم مدّ لها يده محاولًا إخفاء ضحكاته.

لا يمكن إنكار ذلك الدور اللافت للانتباه الذي لعبه ثوب بولي خلال سهرة الأوبرا، فقد جذب أنظار السيد ستيفني الوسيم ونال إعجاب توم والسيد فرانك أيضًا. نظر إليها الجميع بوله

وافتتان كأن لا فتاة أخرى في الحفل سواها، مع أنها لم تكن أجمل فتاة ولا ثوبها أفضل ثوب على الإطلاق، لكن ثمة شيء كان يجذب الجميع نحوها، ذلك المزيج المُدهش من الحكمة والرصانة والأنوثة البسيطة جعلها محط اهتمام الجميع. تقبلت بولي تلك الحقيقة للمرة الأولى، وشعرت أن إحساسها بالتواضع لا يتعارض أبدًا مع استمتاعها بتلك الخصلة بصدق.

أحست الفتاة الريفية البسيطة بالإثارة. أهي حقًا تختبر شعورها الأول بالثقة؟ ها هي ذي ترى أعين الآخرين تغازلها وتُحاصرها في إصرار لا يرحم. ها هي ذي تتمهل قليلًا لتدرس خطواتها قبل المُضي على عجل. كان توم ينظر إليها نظرة عاشق متيم، فلم يرها بهذه الطلة من قبل، وكان السيد ستيفني الذي كان محط أنظار الفتيات في كل مكان يتأملها بنظرة حب لا تخفى على أحد.

كان السيد ستيفني مُعجبًا ببولي منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عينه عليها، إلا أنه لم يدرك أنه وقع في غرامها إلا في تلك الليلة، فقبل ذلك كان يشعر بفضول شديد بشأنها. كان يريد أن يعرف أخبارها ويشعر بلذة غامضة عند حديثه معها، لكنه لم يكن يتوقع أن يصل الأمر إلى مرحلة الحب! فاهتمامه بأهدافها المهنية والشخصية لم يكن سببًا كافيًا لأن يقع في حبها.

لم تدرك بولي ما يحدث حولها جيدًا، كانت

تشعر أنها محبوبة ومقدرة من الجميع، ربما لأنها فتاة مرحة مبتهجة تحب مساعدة الآخرين وتقديم العون لمن يحتاجون إليه، وربما لأنها تحب سماع الموسيقا وتفهمها وتشعر كأنها تجري في عروقها بلطف، وربما أيضًا لأنها تملك وجهًا جميلًا يافعًا يفيض بالأنوثة والبراءة. كانت تستمتع بكل هذه الأشياء، لكنها لم تفهم المشاعر جيدًا. فجأة اجتاحها شعور بالاضطراب والارتباك، بعد أن كانت تعيش في سلام تام.

قال توم متأملًا عينيها: من فضلك لا تُغلقي عينيك يا بولي. أرغب في النظر إليك مدة أطول. أشعر أني أراها لأول مرة في حياتي.

قالت بولي بعد أن فتحت عينيها التي كانت تُغلقها لإخفاء دموعها: لا أريد أن أبدو عاطفية جدًا لكن الموسيقا تبدو كأنها تروي قصة درامية بالتفصيل، ما يجعلني أنسجم معها وأحاول جاهدة السيطرة على مشاعري.

- لا يمكنني القول إنني أتأثر بالمسرحيات الغنائية مثلك، لكنها أيضًا تترك أثرها في نفسي فأنا أبدو في بعض الأحيان عديم المشاعر.

ابتسمت بولي وقالت:

- إنك تبدو كذلك في معظم الأحيان يا توم، ولكن أيضًا دعنا نُفصح عن الحقيقة ليس الرجال وحدهم من يتمتعون بتلك الصفة، فهناك كثير من

النساء اللواتي يرتدين الأقنعة.

ابتسم توم وقال:

- لكني لا أظن أنكِ من ذلك النوع الذي يرتدي الأقنعة يا بولي. فأنتِ تبدين امرأة صريحة وواضحة.

- جميع الفتيات يضعن أقنعة وقت الضرورة يا توم.

- لكني أراهن أنك لستِ من ذلك النوع، فهذا يبدو جليًا عليك، فأنتِ تتصرفين دائمًا على سجيتك بشكلٍ عفوي تلقائي لا تكلُّف فيه.

أمسك توم بذراع بولي وتجولا في صالة العرض الموسيقي، حتى رأت بولي فتاة جميلة ترتدي ثوبًا باهظًا، ربما كان الثوب الأجمل على الإطلاق.

همس توم في أذنها:

مكتبة ياسمين

- أتعرفين تلك الفتاة؟

t.me/yasmeenbook

- لا، لا أعرفها.

- إنها كلارا بيرد. كانت تُحب شقيق بيلا كثيرًا لكنه اضطر إلى السفر إلى الخارج للعمل وتركها، ثم تزوجت من رجل آخر يكبرها باثني عشر عامًا!

- لهذا السبب تبدو حزينة!

- حقًا! لم أنتبه.

- أجل، لا يمكن لأحد أن يخطئ في قراءة لمحة الحزن المرتسمة على وجهها إلا لو كان أعمى!

قال توم مازحًا: ولكني لست أعمى، ومع ذلك لا أرى نظرة الحزن التي تشيرين إليها!

قالت بولي مُتهكمة: كان هذا متوقعًا منذ البداية يا سيدي!

- أمازحك يا بولي، أعرف جيدًا ما ترمين إليه، ولكن انظري حولك هناك نساء كثيرات تحتل تلك النظرة وجوههن!

- إنها نظرة فتاة متعبة!

- تُرى ما السبب؟

- ربما يكون ذلك بسبب قصص شقائهن وبؤسهن يا عزيزي توم! ربما يكون ذلك بسبب حكاياتهن الخاصة!

- أوه! أظن أنكِ تحبين قراءة الروايات الفرنسية يا آنسة بولي!

- كلا، أقرؤها فحسب لتحسين لغتي الفرنسية.

- ولكن ما تقولينه لا يبدو منطقيًا بالنسبة إليّ، أرى أنها نظرة عادية جدًا.

قالت بولي متحدية توم: ربما لأنك لا تملك موهبة قراءة أعين البشر!

- أتعرفين شيئًا، هناك أمر ما يسعدني بشدة.

- ما هو؟ أنك لا تُجيد قراءة الوجوه؟

- لا. أنا سعيد لأني تمكنت أخيرًا من قراءة وجهكِ.

سألته بولي في دهشة: ماذا تقصد؟ وضع أمامها مرآة وطلب منها أن تنظر إلى وجهها لتفهم مقصده.

نظرت بولي إلى المرآة فرأت السعادة تغمر وجهها الجميل الذي كان مسترخيًا ومشرقًا.

أدركت في تلك اللحظة أنها سعيدة! فهمت ما كان يرمي إليه توم في حديثه منذ قليل، ليست كل أنثى تضع نظرة حزينة وبائسة كقناع دائم يخفي وجهها، فهي على سبيل المثال تبتسم وتنظر إلى كل شيء حولها بفرح وسرور. تبتهج من الداخل وتشعر بأنها ملكة على عرش هذه المناسبة.

بدأت موسيقا الرقص. استعد الحضور للرقص. في تلك اللحظة همس توم في أذن بولي:

- هل أنتِ جاهزة يا بولي؟

قالت بولي بنبرة ساخرة: حسنًا أيها الولد الشقي ولكن إياك والسخرية مني في أثناء الرقص، ولا تحاول أيضًا الاستهزاء بي أمام الآخرين، اتفقنا؟ فهذا كل ما يهم خلال تلك المدة الزمنية القصيرة.

انزعج توم قليلًا لأنه عقد في ذهنه مقارنة صغيرة بين طريقة معاملتها له وطريقة معاملتها للسيد ستيفني، وأزعجه أن تقول له «أيها الولد الشقي» فهو لم يعد ولدًا بل رجلًا في الحادية والعشرين

من العمر، ولا يليق أن تعامله بتلك الطريقة.

صدحت الموسيقا في أرجاء الأوبرا، اقتربت بولي من توم لتبدأ الرقصة، أسرعت فاني نحو أخيها وقالت له:

- هل فكرت في رأي تريكس؟

سألها توم: ماذا تقصدين؟

- أتحدث عن رقصتك مع بولي!

- لا أعرف، ولا تهمني المسألة برمتها، على أي حال لا داعي للقلق. إنها بولي لذا لا داعي للخوف!

- لكن خطيبتك لا تحب بولي!

- لا يهمني ذلك، فكل ما أرغب فيه أن أستمتع بوقتي بالطريقة التي أفضلها.

- أعتقد أنك لن تستمتع بوقتك لاحقًا ما لم تنتبه إلى مشاعر خطيبتك!

- على أي حال إنها بولي فحسب. قلت لك لا داعي للقلق.

- أنا أُحدثك لصالحك فحسب!

قال توم: لا تقلقي بشأني، فأنا أسمع المحاضرات الأخلاقية والخطب الواعظة طيلة الوقت، ثم هتف:

- هيا يا بولي!

أمسكت بولي بذراعه، وقلبها يغلي غضبًا وألمًا

تأثرًا بتلك العبارة التي قالها توم منذ قليل:

- إنها بولي فقط! لا داعي للقلق!

كأنها ليست ذات قيمة، كأنها لا تملك أي مشاعر، وأن الشيء الوحيد الذي عليها فعله هو إمتاع الآخرين وتسليتهم قدر المستطاع. قالت لنفسها:

- لا بدّ أن أُثبت لتوم وشقيقته أني لست كذلك، يجدر بي أن أخبرهم أني فتاة ذكية قوية.

ثم سألت نفسها بصوت هامس:

- حسنًا، ولماذا لا أستمتع أنا الأخرى بتلك الرفقة دون أن أضع آمالًا كبيرة؟ لماذا لا أعامل توم مثلما يعاملني فقط، لذا لا داعي للقلق!

سألها توم مُنحنيًا نحوها قليلًا: هل أنتِ بخير يا بولي؟

- أجل، أنا فقط مُتعَبة من كوني لا أحد!

قال توم بنبرة دافئة فقد كان مُغرمًا بالفتاة فعلًا: لكنكِ لستِ كذلك فأنتِ بولي! ولقد بذلت كل ما في وسعكِ لتكوني بتلك الشخصية التي أنتِ عليها الآن!

قالت بولي وقد أشرق وجهها قليلًا: في الحقيقة أنا سعيدة جدًا لأنك تنظر إليّ بهذه الطريقة، من الجيد أن يُعجب بي أحد مثلك على أي حال.

- إنني مُعجب بكِ منذ البداية يا بولي، منذ أول

مرة التقيتكِ فيها.

- لكنك كنت تغيظني دائمًا، أليس كذلك؟

- أشعر بالندم على ذلك.

سألها توم: هل تسامحيني على ما فعلته يا بولي؟، لكنها لم ترد لذا كرر سؤاله عليها مرةً أخرى.

- حسنًا، أسامحك.

- لن أفعل ذلك مُجَددًا.

قالت بولي مازحةً: بالطبع لن تفعل. ثم ألقت نظرة خاطفة على السيد ستيفني الذي كان يجلس أمام فاني.

- هل ما زلتِ تذكرين ذلك اليوم الذي ركبت فيه القطار برفقتكِ، وكنت تتأرجحين بشكلٍ مضحك حتى سقطت قبعتكِ وقفازاتكِ؟ قال توم ثم دخل في نوبة ضحك.

ضحكت بولي أيضًا ولم تتمالك نفسها، ثم مضت برفقته إلى العربة مرة أخرى وتوجها إلى المنزل لتناول العشاء.

استمتعت بولي بتلك الليلة المفعمة بالمرح. لقد أرادت الانغماس في تلك الأحداث من رأسها حتى أخمص قدميها قبل أن تعود إلى حياتها الشاقة السابقة، كأنها تقف على مشارف عالم جديد ولا تعرف هل تطرق أبوابه أم تعود بخُطى سريعة إلى عالمها القديم.

قالت بولي: في الواقع لقد أمضيت وقتًا رائعًا جدًا، أود أن أشكركم على كل ما قدمتموه لي. ثم تمنت لهم قضاء ليلة سعيدة.

قال توم وهو يودعها: حسنًا، ربما تستطيعين الحضور إلى هنا غدًا لقضاء ليلة أخرى سعيدة إذا أردتِ.

- لا يسعني فعل ذلك إلا بعد مدة طويلة يا عزيزي، فقد تفسدني هذه السعادة الزائدة.

قال توم بصوت مسرحي عريض: لا يمكنني تصديق ذلك. ليلتك سعيدة يا آنسة ميلتون تمامًا كما يناديكِ السيد ستيفني. أتمنى لكِ نومًا هانئًا خاليًا من الأحلام المزعجة. اطمئني أيضًا لن أزعجكِ مجددًا.

انتهت الليلة سريعًا ومضت الفتاة الريفية إلى غرفتها، ومع أنها كانت ليلة ممتعة فإن بولي لم تستطع الاستمتاع بسهرتها فقد شعرت أن وجودها هناك بضع ساعات تسبب في إرباك المشهد قليلًا، فمنذ تلك الليلة ضعفت صداقتها مع فاني، ولاحظت اهتمام توم الشديد بها وعدم رضاه عن خطيبته تريكس، وشعرت بالانزعاج من طريقة معاملة السيد ستيفني لها الذي شرع يبني قصورًا في الهواء دون جدوى.

الفصل الثالث عشر

قالت فاني بحماسة: لقد ربحت الرهان يا توم!

- عن أي رهان تتحدثين؟

- ألا تتذكر منذ ثلاثة أشهر عندما أكدت لي أن بولي لن تستمر طويلًا في مهنة تدريس الموسيقا، وأنها ستتوقف عن ممارستها بعد شهر أو شهرين؟ لقد مضى الآن ثلاثة أشهر ولم تتركها، بل إنها تزداد تعلقًا بها يومًا بعد يوم!

- حقًا؟

- أجل، إنها تواصل عملها دون كَلل أو مَلل، وعلى هذا عليك أن تدفع لي مبلغًا من المال يا توم!

- حسنًا، لا بأس، كم تريدين؟

- أريد ثمن القفازات، فكلما فاتحت أبي في هذا الشأن ضاق ذرعًا واشتد غضبه، تلك حالته دائمًا كلما حدّثه أحد عن المال.

قال توم بلهجة جادة: ولكن يبدو أن بولي لم تعد تزورك مثل السابق.

- أجل، لقد كوّنت صداقات جديدة مع بعض العجائز والفتيات اللواتي يعملن في مجال الحياكة وغيرها. إنني أفتقدها حقًا، أظنّ أنها قد تزورني قريبًا.

- هل أنتِ واثقة من ذلك يا آنستي؟ قال توم بلهجةٍ متشككة أثارت قلق فاني فاستدارت

وسألته:

- ماذا تقصد؟

- أقصد ألم تلاحظي أن بولي قد كونت صداقة جديدة مع السيد ستيفني؟ لقد أصبحت أكثر سعادة وابتهاجًا من ذي قبل!

قالت فاني: هذا هراء لا أساس له من الصحة.

ردّ توم بنبرةٍ باردة: أتمنى أن يكون الأمر كذلك حقًا.

- ما الذي جعلك تفكر في هذا الأمر؟

- في الحقيقة، ما زلت ألتقي بولي والسيد ستيفني وهما يسيران معًا ويلتمسان فرصة لقضاء بعض الوقت معًا. لست متأكدًا إن كانت شخصية الرجل أعجبت بولي أو أنه وقع في غرامها بهذه السرعة؟ لذا كنت أسألك إن كنتِ لاحظتِ شيئًا.

- نعم، لاحظت ذلك.

بدت الدهشة جليةً على ملامح توم الذي تجمد في مكانه من المفاجأة لبرهة، ثم تأمل وجه شقيقته المسكينة الذي شحب فجأة، ثم سمعها تهمس:

- يبدو أننا في مأزق يا فاني!

- أتظن أن تلك العلاقة قد تكون أمرًا جيدًا؟

- أجل بالنسبة إلى ستيفني.

- وبولي؟ في كل الأحوال، ستيفني شاب وسيم

وجذاب وثري وذكي جدًا، فما الذي تريده أي فتاة أكثر من ذلك؟

- لا أعرف لكني لا أراهما مُلائمين بعضهما لبعض.

- لا تكن أحمق يا توم. إن بولي من الفتيات اللواتي يتزوجن أحد الرجال الصالحين في المجتمع، فهي تعد نفسها لتكون ربة منزل صالحة، لكن لا يليق بها أبدًا أن تصبح سيدة مجتمع راقية. أعتقد أن هذا لا يناسبها.

قال توم: هذا جيد، أتمنى أن تُحقق ما تريده بالضبط. ثم نظر إلى أخته في تعاطفٍ واضح.

قالت فاني: على أي حال سيكشف لنا الزمن تباعًا.

ثم استدارت مودعةً شقيقها الذي كان يتأهب لركوب الحصان. فقالت له: لا تخطئ في ركوبك يا توم!

قال متمنيًا لها قضاء ليلة سعيدة: حسنًا يا عزيزتي، كوني بخير.

كانت فاني تُدندن أغنيتها المفضلة بعد أن غادر شقيقها توم المكان، لكنها توقفت فجأة بعد أن سيطرت عليها بعد الأفكار الكئيبة فجأة لتشغلها، ثم قالت:

- حسنًا، لا يمكنني أن أفعل أي شيء سوى الانتظار فحسب. لكن هناك شيء أستطيع

فعله، اليوم عطلة بولي ويمكنني الذهاب إليها ورؤيتها، فإن كان بينها وبين السيد ستيفني شيء، فسأعرفه.

وضعت فاني وجهها بين يديها وارتعش بدنها قليلاً وجرجرت قدميها في خنوع بوجه شاحب وقلب مرهق لزيارة بولي وإتمام تلك المهمة الثقيلة جداً.

كانت بولي تنظف غرفتها الصغيرة كعادتها كل أسبوع. ارتدت ثوب النظافة وأخذت منديلاً ووضعته على رأسها. ثم وضعت بعض اللمسات النهائية لتصبح غرفتها مرتبة ونظيفة وفتحت النافذة لإدخال الهواء النقي.

قالت بولي بسرعة شديدة وهي تنهي أعمالها: كم أنا سعيدة بقدومك اليوم يا فاني! هل كل شيء على ما يرام؟ كيف حال أمك ومود الصغيرة؟ هيا اخلعي حذاءك واجلسي. أوه! هل ترتدين قبعة جديدة؟ تبدو رائعة.

رحبت بولي بفاني مبتسمة، لكن فاني لم تستطع مجاراتها فقد كانت تشعر بأن قلبها ثقيل من الداخل.

قالت فاني مُحدقةً في عيني بولي: جئت إلى هنا لأطمئن عليك، لم تخبريني عن أحوالك مؤخرًا. كنت قلقة عليك.

قالت بولي: في الواقع كنت مشغولة جدًا، ولم

أُخبرك لأني أعلم جيدًا أنكِ لا تهتمين بالأشياء التي أنجزها هذه الأيام.

قالت فاني بنبرة مُتهكمة تُخفي قلقها البالغ: لكن ما أعرفه أن الدّروس الموسيقية لا تأخذ وقتكِ كله، يبدو أنكِ تمضين ساعاتكِ المُتبقية في شيءٍ آخر يا آنستي.

- أجل، أنتِ مُحقة.

سألتها فاني بجدية: فيمَ تمضين وقتكِ إذًا؟

تورد وجه بولي وأجابتها:

- في الصداقة والأعمال الخيرية

- حقًا؟ هل يمكن أن أعرف مَن هو مُعلمكِ؟

- لديّ أكثر من معلم، ولكن السيدة ميلز هي معلمتي الأساسية.

- حسنًا، ربما توجهك السيدة ميلز في الأعمال الخيرية ولكن مَن يمنحك دروس الصداقة؟

صاحت بولي مبتسمة ابتسامة دافئة تمتزج بالحماس: عدة فتيات طيبات رائعات! أعتقد أنه يجدر بكِ التعرف إليهن يا عزيزتي فاني، فهن فتيات مدهشات حقًا مفعمات بالطاقة والحيوية.

سألتها فاني بنظرةٍ فضولية مليئة الإحباط: هل هذا كل شيء؟

قالت بولي: كما قلت لكِ يا فاني أعلم جيدًا أن تلك الأنشطة والأعمال التي أفعلها لا تبدو مُثيرة

مُمتعة مثل أعمالك ومغامراتكِ المدهشة، لذا دعينا نغير الموضوع الآن.

سألتها فاني وهي تُحدق في باقة زهور مُرَتّبة بأناقة على الطاولة: أخبريني يا عزيزتي مَن أرسل لكِ باقة الزهور الجميلة هذه؟

قالت بولي وعيناها تتألقان بالفخرِ والحب: إنه يُرسلها لي كل أسبوع تقريبًا، فهو يعرف جيدًا أني أحب الزهور.

قالت فاني: أوه! لم يكن لديّ أي فكرة أنه مُتَيم بكِ إلى هذا الحَد! ثم وقفت أمام باقة الزهور في جمود محاولة قراءة تلك البطاقة الصغيرة المُرفقة معها.

قالت بولي بسرعة: في الواقع أنا لا أتحدث كثيرًا عما يُقدمه شقيقي من أجلي لكنه دائمًا يحاول أن يبذل قصارى جهده لإسعادي خصوصًا بعد رحيل شقيقي جيمي، حاول ويل بكل الطرق تعويضي عما حدث لكني لا أتكلم عن ذلك كثيرًا أمام الآخرين، فقد يبدو الأمر في نظرهم سخيفًا جدًا.

- ويل! هل تتحدثين عن شقيقك ويل؟

- أجل. هل كنتِ تعتقدين أن شخصًا آخر هو مَن أرسل الزهور؟

قالت فاني: ظننت أن أحد المغرمين بكِ أرسلها إليكِ، على أي حال تبدو رائعة، ثم ارتبكت قليلًا

وأضافت:

- إن رأسي يؤلمني منذ الصباح. لا أفكر جيدًا في أغلب الأمور. أعتذر إليكِ يا بولي، فكما تعلمين أشعر بكامل المسؤولية تجاهكِ، أخبرت أمك بهذا منذ أن مكثتِ برفقتنا في المنزل خلال العطلة السابقة لذا أردت أن أطمئن عليكِ فحسب.

ضحكت فاني على استحياء ثم تقدمت في تَرَدد بِضع خطوات إلى الأمام عائدةً إلى أريكتها متسائلةً إن كانت بولي قد أخبرتها بالحقيقة أم كذبت عليها للتو؟

نظرت بولي إلى تلك البطاقة الصغيرة المُرفقة مع باقة الزهور واستطاعت بسرعة تخمين أفكار صديقتها فاني لذا قالت على الفور:

- هل كنتِ تظنين أن السيد ستيفني هو مَن أرسل باقة الزهور؟ حسنًا، يمكنني إخبارك أنكِ مُخطئة كُليًا يا عزيزتي، وفي المرة المقبلة إذا أردتِ معرفة شيءٍ ما حول هذا الموضوع أنصحكِ أن تطرحي عليَّ سؤالكِ مباشرة بدلًا من استخدام تلك الطريقة.

- من فضلك يا عزيزتي لا تغضبي، فالمسألة أن توم هو مَن أخبرني بذلك، وكان خطئي كله أني صدقت حماقاته!

- توم! وما علاقة توم بشؤوني العاطفية؟

- لقد شاهدكما معًا في أحد الشوارع الرئيسة فيما

كان يمتطي حصانه، وظن أن هناك شيئًا ما يربط بينكما.

- أنا مُمتنة جدًا لاهتمامه لكن ما يقوله لا أساس له من الصحة.

تبدلت ملامح وجه فاني بعد أن رأت علامات الغضب تحتل وجه بولي وكادت تبكي؛ ما جعل بولي تخفف حنقها وتتعاطف معها على الفور.

تساءلت بولي:

- تُرى، هل كانت تلك المشكلة هي ما تُعذب فاني طيلة الشتاء الماضي؟ أهذا كانت تتصرف معي بغرابة شديدة؟ يا لها من مسكينة حقًا!

اقتربت بولي من صديقتها مُحاولة التخفيف عنها بشدة، فعلى الرغم من أن فاني قد اتخذت من صداع الرأس ذريعة لتبرير تصرفاتها الانفعالية فإن بولي شعرت أن ما يجعلها تتصرف هكذا يعرف بألم القلب.

قالت فاني ثم جففت دمعاتها وضحكت: أعتقد أنني بحاجة إلى البكاء لمدة أطول، ربما حينها سأشعر بالراحة على الفور، لا تقلقي بشأني يا بولي، أنا فقط عصبية قليلًا بسبب إصابتي بعسر الهضم، سأكون بخير.

- أتفهم ذلك بالطبع يا عزيزتي، فأنتِ بحاجة إلى الراحة والاسترخاء وما يؤلمني أنني كنت أوبخك الآن بدلًا من أن أكون أكثر رقة معكِ، هل

هناك شيء يمكنني تقديمه لك؟

سألتها فاني بصوت مُرتعش: تحدثي إليّ يا بولي، أخبريني كيف أتغلب على القلق الذي يملأ عالمي؟ ما و السر؟

- لقد تعلمت أن أرى الجانب المُشرق للأشياء حولي، وهذا ساعدني كثيرًا، لا تعرفين كم تشعرين بالهناء الذي يغمر روحك عندما تنظرين إلى الأمور بهذه الطريقة. كان عالمي ينهار قبل ذلك، وشعرت أني أفقد السيطرة عليه، وكان القلق يحاصرني، لكنني استطعت أن أسيطر على كل شيء بعد أن اتبعت تلك الاستراتيجية، حاولت أن أبحث عن الأشياء الجميلة حولي قدر الإمكان.

قالت فاني: لست متأكدة من قدرتي على فعل ذلك.

- يمكنكِ دائمًا أن تتعلمي كيف تفعلين ذلك، تقول السيدة ميلز على المرء الخروج من مشكلاته ليقف على قدميها، حينها فقط يمكنه أن يجد حلولًا مختلفة.

قالت فاني: ولكن كل شيء من حولي يبدو خانقًا ومخيفًا.

- ما الشيء الذي يُقلقكِ إلى هذا الحد بربكِ يا فاني؟

فكرت فاني في بعض المشكلات التي تزعجها،

مثل خوفها من عدم امتلاكها لكل ما ترغب فيه، مثل الفراء باهظ الثمن المُستورد من الخارج، والسفر إلى باريس في عطلة الربيع وجذب انتباه السيد ستيفني الوسيم، لم ترغب في أن تظهر فتاة سطحية في نظر صديقتها بولي، لذا تجاهلت كل هذه الأشياء وقالت:

- يزعجني حال أمي البائسة وشجار توم وخطيبته تريكس طيلة الوقت ومزاجية شقيقتي مود الصغيرة وعصبيتها التي تزيد يوماً بعد يوم وقلق أبي على ماله فقط!

- حسناً يا عزيزتي أعلم أنها مشكلات حقيقية مؤسفة لكني أراها قابلة للحل، هل تساعدين أحداً منهم؟

- كلا، فأنا لا أملك تلك الموهبة التي تمكنني من مساعدة الناس وتشجيعهم على حل مشكلاتهم.

- لا بأس، فقط لا تفكري في الأمر بهذه الطريقة. كوني سعيدة فقط يا عزيزتي فهذا سيجعل الآخرين يشعرون بالسعادة أيضاً.

- حديثك هذا يُذكرني بما قاله لي توم اليوم: «كوني سعيدة!» ولكني أتساءل حقاً كيف يمكن للإنسان أن يشعر بالسعادة وهو محاط بالألم والإحباط؟

- أظنكِ أكثر فتاة في هذا العالم تحتاج إلى

عمل يا فاني، لقد أصابك الضجر والسأم في سن الثانية والعشرين! أعتقد أنه يجدر بك البحث عن وظيفة تستطيعين من خلالها شحذ طاقتكِ وتسخير موهبتكِ.

- أعرف كثيرًا من الفتيات اللاتي يشعرن بالضجر من الحياة العصرية التي تطالبهن بمتابعة الموضة. ولكن لا يوجد بديل عنها، أرغب بشدة في السفر حول العالم لكن أبي يقول إنه غير قادر على تحمل النفقات المادية اللازمة لذلك في الوقت الحالي.

- إنني أشعر بالشفقة على فتيات طبقة الأغنياء مثلك. فأنتِ تملكين فرصًا كثيرة، ولكن لا تدركين كيف تستفيدي منها. فلو كنتِ فتاة ثرية مثلك لكنت في قمة السعادة لامتلاكي قدرًا كبيرًا من المال.

- أنتِ فتاة سعيدة بالفعل يا بولي، حسنًا دعينا ننهي هذا الحديث الآن، ومن فضلك لا تخبري أحدًا أني جئت إليكِ باكية مثل طفل رضيع!

قالت بولي: بالطبع لن أخبر أحدًا على الإطلاق.

- حسنًا سأرحل الآن لأجري بعض المكالمات. مع أني لستُ في مزاج لرؤية أي فتاة أخرى، حالتي المزاجية سيئة جدا.

- ما رأيك في الانضمام إليّ ولقاء صديقاتي؟ أعترف أنهن لا ينتمين إلى طبقة الأثرياء لكنهن

فتيات رائعات.

شعرت فاني بتَحَسُّن مفاجئ كأن كلمات بولي العابرة رفعت من روحها المعنوية ثم قالت:

- حسنًا بالطبع يمكنني القدوم، ثم نظرت إلى السيدة ميلز العجوز ربة المنزل التي كانت تجلس حول الطاولة الرئيسية تحيك ثوبًا.

- تبدو سيدة طيبة جدًا، أليس كذلك؟

- إنها امرأة فاضلة حقًا! ألقبها بالقديسة، لأنها تخدم الغرباء. على الرغم من قلة مالها، فإنها تخدم جميع الضيوف بتقديم خصومات على الإيجار. كما أنها تسمح للأرامل والمطلقات والأيتام بالبقاء في منزلها مجانًا. المنزل مليء بهؤلاء الناس. وهي لا تشعر بالندم على ذلك أبدًا. كل ما تهتم به هو أن تقوم بأعمال خيرية. في الحقيقة، مع أنني أحلم بالزواج يومًا وأن يكون لدي منزل خاص بي، فإنني أرى أن دور السيدة ميلز أكبر وأشرف.

ذهبت فاني برفقة صديقتها بولي لتلتقي مجموعة الفتيات في الخارج أمام الغرف في القاعة الرئيسية.

قدمت بولي صديقتها المقربة لصديقاتها الأخريات، وشرعن جميعًا في الحديث بعضهن مع بعض لمدة طويلة من الزمن شعرت خلالها فاني بالحماس لقضاء ساعات إضافية برفقة أولئك الفتيات الطيبات، استمعت إلى حكاياتهن المختلفة

حول العمل والفقر وكيفية كسب لُقمة العيش. شعرت أنها انفصلت عن عالمها تمامًا وعاشت في مكان آخر. لم تكن قادرة على استيعاب الفارق الهائل بين العالمين في البداية لكنها أحست برعشة هزت بدنها كاملًا عندما سمعت تلك التفاصيل التي سردتها جيني المسكينة عن حياتها السابقة، وكيف أجهدها المرض والفقر وجعلاها طريحة الفراش.

أجمع الحضور على عطف السيدة ميلز ربة المنزل، التي كانت تجلس ببراءة تامة وسط الفتيات وتواصل عملها بكل دأب دون أن تبدي أي تباهٍ أو توقع للشكر على ما تفعله.

تأبطت فاني ذراع بولي ومضتِ معها إلى زاوية جديدة لتتعرف على فتيات جدد، وهناك رأت لتوها فتاة أخرى شاحبة نحيلة جدًا تجلس في إحدى الزوايا ترسم نظرة كسولة على وجهها.

قالت بولي: مرحبًا، كيف حالكِ يا بيكي؟ ثم نظرت إلى فاني وأضافت:

- هذه هي صديقتي بيكي تسكن هنا في الطابق السفلي، إنها تعمل في مجال تصميم الملابس وحياكة الثياب، لديها موهبة فنية رائعة.

- مرحبًا، قالت بيكي ناظرةً إلى فاني ثم تحدثت إلى بولي بعفوية:

- هيا يا بولي! بما أنكِ أتيتِ الآن فنحن لدينا

مهام كثيرة يجب إنجازها في أسرع وقت. هل أنتِ مستعدة؟ من فضلك ارفعي عن ساعديكِ.

أخرجت الفتاة ثوبًا جميلًا تأملته فاني بذهولٍ واضح ثم هتفت:

- يا له من ثوبٍ مُدهش!

سألتها بيكي: ما رأيك في هذا الثوب يا آنسة فاني؟

قالت فاني محاولة استخدام تعابير مناسبة: إني أراه ثوبًا مدهشًا جميلًا جدًا. أعتقد أنه يُناسب قديسة أو امرأة مُلهمة أو مُصلحة اجتماعية أو سيدة جميلة متواضعة.

في تلك الأثناء كانت إحدى فتيات النُزُل تضع تمثالًا على الطاولة، راحت فاني تتأمله في نشوة واضحة كأنها لا ترى شيئًا في العالم سواه. كان عملًا فنيًا أنيقًا دقيقًا، اقتربت منه فاني وحاولت لمسه بحذر، سألتها الفتاة التي صنعته إن كان أعجبها أم لا، فقالت فاني: إن هذا التمثال أجمل تمثال رأيته في حياتي كلها. دهشت الفتاة ولم تتوقع أن تسمع هذا الثناء. جلست صامتة وشعرت بالفخر. ثم قالت:

- ماذا شعرت عند رؤيته؟

- في الواقع، شعرت بمزيج من المشاعر المتباينة بين السرور والإثارة والرغبة في القفز مثل الأطفال. شعرت بسعادة عارمة عند رؤية هذا

العمل الفني. لا أستطيع تفسيرها!

صفقت بولي في حماس إعجابًا بالكلمات التي قالتها فاني في بلاغة نادرة وقالت:

- هذا هو دور الفن يا حبيبتي. ينقلنا إلى عوالم أخرى حيث نطير في السماء الواسعة بحرية ونشعر كأننا عدنا إلى طفولتنا مرة أخرى لنتعجب من كل شيء نراه جديدًا وزاهيًا حولنا.

- هل يمكنك تسمية ذلك التمثال يا عزيزتي؟

- أعتقد أن اسم «ملكة» يُناسبه أم أن لكِ رأيًا آخر؟

- أظن أننا سمّينا من هذا اللقب فمعظم تماثيلنا تحمله بالفعل، نريد اسمًا جديدًا ومبتكرًا يليق به.

قالت بولي: لديّ اقتراح آخر، ثم أردفت: ماذا عن صناعة تمثال آخر لرجل يقف إلى جوارها ويمسك بيديها؟

قالت بنبرة فتاة اتخذت قرارها بالفعل: كلا! فامرأتي تقف بمفردها وتساعد نفسها!

سألتها فاني: يبدو أن امرأتكِ قوية وشجاعة بلا شك، أليس كذلك؟

- أجل، إنها قوية جدًّا عقليًا وروحيًا ونفسيًا، فهي ليست بحاجه إلى أحدهم حتى يمد لها يد العون يومًا ما، إنها قادرة دائمًا على الوقوف بثبات.

- أوافقك الرأي يا عزيزتي، فأنا أرى أن القوة والجمال يسيران معًا جنبًا إلى جنب، فالأكتاف العريضة هي التي تستطيع حمل الأعباء دون أن تنكسر أو تنهدم، والأيادي الباسلة تعمل دون توقف، والأعين البريئة ترى بوضوح، والشفاه المرسومة بدقة تنشد ما هو أكثر من النغيمة والثرثرة.

صمتت فاني مدة متأملةً حديثها جيدًا، وإذ بصوت بيكي يهتف من الوراء:

- يُمكنك صناعة تمثال صغير لطفل تحمله بين يديها، ما رأيك؟

- لا أرغب في ذلك أيضًا فهي امرأة قوية مُلهمة، ربما أفعل ذلك في حالةٍ واحدة فقط إن كانت مُمرضة.

اقترحت كيت إحدى فتيات الغرفة الجالسات على أريكة الصالة: يُمكنك إذًا إضافة صندوق اقتراع للتمثال، ما رأيك في ذلك؟

- أشكرك جدًا يا كيت! سأحرص على فعل ذلك! أعتقد أنه اقتراح مناسب جدًا، فالتمثال يُلائم امرأة عاملة تبحث عن حقها في العمل والحياة معًا، لذا سأبذل قصارى جهدي على إضافة تلك اللمسات التي من شأنها أن تُشكِّل قيمة جديدة تُعزز هذا المعنى، سأتبنى هذه الاستراتيجية مع بقية التماثيل الأخرى.

صاحت إحدى الفتيات:

- أخبار عظيمة يا فتيات! ستذهب آنا إلى ايطاليا! ثم ألقت بقبعتها في الهواء بسعادةٍ بالغة كما لو كانت طفلًا مبتهجًا.

سألتها الفتيات: يا للروعة! كيف حدث ذلك؟ هل أخذها أحدهم إلى هناك؟ هل يُمكنكِ سرد التفاصيل؟

- لقد سار الأمر على نحوٍ رائع حقًا، فقد اصطحبتها السيدة برتون معها إلى إيطاليا. اختارتها صديقة مقربة، وقررت أخذها معها فقط لتستمتع برفقتها، ولقاء هذا كله كانت آنا على استعداد لتقديم كل غالي ونفيس من أجلها، أليس هذا رائعًا؟

بدا المشهد في غاية الجمال والعذوبة. هتفت الفتيات وصفقن ثم قبّل بعضهن بعضًا بحب. لم ترَ فاني هذا من قبل وشعرت بدفء المكان.

اقتربت فاني من بولي وسألتها هامسةً:

- مَن تلك الفتاة؟

- إنها كيت! أوه! نسيت أن أعرفك إليها! إنها مؤلفة النُزُل الشهيرة. ألفت كتابًا مصادفة وحقق نجاحًا واسعًا!

قالت كيت:

- حان وقت تناول الغداء يا فتيات! ليس هناك أروع من أن نتشارك الطعام معًا، هيا لنتعاون

في إعداده. ثم أمسكت بأكياس ثمار البرتقال، وحقائب الكعك والفطائر اللذيذة.

قالت بيس: لديّ أيضًا السردين، والخبز المُحمص والجبن. وبدأت بإفراغ الطاولة بسرعة بالغة.

- انتظرن قليلًا، أرغب في شراء بعض المُنتجات الأخرى الإضافية. قالت بولي ثم هرعت إلى المتجر المجاور.

قالت بيكي وهي تعدّ الطاولة: لا تدهشي كثيرًا مما تجدينه هنا يا آنسة شو، فنحن نتحلى بالعفوية في كثير من الأحيان ونتصرف ببساطة دون أن نضع في رأسنا أي اعتبارات لأشياء أخرى، هكذا تسير الأمور في هذا المنزل، كلنا أخوات ولسنا مجرد صديقات أو زميلات في السكن فقط.

- أحضري الحليب والأكواب والقهوة يا بيس من فضلك.

قالت بولي بنبرة مُبهجة: هناك كثير من الجوز والمربى وبعض الكعك فصديقتي العزيزة فاني تُحب الحلوى ونحن نرغب بشدة في إكرام ضيافتها.

ومع أن فاني شو ذهبت إلى حفلات غداء كثيرة فإنها لم تستمتع يومًا بحفلة مثل هذه الحفلة، لقد شعرت كأنها في نزهة، تمتعت بأجواء تغمرها الحرية وتتخللها الضحكات السمحة. ثمة مساحات من السحر بدت معلقة في أركان المنزل بدلًا من

شباك العنكبوت، وكان الفن حاضرًا في كل مكان، شعرت فاني أنها في منزلها.

تناولت الفتيات الطعام بشهية، واستمع بعضهن إلى بعض بانتباه، وتحدثن عن قصصهن المتنوعة عن العمل والحياة والطموح والنجاح والخذلان والهزائم. كان عالمًا جديدًا بالنسبة إلى فاني، لقد اعتادت التعامل مع نوع آخر من الفتيات اللواتي لا يهتممن بسوى الثرثرة والسخرية والتسوق. أما الآن، فقد اكتشفت نوعًا جديدًا من الفتيات اللواتي يزخرن بالمرح والشباب والحب ويضعن أهدافًا وخططًا لحياتهن ويحلمن بغد أفضل يصنعنه بمساعدة الآخرين.

بدأت فاني تقارن نفسها بتلك الفتيات، وأدركت أن هذا النوع منهن يمتلك قوة خاصة يجعلهن مختلفات عن باقي الفتيات. فالرجال يحترمون هذا النوع ويقعون في غرامهن بسهولة، مع أنهن يتمتعن بقدرٍ من الاستقلالية فإنهن يتصرفن بأنوثة ونعومة ويعرفن جيدًا قواعد إدارة المواقف الحياتية. تنهدت فاني شاعرةً ببعض الحسرة وقالت:

- ليتني أملك تلك الموهبة! ليتني أستطيع بذل جهد كبير لتطوير إمكاناتي تمامًا مثل بولي، فتلك السمات هي ما جعلتها تبدو جذابة مثيرة للاهتمام في عين ستيفني، فالمال لا يستطيع شراء تلك الأشياء لها وإنما العمل وقوة الشخصية.

تأملت فاني الموضوعات الفنية والأدبية والسياسية والمجتمعية والتي تخص مجتمع المثقفين بشغف وحماس، فها هي ذي تجد فتيات في نفس سنها لا يتحدثن عن أغلى الثياب وأجودها ولا عن تلك الأوشحة الحريرية أو الفراء، إنما يتحدثن عن الدين والاقتصاد والروايات والثقافة والأخلاق وعالم الأزياء.

- كيف أخبار كتابك الأخير الذي كتبته؟

قالت كيت بسعادة بالغة تمتزج بالحماس: أعتقد أن الأمور تسير معي جيدًا، فلقد وضعت فيه كامل طاقتي وبذلت مجهودًا لا يمكن تجاهله بأي حال، لذا فإني أتوقع أن يكون النجاح حليفه قريبًا.

ابتسمت بولي ثم نظرت إلى صديقاتها الجالسات في إحدى الزوايا ثم قالت:

- أريد أن أعرف حقًا متى ستنفصل بيكي وبيس؟ هل ستظلان صديقتين إلى الأبد؟

ردت بيكي على الفور:

- لن أنفصل عن صديقتي يومًا، سنظل مقربتين حتى النهاية.

- أجل، قالت بيس مبتسمة ثم أضافت:

- ستتزوج بيكي في عطلة الربيع لكني سأذهب للعيش معها!

- حقًا؟ هذا مُثير جدًا!

- أجل! لا يمكننا العيش دون بعضنا، ففي منزلي غرفة دائمة لبيكي، ولي في قلبها مكان أبدي لا يتغير مع مرور الزمن.

- بالطبع فالأصدقاء لا يفترقون أبدًا.

- لديّ تذاكر إضافية من أجلكِ يا بولي فلقد أرسل إلي بعض الأصدقاء مجموعة تذاكر يمكنكِ الحصول عليها، إنني أعرف مقدار حُبكِ للمسرح والموسيقا. يمكنكِ الذهاب إلى هناك والاستمتاع بتلك الأجواء الفنية المُدهشة قدر استطاعتك.

- أوه! حقًا! يسعدني ذلك. كم هو تصرف لطيف منكِ يا بيكي فأنا أعشق سماع الموسيقا.

شرعت الفتيات في جمع بطاقات المسرح المُلونة، ألقت فاني نظرة خاطفة على وجوه أولئك الفتيات الماهرات اللواتي ينجحن في كسب لقمة عيشهن ويتمتعن برفاهية الحياة في أوقات فراغهن فهن يبذلن جهدهن لاختبار معنى الحياة. نظرت مجددًا إلى التمثال غير المُكتمل الذي صنعته ربيكا ثم قالت:

- لو أضفتِ بعض القطع الرخامية إلى هذا التمثال لزاد جماله يا ربيكا.

قالت ربيكا: أتمنى حقًا لو أفعل ذلك.

احتشدت الفتيات حول الطاولة معًا، وبدأن بتأمل التمثال أمامهن بمزيدٍ من الإعجاب، وشرعن في مساعدة صديقتهن ربيكا وإمدادها بالطين

والصلصال التي تحتاج إليهما لإتمام المهمة.

دقت أجراس المدينة مرة واحدة نهضت على أثرها بولي ثم قالت:

- عليّ الذهاب الآن، وعدت جارتي أن أعطيها درسًا في الموسيقا.

قالت فاني: كنت أظن أن اليوم عطلتكِ!

- أجل، ولكن تلك الطفلة تلميذة نجيبة حقًا وتملك موهبة حقيقية، وبما أني لا أستطيع منحها المال فليس أمامي إلا أن أعطيها دروسا في الموسيقا مجانا ما دامت في حاجة إليها. تذكري دائمًا يا فاني أنه كُلما مددتِ يد العَون لأحدهم ساعدك الرب على تحقيق أهدافك.

قالت كيت: كم أفكر في وضعك بطلة لروايتي يا بولي فصفاتكِ تتماشى مع البطولة.

قالت بولي مازحةً: أنا! ولماذا؟ أظن أن ملامح شخصيتي لا تناسب البطولة على الإطلاق!

قالت كيت مُبتهجةً: لقد أخبرتكِ الآن يا عزيزتي! سوف أكون أحد أسباب شهرتكِ في المستقبل، حسنًا؟

قالت بولي بعد أن توردت وجنتاها من فرط الخجل كأنها على وشك تجسيد أحد أدوار البطولة على أرضِ الواقع: عليّ إذًا الاستعداد لكل هذا البهاء الذي ينتظرني.

- في الواقع أنا أحب صديقاتك جدًا يا بولي،

كنت أظن في البداية أنني لن أتفق معهن وأن الأمر ربما لن يعجبني كثيرا. شعرت لوهلة أنهن قاسيات لا يملن إلى المزاح أو الترفيه عن النفس لكني اكتشفت أني كنت مخطئة كليا بشأنهن فهن أروع فتيات على الإطلاق!

- لقد استمتعن حقا بقضاء الوقت برفقتك يا عزيزتي فاني حتى أن صديقتي بيكي طلبت مني أن أحضرك معي مرة أخرى، ونادرا ما يحدث هذا فهن لا يشعرن بالراحة في التعامل مع فتيات الطبقات الراقية.

الفصل الرابع عشر

في مساء اليوم التالي جلست بولي أمام المدفأة تفكر في شيءٍ ما. رفعت خصلات شعرها إلى الأعلى، ثم أمسكت بقطعة قماش بيضاء، طوتها ووضعتها في حجرها وبدت كما لو كان هناك أمر شديد الأهمية يدور في ذهنها ويسيطر عليها. لم تتحدث بولي إلى نفسها على طريقة بطلات الأعمال المسرحية اللواتي يسردن ما يدور في أذهانهن بأصواتٍ عالية، بل بدت كمَن تغرق في بحرٍ من الصمت ثم همست:

- أخشى أن يكون هناك مشكلة، فأنا لا أريد أن أعبث بمشاعر أحدهم، ولكني لا أستطيع تجاهل اهتمام هذا الرجل بي. ألاحظ نظراته تلاحقني في كل مكان. لا أريده أن يُعلق آماله في الهواء. لا أريد أن أجرح قلبه، كل ما أرغب فيه حقًا أن أخبره أني لا أحبه قبل أن يزداد حبه لي. أعلم جيدًا أن فتيات كثيرات لا يفعلن ذلك أبدًا، بل يستمتعن بإغواء الرجال حولهن. ما زلت أذكر ذلك اليوم الذي سمعت فيه تريكس تسأل فاني بتهكمٍ واضح:

- أخبريني يا عزيزتي، كم عدد العصافير التي صدتها حتى الآن؟

كانت تقصد عدد الضحايا الذين وقعوا في غرامها دون أن تبادلهم المشاعر، إنها تعشق -مثل فتيات

كثيرات- أن تلمح لأحدهم أنها تُحبه من أجل التلذذ بكونها محبوبة فقط.

ولكني لست مثلها. أرغب بشدةٍ في إخباره بحقيقة مشاعري حتى لا يندفع في حبي أكثر. لا أحب أن يحدق بي بنظراته الحادة العاشقة. أشفق عليه ولا أبادله الشعور. فما الذي عليّ فعله؟ لا أنكر سعادتي باهتمامه في البداية. لم أستطع إخفاء فرحتي حينها لكني لا أريد أن أتمادى في ذلك حتى لا أخدعه. لا أود أن أكون مثل معظم الفتيات هذه الأيام اللواتي يفتخرن بالحديثِ عن ضحاياهن في الحفلات.

واصلت بولي حديثها مع نفسها قائلةً:

- ماذا لو عرض علي السيد ستيفني الزواج به يومًا ما؟ في الواقع لا أعرف كيف سأتصرف في هذه الحالة؟ فالشاب وسيم حقًا ومن أرقى عائلات المنطقة، وهو محط إعجاب كثير من الفتيات اللواتي لا يشعرن بجمالهن إلا إذا ابتسم لهن! فما بالك إذا أحب إحداهن؟ من المفترض أن أكون سعيدة جدًا لأن رجلًا مثله أعجب بي. حاولت تريكس لَفت نظره بكل الطرق لكنه لم يلقِ لها بالًا، ما جعلها تشعر بالإحباط في النهاية، واضطرت إلى الركض خلف توم الذي سقط في شباكها بسهولة. أعتقد أنني محظوظة قليلًا بهذا الأمر وأعرف أن ذلك سيزيد من كراهيتها لي!

في الواقع إن أكثر ما يُثير دهشتي أن السيد

ستيفني مغرم بي مع أني لا أضع مساحيق التجميل ولا أرتدي الفراء المستورد ولا أملك ثيابًا باهظة الثمن، فكل ما أملك هو تلك القيم التي أومن بها والتي أضع خططي وأهدافي وفقًا لها. أستغرب كثيرًا من حبه واهتمامه بي.

فكرت بولي في الأمر كأنها تدرس إمكانية حدوثه، ثم ارتعدت فجأة وهزت رأسها وقالت:

- لكني لا أحبه، وأخشى أن أقول إنني لن أحبه يومًا. فهو شخص عظيم وكريم وحكيم، ومع ذلك لا أتخيل نفسي أعيش معه باقي عمري في بيت واحد! أخشى حقًا أن يصيبني الملل فجأة! فماذا عساي أن أفعل حينها؟ كما أن اسمه واسمي غير متطابقان. لا أظن أنه يناسبني، فأنا مثلًا يعجبني اسم ويل أو جيمي أو توم. كلا! لا يمكنني أبدًا الاهتمام لأمره. صرخت بها بولي بانفعال شديد.

أخفضت الفتاة الريفية رأسها إلى الأسفل قليلًا ثم رفعته مجددًا متأملة المرآة أمامها، وحينها وجدت الحزن والألم يحتلان وجهها.

عادت بولي إلى حديث النفس مجددًا:

- لست أنانية الآن، فأنا لا أريد إصلاح خطأ بخطأ آخر، عليّ الابتعاد عن السيد ستيفني تمامًا حتى لا أقف في طريق سعادة صديقتي المقربة فاني. أوه! تلك المسكينة! كم أحزنتها في تلك

المرات التي كنت أقابله فيها وأمضي وقتًا معه. كيف سأحل هذه المشكلة؟ حسنًا سأحاول أولًا ألا أرافقه إلى أي مكان، كذلك سأتجنب الطرق التي قد أجده فيها، لن أذهب إلى منزل روث لإعطائها دروسًا في الموسيقا لأنني ألتقيه هناك عادةً، سأترك لفاني الساحة خالية تمامًا حتى تتمكن من جذب انتباهه إليها. يا إلهي! اعتقدت أن شجوبها خلال الأوقات السابقة بسبب عسر الهضم. لم أعرف أن ذلك بسبب جرح عميق في قلبها.

عادت بولي إلى صراعها القديم:

- حسنًا، سأحاول أن ألمّح له بالأمر وإذا لم ينتبه سأقولها له صراحةً، أجل سأقول له إن فاني تحبه!

توردت وجنتاها انفعالًا مما قالت كأنها عادت إلى رشدها مرةً أخرى.

- ما الذي أقوله بحق الجحيم؟ كيف لي أن أهذي بشيءٍ كهذا؟ لا يمكنني إفشاء أسرار فاني أمام الجميع! على الشعور بالخجل، فالسيد ستيفني يعرف فاني منذ مدة طويلة حقًا فلماذا لم يذهب ليتحدث إليها؟ لماذا لم يقع في غرامها؟ فتلك أشياء قد تحدث فجأة دون ترتيب مسبق، ولكن إن لم أفعل شيئًا فسوف يستمر الأمر وستكرهني.

نفذت بولي خطتها يوم الاثنين التالي، عكفت

على إنجاز تلك المهمة السهلة الصعبة في آن معا، فبدلًا من أن تذهب إلى تلاميذها عبر الطريق الذي تسلكه عادة، غيرت مسارها إلى طريق غير مألوف عبر شارع جانبي حتى تتجنب رؤية السيد ستيفني نهائيًا، وبالفعل تمكنت بولي من إنجاز مهمتها بنجاح واستطاعت الهرب من السيد الوسيم الثري، هذا المسكين الذي كان يُفتش عنها في كل مكان دون أن يجدها حتى أنه ذهب إلى منزل شقيقته لأنه يعلم أن بولي تعطي ابنتها الصغرى دروسًا في الموسيقا لكنه لم يجدها هناك، وعلم أنها لم تأت منذ بضعة أيام! ها هو ذا يخسر أمله الأخير في لقائها. أضف إلى ذلك أن بولي توقفت أيضًا عن زيارة منزل آل شو حتى لا تقابله في تلك المنطقة أو في موعد العشاء لقضاء إحدى السهرات المسائية برفقتهم.

يمكننا القول إن الشيء الوحيد الذي افتقدته بولي في تلك الأوقات هو معاملة السيد ستيفني الراقية، فهي مثلا لم تكن مغرمة بثروته أو وسامته أو جاذبيته، ولكن ما جذبها إليه هو طريقة حديثه معها بعفوية وبساطة التي لاحظت أنه لم يستخدمها قط مع غيرها من الفتيات الأخريات، وهذا ما جعلها تشعر أنها فتاة استثنائية بالنسبة إليه ما أبهجها وزاد ثقتها.

حفزت حالة فاني المؤسفة بولي على اتخاذ قرار فوري بشأن موقفها من السيد ستيفن، فإذا

استمرت بالتصرف بطريقة سلبية ستزيد تعاسة صديقتها، ولهذا فقد قررت أن تطبق ما تخطط له.

ذهبت بولي إلى منزل السيد شو مساء يوم السبت قبل ذهابها للقاء بيكي وبيس، حتى تصطحب فاني معها، عندما رنت الجرس فتحت الخادمة الباب، فسألتها:

- هل أحدهم هنا؟

- لقد غادرت الآنسة فاني منذ قليل، لا يوجد هنا سوى السيد ستيفني والسيد توم فقط، تفضلي بالدخول.

- لا يمكنني اليوم فأنا مستعجلة.

في أثناء خروجها من الباب، ركض ابن عم توم الصغير وراءها. توقفت بولي وحملته إلى عتبة المنزل مرة أخرى. وفجأة، وجدت نفسها أمام السيد ستيفني الشاب الجذاب الذي كانت تحاول تجنبه. نظر إليها من كثب وقال:

- سررت برؤيتك يا آنسة بولي.

شعرت بولي بالخجل والارتباك، فلماذا يُعاملها هذا الشاب بعاطفة؟ لماذا تغمرها السعادة عندما تلتقيه؟ ألم تُقرر منذ دقائق فقط مُغادرة المكان بسرعة لأنها لا تود أن تلتقيه ثانيةً؟ ألم تحسم الأمر نهائيًا بعد أن فكرت مليًا بالأمس؟

إنها لم تعد ترغب في أن تقف عقبة بين ستيفني وصديقتها المُقربة فاني، فأين هي الآن من كل

ذلك؟

- مرحبًا يا سيد ستيفني.

- أهلًا بكِ يا عزيزتي بولي، هل ما زلت تزورين منزل روث لتعطيها دروس الموسيقا؟

- في الواقع لم أزر منزلها منذ مدة، هل تذهب إلى هناك كثيرًا؟

- أجل، أذهب إلى هناك أحيانًا.

- لم أكن أعلم بذلك من قبل.

قال السيد ستيفني ضاحكًا: رأيتك من نافذة منزل آل شو وقررت أن أركض خلفكِ.

قالت بولي دون تفكير: أعتقد أنه يجب أن أسلك هذا الطريق لأصل إلى منزل روث.

- ولكن هذا الطريق أكثر إجهادًا من الطرق المُختصرة، فلماذا لا تسلكي الطريق الآخر المُجاور للحديقة؟

- أجل، أعرفه لكن الناس تتعب أحيانًا من الطرق القديمة التقليدية فيجربون الطرق الجديدة.

حدق السيد ستيفني في وجهها لوهلة كأنه لم يفهم كلامها جيدًا ثم قال:

- وهل تعبتِ أيضًا من أصدقائكِ القدامى يا آنسة بولي؟

- كلا، ولكن...

قالت بولي ثم توقفت كأن الكلمات ظلت مُعلقة

في الهواء. خافت أن تبدو كلماتها جامدة ناكرة للجميل، ترددت قليلًا وأجابته بسؤالٍ مباغت:

- كيف حال فاني؟

قال ستيفني ساخرًا: إنها مُندفعة كعادتها. لقد أصابني الإحباط بشدة نتيجة ارتباكها. لكن هذه هي فاني التي أعرفها منذ سنوات.

حاولت بولي أن تتدخل لتجميل صورة صديقتها فاني فقالت:

- لكن يا سيد ستيفني إنها تبذل جهدها دائمًا لتحسين مهاراتها وتحقق تقدمًا ملحوظًا وتهتم لأمر الآخرين.

أبدى السيد ستيفني إعجابه ببولي كأنه يؤيدها كمحامية للآنسة فاني، مع أنه لم يكن مهتمًا بسماع أي حجج مبررة لها.

- في الواقع أنا مسرورٍ جدًا لمعرفة ذلك، فلكل إنسان جانب إيجابي مشرِق، ربما لهذا السبب تنظرين إلى العالم بطريقة تفاؤلية واضحة.

- أوه! لكني لا أرى العالم بتلك الطريقة على الإطلاق.

قال ستيفني بصوتٍ ناعم: لو كان بمقدوري أن أُغير العالم من أجلكِ.

انتبهت بولي إلى نبرة صوته الحسّاسة، فقررت ألا تنظر إلى عينيه الناعستين في تلك اللحظة.

- أشكرك يا سيد ستيفني، لكني أعتقد أن العالم قد خُلِق على هذا النحو حتى يتورط الإنسان في ارتكاب مزيد من الأخطاء فيصل إلى الحكمة في نهاية المطاف.

سألها ستيفني: وربما يتورط في حب الناس أيضًا، أليس كذلك؟

شعرت بالخجل الشديد فحاولت تغيير الموضوع فورًا وقالت في ارتباك:

- كم تبدو تلك الحديقة جميلة!

- أجل تبدو مُدهشة، أحب تلك اللحظات السعيدة التي قضيناها معًا فيها.

ابتسمت بولي ثم قالت:

قالت بولي: أجل! كانت لحظات مُميزة فعلًا خلال عطلة الربيع الماضي. ثم ندمت على كلامها، فكيف تقول ذلك وهي تريد الابتعاد عنه من أجل صديقتها، ولكن ما قالته لا يُشير إلا لشيءٍ واحد فقط، وهو أنها أيضًا تشعر بسعادة عارمة لوجودها إلى جواره. فهم السيد ستيفني هذا التلميح، وظن أنها تريد أن تنقل إليه تلك الرسالة بشكلٍ غير مباشر.

وبخت بولي نفسها على ما قالته. كادت تصف نفسها بالفتاة الغبية الساذجة. اقترب منها بضع خطوات وهمس:

- لقد استمتعت حقًا بقضاء تلك الساعات

برفقتكِ بين أحضان تلك البيئة الريفية لكني لم أكن واثقًا بأنها أعجبتكِ.

هتفت بولي: كلا! لقد أعجبتني بشدة. ثم توقفت فجأة وعادت إلى طبيعتها الهادئة المتزنة التي يحبها ستيفني.

سألها ستيفني بصوت مُرهق مُحبَط: حسنًا، أظن أن عليكِ الآن اتباعَ هذا الطريق القديم، أليس كذلك؟

قالت بولي: أجل يا سيدي. صمتت لهنيهة تحاول أن تجد ردًا أكثر أدبًا، ثم نظرت إلى الجهة الأخرى من المكان وصاحت:

- انظر! ها هو ذا توم!

كان توم يمتطي حصانه قادمًا من بعيد في اتجاههم، تلعثم السيد ستيفني في تلك اللحظة التي أشارت فيها بولي إلى وجود توم، تعرق وشعر بالتوتر ثم قال:

- حسنًا، إلى اللقاء يا آنسة بولي.

ودعته بولي ومضت في طريقها. وكانت تتجنب هذا الطريق الريفي الذي دلها عليه السيد الوسيم خلال جولاتها اليومية خشية أن تلتقيه وجهًا لوجه، مع أنها كانت سعيدة جدًا عندما كان يصطحبها وكانت تستمتع بالحديث معه، ثمة نوع غريب من الإعجاب الذي تُكنه الفتاة الريفية لهذا الرجل فهي تحترمه وتقدره لكنها لا تحبه

بالطريقة التي ينظر إليها بها. هي ليست مُغرمَة به لكنها تسعد برفقته في كثير من المناسبات. ربما تراه صديقًا أكثر منه حبيبًا.

في صباح الغد علمت بولي من ابنة أخت السيد ستيفني أنه قد غادر البلاد أمس. ربما فعل ذلك لأنه وجد في السفر ملاذًا له فكيف يستطيع أن يبقى في هذه المدينة التي تسكن فيها حبيبته التي أثقل عليه وجوده بجانبها دون أن يستطيع فعل شيء.

علمت فاني مؤخرًا أن السيد ستيفني قد غادر البلاد فجأة، شعرت بألم يعصر قلبها فتوجهت إلى منزل شقيقته لتعرف أسباب رحيله، علمت فاني سبب مُغادرة فارسها النبيل، ثم توجهت على الفور إلى منزل صديقتها بولي لتسألها بضعة أسئلة.

سألتها فاني كأنها تحقق معها: أخبريني يا بولي ماذا فعلت مؤخرًا؟

- في الواقع قابلت السيد ستيفني وأخبرته بحقيقة شعوري تجاهه.

سألتها فاني بحماس: هل فعلت ذلك حقًا؟

- لقد لمحت له فقط، وأخبرته أني لا أرغب في لقائه مُجددًا، فهم ذلك ببساطة ووافق عليه. كان رجلًا شريفًا فلم يعترض أو يُثر مشكلة، بل فهم ما أردت قوله بلطف وغادر المدينة. ولكني لا أعتقد أن قلبه قد تحطم، ربما يراني مجرد فتاة

بلهاء، ومن المؤكد أنه يكرهني الآن.

- بالعكس يا بولي، أعتقد أنه سيحترمك أكثر ولن يتخلى عن حبه لكِ، ألا ترين يا بولي أنكِ تضيعين فرصة عظيمة بتصرفك هذا؟

قالت بولي: لا يمكنني أن أبيع نفسي بهذه الطريقة.

- يا إلهي! ما الذي تقصدينه بذلك؟

- أقصد أنني أفضل أن أعيش حياتي عزباء مُستقلة تعلم الموسيقا طيلة أيام حياتها على أن أتزوج من شخص بتلك الطريقة العصرية المواكبة للموضة! فأنا أود أن أبدو في أعين الجميع فتاة غريبة حمقاء!

قالت فاني بنبرة دافئة توحي بامتنانها لهذا الدور الكبير الذي أدته بولي في قصتها مع السيد ستيفني، فهي لم تكشف سرها له أيضا: لكني على ثقة بأنكِ ستتزوجين يوماً يا بولي، فأنتِ فتاة جميلة تستحقين أن تكوني سيدة منزل وأماً رائعة، ستقدرين على فعل ذلك يا عزيزتي.

قالت بولي بطريقة جعلت فاني تتساءل إن كانت بولي تعاني جرحاً عاطفياً: أتمنى ذلك لكني أشك في إمكانية تحقيقه.

قالت فاني بصوت حنون محاولة أن تخفي ارتباكها السابق: هل هناك شيء يشغل بالكِ يا عزيزتي؟ من فضلكِ، أخبريني به كما أخبركِ دائماً.

لكن بولي اقتربت منها كثيرًا واحتضنتها وسألتها عن حديثها مع تريكس في الليلة الماضية حول السيد ستيفني وسألت مباشرة:

- هل أحببتِ السيد ستيفني يا فاني؟

انفجرت فاني في البُكاء وانهمرت دموعها وقالت:

- أوه يا عزيزتي! كيف عرفت ذلك؟ هل فعلت هذا من أجلي؟

احتضنتها بولي، وقالت بصوتٍ عطوف مليء بالشفقة:

- لا يمكنني أن أفرق بين قلبين يا عزيزتي.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الخامس عشر

في مساء اليوم التالي ذهبت بولي إلى منزل آل شو، وجدت مود الصغيرة جالسة على سلم المنزل متجهمة الوجه:

- يا إلهي! كم أنا سعيدة بقدومك يا بولي! ركضت الطفلة الصغيرة نحوها وارتمت في حضنها.

- ما الأمر يا عزيزتي؟

- لا أعرف، أعتقد أن هناك أمرًا مُريعًا قد حدث، لأن أمي وفاني يبكيان في الطابق العلوي وأبي يغلق باب المكتب على نفسه، ولم يخرج منه حتى الآن، أما توم فإنه غاضب جدًا كالدب الثائر.

- ربما تكون أمور بسيطة لا تستحق القلق، قد تكون أمك مريضة قليلًا أو يكون أباك قلقًا بشأن عمله أو يكون توم قد دخل في مشكلة جديدة. لا تخافي أبدًا يا مود وتعالي معي إلى الردهة لتري ما اشتريت لك! هيا! حاولت بولي رفع معنويات الطفلة القلقة مع أنها أحست أن هناك خطبًا ما.

- لا أعتقد أنني أستطيع فعل أي شيء دون أن أعرف ما الأمر، أراهن أن هناك خطبًا ما، عندما عاد أبي إلى المنزل صعد إلى غرفة أمي وتحدث إليها طويلًا، ثم بكت أمي بصوت مرتفع جدًا، وعندما حاولت الدخول إلى الغرفة لم تسمح لي فاني. بدا الخوف جليًا على ملامح وجهها. لذا

نزلت إلى الأسفل وذهبت إلى غرفة أبي لكنه أغلق الباب، وقال:

- لا يمكنكِ الدخول الآن يا عزيزتي.

جلست منذ تلك اللحظة هنا أنتظر معرفة ما حدث حتى جاء توم، وعندما ركضت إليه لأخبره بالأمر صرخ في وجهي قائلًا:

- اذهبي الآن! ثم دفعني بقوة، وأغلق باب غرفته خلفه. شعرت بالخوف والحيرة، ولم أدرِ ما أفعل؟

بدأت مود تبكي بحُرقَة، جلست بولي إلى جوارها على السلم وحاولت مواساتها مع أن الخوف كان يسكن أفكارها، خرج توم من غرفة المعيشة بوجه بائس مُحبَط غير مبالٍ على غير عادته. نظر الشاب إلى بولي بفتورٍ وقال:

- مرحبًا بولي!

سألته بولي: كيف حالك؟

قال كأنه يتحرق شوقًا لإخبارها بالمسألة: إني مشوش. من فضلك، أرسلي مود الصغيرة إلى الأعلى وتعالي لأخبركِ بم حدث.

همست بولي بعد أن جففت دموع مود: هيا اصعدي إلى الأعلى يا عزيزتي، واستمتعي بقراءة هذا الكتاب وتناولي أيضًا كعك الزنجبيل الذي أعددته لك. هيا! طفلة جيدة! حدقت مود في وجه أخيها توم بفضول ثم قالت متأهبةً لإطاعة

الأوامر:

- هل ستخبرينني لاحقًا بما سيقوله لكِ توم؟

قالت بولي: بالطبع.

غادرت مود الردهة، وذهبت بولي مع توم إلى غرفة المعيشة حيث كان يتحرك بلا هدف في حالة من التوتر والقلق، لكن بولي شعرت بسعادة عارمة على الرغم من اضطراب الأوضاع لأن توم قرر أن يخبرها بسره، فحتى إن ثار كالدب الهائج فيكفيها أنه يود أن يروي لها تفاصيل المسألة كما كان يفعل سابقًا.

- والآن، أخبرني ما الأمر يا توم؟

- هل تستطيعين التخمين؟

- هل قتلت حصانك؟

- الأمر أكثر سوءًا من ذلك.

- هل تعرضت للأذى؟

- الأمر أكثر سوءًا من ذلك.

- هل هربت خطيبتك تريكس مع شخص آخر؟

- أكثر سوءًا من ذلك!

- أوه يا توم! هل جلدت حصانك؟ أو آذيت أحدهم؟

- كلا، انظري في عيني جيدًا وستدركين أني لم أفعلها!

- حسنًا، في الواقع لا يُمكنني تخمين ما حدث،

هل تستطيع إخباري بسرعة؟

- لقد فصلت من الجامعة.

توقف توم برهة عن الكلام ليراقب رد فعل بولي بعد سماعها كلماته. على الرغم من ضخامة الحدث لم تبدُ بولي منزعجة جدًا، وبعد دقيقة من الصمت قالت:

- أظن أن هذا هو الحدث الأسوأ على الإطلاق!

سألها توم متذمرًا وهو يمشي على غير هُدى في أرجاءِ غرفة المعيشة: حقًا؟

- من فضلك يا توم اهدأ قليلًا وتوقف عن التصرف بهذه الطريقة!

- لا يمكنني ذلك.

- حسنًا أخبرني لماذا فصلت من الجامعة؟ ماذا فعلت؟

- أظن أنني أدفع فاتورة حقيقية هذه المرة. تشاجرت مع شابل واتشمان وطرحته أرضًا، كانت تلك المشكلة الأولى. في الحقيقة لم أجد فرصة للخروج من هذا المأزق. كانت فرصتي الأخيرة ولم أنتظر حتى يتكالب علي مزيد من الأوغاد، لذا قررت الانسحاب من تلقاء نفسي.

- ماذا سيقول والدك عن هذا؟

- ستكون صدمة أبي كبيرة. صمت قليلًا كأنه يفكر ثم أضاف: لا يعرف أبي أنني اقترضت مبلغًا

كبيرًا من المال من أحدهم أيضًا.

- ماذا! كيف تجرأت على فعل ذلك يا توم؟

- أعرف أنني شخص أحمق. لا يمكنني إنكار ذلك فلقد وقعت في هذه الورطة بنفسي.

- أظن أن والدك سيغضب كثيرًا عندما يعلم، ولكني واثقة بأنه سيساعدك، فقد أخبرتني فاني أنه دائمًا ما يفعل ذلك؟

- هذا أسوأ ما في الأمر يا بولي! سيحاول أبي جاهدًا مساعدتي ولكنه لن يجد مالاً يكفي لسداد ديوني! وهذه هي الكارثة الحقيقية.

- هل أنفقت كل أموالك؟

- أجل.

- -ألا توجد طريقة أخرى للحصول على المال؟

- بحثت كثيرًا ولكن لم أعثر على حل. أظن أن المقامرة هي الوسيلة الوحيدة لتدبر الأمر.

- يا إلهي! لا تقل هذا! لماذا لا تفكر في بيع حصانك؟

- لقد رهنته في الشتاء الماضي بثمن بخس لذا لا جدوى من ذلك.

- هل اقترضت مبالغ كبيرة يا توم؟

- أجل، وقعت في الفخ منذ زمن بعيد، وظللت أستدين الأموال دون تفكير حتى تراكمت وأصبحت في هذا المأزق!

أخرج توم ورقة صغيرة من جيب معطفه وأعطاها لبولي لتطلع عليها.

تأملتها الفتاة في صمت وقالت:

- لا تبالغ يا توم، فالمبلغ المكتوب ليس بهذه الضخامة! أظن أن والدك سيوافق على دفعه لك بسهولة.

- أُفَضِّل أن أموت رميًا بالرصاص على أن أعترف له بالأمر، ولكن ربما يكون هناك حل آخر، هل تستطيعين مساعدتي يا بولي؟

سألته بولي وقد ظهر القلق على وجهها: ماذا تقصد؟

- أعتقد أنك إذا أخبرت أبي بالأمر سأتجاوز المشكلة برمتها، إذ سيفهم الأمر تدريجيًا.

سألته بولي باستهجان واضح: هل تريدني أن أذهب إلى مكتب والدك لأخبره بما فعلته نيابةً عنك؟ ثم لوت وجهها ورمقته بنظرة غاضبة، وقف أمام النافذة وهو يحاول تجنب ملامح وجهها الغاضبة.

- أظن أن أبي يُحبك ويُقدرك كثيرًا ويثق بك مثل بقية أفراد عائلتنا، لذا إذا ذهبت وأخبرته نيابةً عني سيكون وقع الأمر عليه أهون.

نهضت بولي من مكانها وذهبت نحو الباب دون أن تنبس بكلمة، نظر إليها توم وقال:

- ألا تعتقدين أنها خطة جيدة؟

قالت بولي بغضبٍ بالغ: نعم، لا أعتقد ذلك.

- لِمَ؟ ألا تظنين أن هذا أفضل من أن أذهب إليه بنفسي؟

- أظن أنه من الأفضل أن يذهب الابن إلى والده لإخباره بشؤونه بدلًا من أن يُرسِل إليه فتاة أخرى كأنه يتخفى وراءها!

صدمته هذه الكلمات اللاذعة وجعلته يشعر بالغضب، فهم ما ترمي إليه بولي. فنهض من مقعده وصرخ: من فضلكِ عودي.

توقفت بولي في مكانها وتأملت وجه توم الخائف، فهو لم يجرؤ يومًا على إخبار والده بأي شيء على الإطلاق، بل حرص على تَجَنبه خوفًا من ردة فعله. أشفقت عليه بولي كثيرًا في تلك اللحظة وبدا وجهها مُرتبكًا، فهي لم تقصد أن تصفه بالجبان لكنها أرادته أن يتحلى بالجرأة والقوة. تخيلتِ لو أن أخاها ويل هو من طرد من الجامعة. تُرى، كيف سيواجه هذه المشكلة؟ تذكرت أن أخاها فقير، فلا يمكنه أن يتورط في مثل هذه الأزمة، ثم حمدت الرب على نعمة الفقر.

جلست بولي أمام باب غرفة مكتب السيد شو. كانت تستمع إلى حوار متقطع بين الأب وابنه. توقف توم عن الكلام وساد الصمت، ثم انفجر صوت آخر مدويًا. انهال السيد شو على

ابنه بأسئلة حادة ومستفزة بصوته القوي كأنه في مظاهرة. شعر توم بالرعب من لهجة أبيه ولم يجد جوابًا. كان توم محقًا في ما قاله فلم تكن مواجهة أبيه سهلة قط.

خرج الفتى من غرفة المكتب إلى الردهة وألقى بنفسه على الأريكة في إرهاقٍ شديد وقال:

هل يُمكنك يا بولي أن تحدثني إليه؟ لقد أرهقني ما فعلته! يا إلهي!

بكت بولي وسالت دموعها وقالت:

- ما الأمر يا توم؟ أخبرني!

- فشلتُ في إنجاز المهمة، وسيعرف الجميع ما حدث غدًا.

تأملت بولي وجه الشاب المسكين ثم نهضت والتقطت أنفاسها واقتربت منه وقالت:

- هل الأمر بهذا السوء؟ كانت تشعر بالرغبة الشديدة في تقديم أي مساعدة له.

- أجل، أعلن أبي إفلاسه. حاول جاهدًا إبقاء الأمر سِرًا وإصلاح الوضع لكنه لم يستطع الصمود.

قالت بولي باكيةً: أتمنى لو كنت أملك ملايين الجنيهات لأعطيها له، ولكن كيف استطاع والدك تحمل الأمر يا توم؟

- تصرف أبي كرجل مسؤول يا بولي! أنا فخور

به كثيرًا، كانت الظروف كلها تعاديه وأصر على مواجهتها بنفسه، وتحمل كل هذا الضغط والعناء الذي فاق قدراته. لقد فعل أشياء كثيرة من أجلنا وتألم في صمت دون أن ندري! قال توم بوجه كئيب متورد ثم أحكم قبضته كأنه يرغب في تسديد لكمة قوية لشخصٍ مجهول.

- أظن أنه لهذا السبب تبكي أمك وفاني بحرقة منذ أن عاد والدك إلى المنزل. يبدو أنه أخبرهما بذلك قبل أي شيء.

- حاول أبي حماية أمي وشقيقاتي على الرغم مما حدث، ولم يمس أموالهن ولم يشاركهن معاناته وتحمل ضغوط الموقف وحده. هل يمكنكِ تصور ذلك يا بولي؟

قالت بولي بيأس: آه! كيف أستطيع مساعدته!

- يمكنك الحديث معه، فأنتِ تعرفين مدى حبه لك، من ناحيتي لا يمكنني فعل ذلك فلقد بات وجودي يُشكل مصدر تهديد وليس راحة في حياته الراهنة.

سألته بولي متجاهلة المشكلة التي تورط فيها: أخبرني أولًا كيف تلقى والدك هذه الأخبار؟

- كان رقيقًا وحنونًا معي، وقال لي: لا تقلق يا بُني، سنجد حلاً لهذه المشكلة، وسنكون دائمًا معًا.

قالت بولي بإعجاب: يا له من أب عظيم وشجاع.

- هذا ما يؤلمني يا بولي، فأنا لم أكن عونًا له، بل ثقلاً عليه، وجلبت له مزيدًا من الديون والمتاعب. لم يلمني قط، مع أنه عادةً صارم وقاس، وهذا جعلني أشعر بالذنب والحزن.

تأملت بولي وجهه الطيب، ومع أنها حزنت من كل تلك الأخبار التي هبطت عليها كالصواعق الحارقة، فإنها استمتعت بتلك اللحظة التي انحنى فيها توم واضعًا رأسه بين يديه، فالتصقت به وداعبت خصلات شعره البُنية بلُطف، شعرت أنها وُلدت من جديد. كانت مُغرمة به منذ أول صيف رأته فيه، نما حبه في قلبها ببطء. لم تفهم هذا الشعور الغريب في البداية لكنها سيطرت على جوارحها دون أن تستطيع شرحه أو تفسيره، فعلى الرغم من أخطائه المتكررة وعيوبه ولا مبالاته وخطوبته فإنها كانت تؤمن بحبها له، حتى عندما رأته برفقة تريكس لم تستطع إخراجه من قلبها وظلت تفكر فيه. كان يؤلمها عندما تسمع أن تريكس تجلس معه في الأماكن العامة أو تسمعه يتحدث عن اهتمامه بها. كانت تلك الأشياء تنهشها من الداخل، لكنها حاولت أن تطمئن نفسها بأن حبها لتوم أقوى، كانت مستعدة لأن تعطيه كل ما لديها لتجعله سعيدًا ودافئًا.

نهضت بولي من مقعدها وقالت:

- سأذهب إلى مكتب والدك لأتحدث إليه قليلًا.

سمعت صوت فاني تناديها من الأعلى وهي في طريقها نحو الطابق السفلي، فكرت بولي أن فاني وأمها تحتاجان إليها أكثر من السيد شو.

- ما الأمر؟

- أمي نامت قليلًا لتستريح، هل تستطيعين الجلوس معنا هنا في الغرفة والحديث معنا دون أن نزعجها؟

قالت مود الصغيرة: وأنا أيضًا! أريد الحديث معكما، لن أتسبب في إحداث فوضى، فأنا حزينة جدًا لأني حبيسة غرفتي فيما يتشاجر كل أفراد المنزل ويبكون دون أن أفهم ما يحدث!

جلست مود بجانب الفتاتين على حافة السرير، وهي تستمع بفضول إلى ما تقولا.

- أنا مسرورة حقًّا لأنك تقبلتِ الأمر يا عزيزتي مود، لم أكن أتوقع أنكِ ستجيدين التصرف!

- على الرغم من حزني مما حدث، فإن هناكَ جزءًا في داخلي يشعر بالارتياح لأنني استطعتُ مساعدة عائلتي في هذه المحنة.

أخفضت فاني رأسها وهي تتحدث بأسى، احتضنت بولي صديقتها بحنية، وقالت:

- لا تبدو الأمور بهذا السوء يا عزيزتي، لقد شاهدت كثيرًا من الناس نهضوا مجددًا بعد تعرضهم للمصاعب.

- أعتقد أن تلك القاعدة لا تنطبق علينا يا بولي،

فوالدي مفلس بشكل كامل، ولا أستطيع أن ألومه على شيء، لا نملك شيئًا آخر سوى قطعة أرض صغيرة تملكها أمي، لكن أبي يرفض بيعها رفضًا قاطعًا، مع أن أمي عرضت عليه ذلك لحل مشكلته المالية. تخشى أمي الفقر أكثر من أي شيءٍ آخر في الحياة، ولكن أبي لا يريد أن يحملها عبء المشكلة التي وقع فيها.

- هل تعرفين ماذا سيفعل والدك لحل مشكلته؟

- قال إنه لا يملك خطة في الوقت الراهن، ولكنه ذكر أيضًا أننا سننتقل إلى منزل جدتي الصغير، فلا يصح أن نبقى في قصر كبير مثل هذا بعد أن أفلسنا.

قالت مود الصغيرة وهي تحاول إيجاد جانب إيجابي في الموقف: لا أمانع العيش في منزل صغير حوله حديقة جميلة وغرف صغيرة وخزانة متواضعة، فقد كنت أحلم بمثل هذا المكان.. أنا لا أرى الإفلاس كارثة كبيرة.

- أظن أن عليكِ أولًا انتظار تلك الساعة التي ستأتي فيها العربة لتحمل الأثاث والملابس الجميلة والخدم بعيدًا، ربما حينئذ يتغير رأيك يا صغيرتي.

قالت مود باستياء واضح: هل سيأخذون كل أشيائي حقًا؟

- لا أعرف إن كانوا سيسمحون لنا بالاحتفاظ بشيء، فمن الواضح أنهم سيأخذون كل ما نملكه يا

عزيزتي.

عضت الفتاة الصغيرة الوسادة كأنها تود كتم أنفاسها بها حُزنًا على فقدان كنوزها الثمينة: لن يستولوا على أقراطي. سأخبئها جيدًا، وكذلك ثوبي الجديد وزجاجة عطري الذهبية. يا لها من مصيبة! لم أتوقع أن هذا سيحدث!

حاولت بولي طمأنتها مُجددًا وربتت على كتفها برقة وأخبرتها أن لا أحد يستطيع أخذ مقتنياتها وأشيائها الخاصة.

قالت فاني مُلوحةً بيديها في الهواء: في الواقع أتساءل إن كنا نستطيع الاحتفاظ بخادم واحد فقط لبعض الوقت حتى نتعلم كيف ننجز الأعمال المنزلية!

صفقت مود الصغيرة أن سمعت كلماتها تلك وقالت:

- وأخيرًا سأتعلم الطبخ! سأستطيع سلق البيض وخبز الشطائر تمامًا مثل بولي. سأشتري مئزر المطبخ وسأكنس السلالم، يا للروعة! بالتأكيد سنستمتع بوقتنا.

- لا تسخري منها يا فاني ولا تحاولي إحباطها! دعيها تمارس الطبخ والتنظيف إذا كانت تسعدها.

ابتسمت مود ابتسامة كبيرة على وجهها فهي تحب إنجاز تلك المهام بالفعل، وتزور المطبخ باستمرار لتأخذ أوراق الوصفات المكتوبة.

- في الحقيقة يا بولي، أمي امرأة ضعيفة جدًا ولا تستطيع المساعدة في الأعمال المنزلية، فعليّ أن أقوم بها بدلًا منها، فهل تستطيعين إرشادي؟

أجابتها بولي مازحة: بالطبع يا عزيزتي فهذا أفضل تدريب يمكن أن تحظى به فتاة على الإطلاق!

ضحكت فاني ثم قطبت جبينها وقالت:

- أظن أن كل شيء سيختلف الآن مع الأوضاع الحالية وأنني سأخسر كثيرًا من صديقاتي إذا علموا بإفلاس أبي!

- أظن أن هذا اختبار حقيقي لصداقاتك يا فاني، الصادقة والحقيقية منهن لن تتأثر بذلك أبدًا، فأنا أعرف صديقة جيدًا لن تخذلكِ، بل ستزداد مودةً وقربًا منكِ.

سألتها فاني بعينين دامعتين: حقًا يا بولي؟

قالت مود الصغيرة ببراءة شديدة: تتحدث بولي عن نفسها يا فاني! فهي تقصد أنها الصديقة الوحيدة التي لن تتغير معنا بعد أن أصبحنا فقراء لأنها تنتمي إلى طبقة الفقراء!

ضحكت فاني بشدة ونهضت من مكانها كأنها استعادت قوتها مرةً أخرى بفضل الدعم المعنوي الذي قدمته بولي لها.

هتفت مود الصغيرة:

- كم أحب عالم المُفلسين! ثم ابتسمت ابتسامة

بلهاء.

قالت بولي مازحة: يا إلهي! ما الذي جعلكِ تفكرين هكذا؟

بعد مرور بضع دقائق اجتمع أفراد عائلة شو في الخارج حيث توسط الأب الطاولة الرئيسة، وراح يشرح تفاصيل تلك الأزمة المالية الكبيرة أمام أبنائه وبولي. تعجب الأبناء من طريقة تعامل الأب الحكيم مع ما وصلت إليه الحال! فلقد كان يتحدث بهدوء وثقة كأن شيئاً لم يحدث، ثم عانق ابنتيه فاني ومود وقبّلهن بحرارة لأول مرة، مد ذراعه الأخرى ناحية بولي وقال ملاطفاً:

- أين ابنتي الثالثة؟

ركضت بولي نحوه وعانقته بمودة وحب.

تخيل أفراد العائلة حياتهم الجديدة التي تنتظرهم. حدثت مود والدها عن الأطباق البسيطة والمتواضعة التي ستزين سفرتهم في بيتهم الصغير الذي لا يشبه هذا القصر. وتكلمت بحماس عن البطاطا الباردة والكعك الهندي وغيرها من المأكولات التي كانت محظورة عليهم في الماضي. وعدت مود الصغيرة أباها أنها ستكون عوناً لأختها فاني في أعمال البيت والمطبخ بعد أن كانت تعيش بعيدة عن هذه المسؤوليات.

تنهدت فاني بيأس وقالت:

- لن أتمكن ثانيةً من ارتداء القفازات الحريرية!

لم ينطق توم بحرف، جلس في مكانه يُراقب المشهد في صمت محاولًا استيعاب تلك التغيرات الكبيرة التي أطاحت بمنزلهم.

قاطع السيد شو ابنته قائلًا:

- علينا يا أولاد أن نتعامل مع الموقف بجدية أكبر، فلا عيب في الفقر على الإطلاق، وإنما ما يُشين المرء هو أن يتصف بعدم النزاهة والصدق.

نظرت بولي إلى الرجل بإعجاب بالغ، كانت في السابق تُحبه لأنه يحسن معاملتها، واليوم ازداد تقديرها واحترامها له، شعرت بالندم لأنها كانت تظنه يهتم بجمع الأموال فقط.

لم يجد توم ما ينطق به من كلمات تعبر عما يجول في صدره، فاكتفى بالجلوس صامتا في زاوية الغرفة، وهو يحدق بنظرات مذهولة في وجوه الحاضرين، فقد تربى على فكرة أن الرجال لا يبكون أمام الآخرين، ولا يظهرون ضعفهم أو حزنهم، بل يخفون مشاعرهم في أعماقهم.

الفصل السادس عشر

بعد مرور أسابيع قليلة عرض السيد شو منزله الضخم في مزاد علني. كان درسًا قاسيًا لأفراد العائلة الذين تعلّموا درسًا صعبًا، فتلك الأجنحة التي يخلقها الثراء لا تدوم إلى الأبد، وهكذا اضطروا إلى العيش في فقر بعد أن كانوا من أكثر عائلات البلد ثراءً. انتقلوا إلى منزل الجدة المتواضع بعد أن كانوا يسكنون قصرًا فخمًا مهيبًا. ورضوا بتلك القطع البالية المهترئة من الأثاث التي أبقتها الجدة الكُبرى قبل رحيلها. في هذه المحنة، تبين لهم من هم أصدقاؤهم الحقيقيون، فبعضهم بقي مخلصًا لهم في شدتهم، وبعضهم هرب منهم خوفًا من التورط معهم، وقد حرص كثيرون على إرسال خطابات المواساة للسيد شو، كان يقرؤها لزوجته المرهقة التي كانت تذهب إلى فراشها كل ليلة مغشيًا عليها من شدة الأسى.

بذلت فاني جهدها لتحمل أعباء المسؤولية الجديدة، في السابق كانت فاني شو مجرد فتاة ثرية جميلة مدللة لا تستطيع أداء أبسط المهام المنزلية، ولماذا تفعل ذلك ما دامت تملك الخدم، ومع ذلك كانت تضيق ذرعًا من حالة الفراغ التي تحياها داخل قصرهم. لم تكن قادرة على رؤية نفسها من الداخل بل كانت تقيم نفسها وفق الصورة التي يرسمها لها الآخرون، أما الآن فقد أصبحت مسؤولة عن شؤون المنزل، فهي التي تنجز

كل شيء تساعدها أختها الصغيرة مود الصغيرة التي تعلمت صنع الشطائر والفطائر المُحلاة. كانت بولي تزورهم أكثر مما مضى فيقضي الجميع أوقات ممتعة معًا.

قالت فاني بحسرة: لقد أكلت العثة ثيابي في الخزانة يا بولي ولم يعد لديّ ثياب جديدة. في الواقع إني بحاجة إلى ثوب لفصل الربيع، كنت في السابق أذهب إلى جارتنا التي تعمل في الحياكة ولكني لا أملك مالًا كافيًا لذلك حاليًا، ولا أملك قماشًا كافيًا لأحيك الثوب بنفسي.

- حسنًا، يُمكنني مساعدتك في ذلك. أحضري لي كل الأقمشة التي تملكينها هنا في المنزل وسأصنع لكِ ثوبًا جديدًا من لا شيء!

- هل أحضر لكِ نوعًا معينًا من الأقمشة؟

- لا! ليس ضروريًا، يُمكنكِ ببساطة جلب الخرق والأسمال وأي قماش تجدينه في الأدراج أو في غرفة الملابس.

جلبت لها فاني أقمشة كثيرة عثرت عليها في أرجاء المنزل وأعطتها لبولي التي شرعت في حياكة ثوب ربيعي منها.

بكت الصغيرة مود وقالت لبولي إنها تريد أيضًا قبعة ربيعية مزركشة، ربتت بولي على كتفها بخفة وقطعت لها وعدًا أن تصنع لها قبعة.

- هذه هي المرة الأولى التي أرتدي فيها ثوبًا

معاد تصنيعه هكذا، هل تظنين أن أحدًا سيلاحظ ذلك يا بولي؟

- وإذا ما اكتشف أحدهم الأمر، فهل سيجرح ذلك مشاعرك؟ لماذا تهتمين برأي الآخرين وأنتِ تبدين رائعة وأنيقة؟ لا أشعر بما تتحدثين عنه عندما أرتدي ثوبًا مُعاد تصنيعه أو أحيكه بنفسي في المنزل.

- أوه! أنا آسفة جدًا يا بولي! لم أقصد أن أقول ذلك، فأنا لست معتادة على التصرف بعفوية، جميع صديقاتي يشترين ثيابًا باهظة الثمن ومستوردة، ويسهل عليهن كشف حقيقة هذا الثوب المُتواضع. في الحقيقة، لم أمر بتجربة مثل هذه من قبل، لذلك أرجوكِ أن تسامحيني.

اتسعت حدقتاها عندما رأت ذلك الثوب الربيعي الرائع الذي حاكته بولي بمهارة.

وبدأت بولي في إرساء تعليماتها الخاصة تمامًا كما لو كانت أمًا:

- هذا الثوب الربيعي هو ثمرة جهدي وعطائي لكِ يا حبيبتي. أظن أنه يناسبكِ جدًا، لكن قد تحتاجين إلى تعديل الأكمام قليلًا. زيّنته بالرسوم والعقد التي تتماشى مع الموضة المنتشرة هذه الأيام. ولكن ألا تظنين أن هذا الوشاح الداكن حول عنقك يخالف جمال الثوب؟ يبدو كأنه من عصور أخرى.

ارتدت فاني الثوب فورًا، ووقفت تتأمل نفسها في المرآة التي تتوسط غرفة المعيشة، ثم تنهدت بارتياح بعد أن رأت علامات الرضا على وجه مودي وبولي.

قالت مود الصغيرة مازحةً: أظن أن تلك القاعدة المُستديرة التي تؤطر الثوب لم تعد مناسبة لهذا العصر أيضًا يا بولي! فهي تبدو مُضحكة خارجة عن المألوف.

حاولت بولي المساعدة على طريقتها، فسألت فاني:

- هل تبيعين بعض ثيابكِ القديمة للأصدقاء؟

- لم أفعل ذلك سابقًا، مع أن هناك بعض الثياب التي لم أعد بحاجة إليها.

قدمت بولي عرضها بأدب: حسنًا، هل يمكنني أن أشتري منكِ بعض الثياب التي تعجبني؟

امتعضت فاني وقالت:

- هل تظنين أنني بحاجة إلى بيع ملابسي؟

قالت بولي بعصبية شديدة كأنها قد أُصيبت للتو بداء الكوليرا: حسنًا لا أريد.

قالت فاني بعد مدة من الصمت: هل لي أن أخبركِ سرًا؟

- في الواقع عرضت عليّ إحدى الصديقات شراء ثوبي ذي الفراء باهظ الثمن لكني رفضت

ذلك رفضًا قاطعًا. لست أنا من تستجدي المال من الآخرين لأنها تمر بظروف مادية صعبة.

- يا عزيزتي فاني، اسمعي كلامي جيدًا، فهذا التصرف لن يفيدكِ في شيء. فالملوك يتكيفون بسهولة مع الأحداث بعد خسارة عروشهم، ويسعون للتقدم والتغير دون تعقيد. ولذلك، فإن بيع ثيابك لا يعني أنكِ تخسرين شرفكِ أو كرامتكِ، بل يعني أنكِ تستغلين الفرصة لتحسين حالتكِ المعيشية الحاليَة. فهذا جزء من الخطة فحسب.

- لا يمكنني ذلك يا بولي، فقد اقترحت تريكس على بيلا بعد إعلان أبي إفلاسه أن أعطيها قطعة من ثيابي مجانًا! يبدو أن ثيابي أصبحت سلعة رخيصة الآن بعد كل ما مررنا به.

- في الواقع يا فاني لا أجد هذا مُبررًا لرفضك المبدأ نفسه فلو كنت مكانك لفعلتها.

- حسنًا يا بولي سأفكر في الأمر.

قالت مود الصغيرة بحماس وشجاعة: أنا مع بولي في رأيها يا فاني. لو كان لدي مثل ما تملكين من ثياب، لبعتها جميعًا في مزاد علني لأساهم في حل أزمتنا.

- لا تقلقي يا مود، سنحضر ثياب فاني كلها أولًا، ثم سننظمها. ولكن الآن لنكمل مهامنا الحالية، فهذه الثياب تحتاج إلى تعديلات كثيرة

لتبدو أفضل. ولا نحتاج إلى شرائها، فهناك أسر غنية كثيرة ترسل إلينا ملابسها القديمة التي لم تعد تستخدمها، مثل الأوشحة والأقمشة والخرق وأطواق الورود والجوارب والأحذية. ويمكننا أن نتشاركها معًا. أريد فقط أن أسأل أمي إذا كانت قد استلمت شيئًا من تلك الأسر مؤخرًا، حتى نستطيع فرزها ومعرفة ما نفعل بها.

- كان أخي ويل يُلَحِّن قصائد شعرية جميلة في تلك الأوقات التي كنا نجلس فيها معًا لنفرز تلك الأشياء التي تصل إلينا.

قالت مود الصغرى: أجل! أعتقد أنه سيكون شاعرًا مُبدعًا تمامًا مثل السيد ويليام شكسبير!

قالت بولي ضاحكةً: لا أعتقد أنه سيصل إلى تلك المرحلة من الشهرة.

قاطعتها فاني بسؤالها:

- وهل كانت أمك تسمح لكم بارتداء تلك الأشياء التي أرسلتها العائلات الغنية؟

- كانت تسمح لنا بارتداء بعضها فقط، أقصد تلك الأشياء التي ما زالت بحالة جيدة، وتترك لنا ما اهترأ من قبعات وتنورات لنلعب بها. كان الجيران يحدقون إلينا دائمًا. كانت أعينهم البسيطة تلاحقنا في كل مكان، وأطفالهم ذوو الوجوه الملطخة بالوحل يجرون خلفنا ونحن نكور تلك القبعات الممزقة كأنها كرة قدم ونركلها

بعيدًا بكل ما أوتينا من قوة! ما زلت أذكر تلك اللحظات التي كنا نركض فيها خلف الكرة في الحدائق العشبية البسيطة ثم نغني ونعزف على أدواتنا الموسيقية البسيطة المتواضعة، ونجلس على مقاعد العربات الحديدية التي لا يركبها إلا الفقراء، فنشعر أن السكون يغمر رؤوسنا كأن صوت التشجيع قد اختفى تمامًا ونتساءل في عجب بلغة أقرب إلى الهمس: ترى أين ذهب كل هذا الضجيج؟ كنت أركض مع أشقائي جيمي وويل حتى نصل إلى نهاية الزقاق فأعود ضاحكة غير قادرة على التقاط أنفاسي من فرطِ التعب.

انبهرت مود الصغيرة بالقصة التي روتها بولي فقفزت في الهواء وسقطت على الأريكة كأنها تشاركها فرحتها. فذكرياتها البسيطة ذابت في قلبها مثل الحلوى.

قالت مود مُتنهدةً في حسرة: أعتقد أن أهل الريف يقضون أوقاتًا ممتعة أكثر منا، لم أركب يومًا عربة حديدية أو دوارة. أظن أن هذا غير عادل على الإطلاق!

- استمعي إليّ يا بولي، لا تهتمي بحفظ ملابسي وأغراضي، فقد قررت أن أصير زوجة فلاح أصنع الجبن والزبد. وأرغب في أن أنجب عشرة أولاد وأربي الخنازير في حظيرة منزلي.

قالت فاني ساخرةً: أراهن أنها ستفعل ذلك دون تأخير إذا عثرت على هذا الفلاح في مكان ما!

قالت مود بكبرياء: أوه! سأتزوج ويل، سألته وقال لي إنه لا يمانع ذلك! سيذهب إلى الكنيسة أيام الآحاد وسيعمل في المزرعة بقية أيام الأسبوع. لا تسخرن مني، فقد خططنا لكل شيء بالفعل. ثم شرعت في تعديل قبعتها أمام المرآة متسائلة إن كانت زوجة الفلاح ترتدي هذا النوع من القبعات المزودة بالريش أم لا؟

سألتها فاني بسخرية: يا إلهي! ماذا حصل لك أيتها الطفلة البريئة؟ كيف تفكرين في هذا الأمر الآن؟

ابتسمت بولي ابتسامة واسعة: كم كنت أتمنى أن أرى وجه أخي ويل عندما سألته مود إن كان يرغب في الزواج منها.

الفصل السابع عشر

كانت معاناة توم شو أكثر من بقية أفراد العائلة، فلم تقف مشكلته عند الأزمة المالية التي ألمّت بهم، بل تورط أيضًا في ديون ثقيلة وخسر فرصته في الدراسة الجامعية، وعلى الرغم من مضي زمن طويل على الحادثة، لم يتوقف الناس عن الحديث عن فعلته الشنيعة، وظلوا ينعتونه بالوحش الهائج الذي ضرب رفيقه في الصف.

لم تتوقف ألسنة المُنتقدين لحظة واحدة، قيل عنه أنه دمر مستقبله وأضاع حياته المهنية فلم يعد هناك أمل في أن يعود إلى حياته السابقة، ندم الفتى على ما فعل بشدة وعزم على التخلي عن تصرفاته الطائشة وأن يصبح رجلًا قويًا مسؤولًا.

غمره شعور بالكآبة، فهو لا يعرف كيف يمكن أن يساعد عائلته؟ كل من حوله يساهم بشكل ما، فشقيقاته يتولين كل الأعمال المنزلية في هذا البيت الصغير الجديد المتواضع. وهو لا يستطيع أن يفعل مثلهن، ولا يستطيع أن يكسب لقمة عيشه حتى يساند والده في أزمته.

هام توم على وجهه وقتًا طويلًا. لم يكن يعرف كيف السبيل لإنجاز أي شيء في حياته؟ شعر أنه عبء ثقيل على أبيه وأسرته فتجنب مجالستهم أو النظر في أعينهم، كان يهرب بعيدًا ليقضي وقته بمفرده منعزلًا عنهم، ويفكر في ما يجب أن يفعله.

كان عزاؤه الوحيد في تلك اللحظات التي يجلس فيها إلى جوار أمه، تلك السيدة العجوز المريضة البائسة. كانت تتحدث إليه بين الحين والآخر بصوتها الضعيف المُرتجف، وتشير إلى والده السيد شو الذي كان يسير في الفناء بقلق وغضب، كأنه يحمل هموم الدنيا على عاتقه. أخبرت ابنها الوحيد أنها شديدة القلق على والده فهو لم يتناول الطعام منذ بضعة أيام! ذلك الرجل الذي شاب رأسه وما زال يمضي بخوف بالغ في طريقه، فعلى الرغم من سنه المتقدمة فإنه لم يتمكن من الوصول بأبنائه إلى بر الأمان.

كان توم يراقبه بحزن عميق. كان يرى وجهه المُنكسر ويعلم أنه يذهب إلى مكتبه كل يوم ليجاهد من أجل إنقاذ عائلته من هذه الضائقة. وفي المقابل، كان ابنه يقضي وقته مع النساء في المنزل، يطلب من أمه أن تمنحه السكينة في هذه الأزمة الشديدة. كان يشعر بالأسى لأنه يُحمّل والديه عبئًا زائدًا، وكان يعاني من صراع نفسي يحطّم روحه. لم يرد أن يتخلى عن والده في مواجهة العاصفة، لذا قال لأمه ملوحًا بيده عاليًا كمَن يقهر عدوه: أعرف أن أبي يشعر بالخجل لأنه أنجب ابنًا عديم النفع مثلي! أعرف أن الجميع يظنون أني عبء ثقيل لكني سأريهم جميعًا ماذا يمكنني فعله.

نهض من مقعده وتوجه ناحية والده الذي كان

يستعد للخروج من الفناء، وقال له:

- هل يمكن أن أرافقك يا أبي؟

ابتسم له والده ونظر إليه كأنه قد تمكن من قراءة ما يريده بسهولة.

- حسنًا، يمكنك ذلك يا تومي.

دارت عشرات الأحاديث الشائقة بين الابن ووالده، تحدثوا عن كل شيء بدءًا من أخبار السياسة والحب والآباء والأمهات وأبرز القضايا الاجتماعية والحروب. استمتعا بالمحادثة حتى وصل السيد شو إلى مكتبه، ثم ودّع توم والده قائلًا:

- أتمنى لك يومًا سعيدًا يا أبي، وأنا سأعود إلى المنزل لأساعد أمي في الأعمال المنزلية. ألا تظن أن هذا سوف يسعدها؟

قال الأب بصوت مبتهج: أجل، أظن ذلك.

كان توم يتجول في المنزل حين سمع صوتًا من المطبخ، فتوجه إلى هناك. رأى بولي وهي تعلّم مود الصغيرة كيف تطبخ وصفة جديدة. كانت مود تتعلم الطبخ باجتهاد، فقد أتقنت صناعة الحلوى لأن فاني لا تجيدها والسيدة شو لا تستطيع أن تنجز أعمال المنزل. كانت مود الوحيدة التي تحب الطبخ، والسيد شو كان يحب أن يجد طبق حلوى على المائدة.

قالت مود في غضب:

- يا إلهي! من فضلك غادر يا توم، فنحن

مشغولتان جدًا في صنع أطباقِ شهية، والرجال ليس مكانهم المطبخ!

- في الواقع ينتابني الفضول، أود أن أقدّم لكم خدمتي في المطبخ إذا سمحتم لي فأمي نائمة في غرفتها وفاني في الخارج برفقة صديقاتها.

قالت مود هامسةً في أذن بولي: لا تستمعي إليه يا بولي! إنه يجهل شؤون الطبخ كليًا.

صمتت بولي برهة كأنها تتأمل المسألة ثم قالت:

- حسنًا، تعال إلى هنا، واعجن هذا العجين بقوة فهو بحاجة إلى يدين قويتين، وأنا متعبة جدًا.

- بالطبع يمكنني إنجاز تلك المهمة بسهولة.

توجه توم إلى مقعده فورًا، وبدأ العمل، فيما جلست بولي بين أواني الزبدة والصناديق الكبيرة تُشرف عليه.

- أنت تُبلي بلاءً حسنًا يا توم! رائع! ولكن أخبرني لماذا يبرع الأولاد الأشقياء في تجهيز العجين؟

قال توم ضاحكًا مواصلًا عمله بجد: ربما لأن ضرب العجين بقوة يشعرهم بالراحة.

قالت بولي: يا لك من فتى ذكي! ثم اقتربت منه وأطعمته قطعة من كعكة الخوخ.

قال توم: أوه! أطعميني أكثر من فضلكِ يا بولي! إنها لذيذة جدا! ثم تناولها بشراهة.

- لقد تعلمت صناعة كعكة البرقوق مذ كنت صغيرة، وأصبحت ماهرة فيها. أظن أن لدي موهبة في الطبخ.

- في الحقيقة يا بولي، أنت فتاة موهوبة في كل شيء. أنت تستطيعين إسعاد وإرضاء الآخرين بكل الطرق، سواء بخدمتهم في موقف عظيم أو بصنع طبق شهي من الطعام لهم تظهرين به مشاعرك الطيبة نحوهم. أنت فتاة محظوظة حقًا!

- انظري إلى توم يا بولي! إنه يتحفنا بخطبة عظيمة!

قال توم مازحًا: أعتقد أنني أستطيع ذلك، هل تستطيعين أن تلقي خطبة مُلهِمة لنا الآن يا بولي؟

قالت بولي بأداء مسرحي ساخر: نعم، بالتأكيد، لنبدأ إذًا خطبتنا، نحن على وشك أن نتذوق نعمة من نعم الله وهي كعكة البرقوق التي منحنا إياه الرب. فلنشكر الله على هذه الهدية، ولنستمتع بمذاقها، ولنشعر بلذتها مع كل لقمة.

ضحك توم وقال:

- رائع! ثم صفق مُستخدمًا ملعقته الخشبية في حماس:

- رغم أني أوشكت أن أغفو فإن خطبتك جميلة يا سيدتي! أظن أنني أصبحت من معجبيك الآن.

قالت بولي ساخرة: أشكرك جدًا يا أخي، نحن نسعى لخدمة البشرية. أنهت خفق العجين ووضعته

في الفرن ثم صعدت إلى الطابق العلوي وبقي توم ومود وحدهما في المطبخ.

سألته مود فجأة دون مقدمات: هل تعرف كل شيء عن التاريخ يا توم؟

قال توم بتواضع: في الواقع لا أعرف كل شيء.

- أريد فقط أن أعرف هل كان هناك شخص اسمه السير فيليب في عهد الملكة إليزابيث؟

- هل تقصدين السير فيليب ستيفني؟ نعم كان رجلًا رائعًا.

- أظن أن الفتيات لم يتحدثن عن هذا الرجل!

- ما هذا الكلام الغريب يا صغيرتي؟

- لم أستطع أن أفهم ما كانتا تتحدثان عنه بالضبط، فلم يبقَ في ذاكرتي منه إلا القليل. لكني سمعت بولي وفاني تتناقشان عن سرٍ ما، وعندما سألت فاني عن اسم الشخص الذي يثير اهتمامهما قالت السير فيليب، وضحكت بسخرية ونكزت بولي بمرفقها. وفي تلك اللحظة علمت أنهما لا يقصدان الشخصية التاريخية التي تحمل هذا الاسم.

- أظن أن عليكِ إذًا ألا تتجسسي عليهما يا عزيزتي فلو كانتَ فاني وبولي ترغبان في إخبار السر لأحد لأخبراني به!

- كلا! لن ترغبا في إخبارك فأنت لا تنتمي إلى عالم الفتيات، أما أنا فأنتمي إليه كما أني لم أعد طفلة بلهاء صغيرة، يمكنهما أن تقولا أسرارهما

أمامي ولن أفشيها لأحد. لقد غضبت جدًا من تصرفهما المُستفز، ولكن استطعت أن أسمع بعض ما قالتاه عن السيد ستيفني. فقد ابتسمت شفتاهما عند ذكر اسمه وظننت فاني أنني مُشغولة بحياكة القبعة ولم أنتبه لشيء.

- سألها توم على طريقة رجال التحقيق: هل بدت السعادة أكثر على وجه فاني أم بولي عند الحديث عنه.

- أظن أن بولي كانت أكثر سعادة من فاني في تلك اللحظة. فلقد تبدلت ملامح وجهها كليًا عندما سمعت اسم السيد ستيفني، أما فاني فقد ضحكت كثيرًا فحسب. أظن أن بولي هي العاشقة بطلة الحكاية!

قال توم في ارتباك: حسنًا يا مود، اصمتي الآن فبولي قادمة إلى هنا.

جاءت بولي نحوهما بسرعة، كانت تحمل طبق البيض المخفوق، ألقت نظرة سريعة على توم الذي كان يقف خلفها مُباشرةً، فأحست أن هناك شيئًا غريبًا قد حدث إذ اكتست ملامحه نظرة حزينة شاردة، فكرت في نفسها هل يبدو توم حزينًا لأنه متعب فقط أم أن هناك شيئًا آخر.

عندما انتهى توم من عمله، أخذ كتبه من الرف المقابل، وقبل أن يغادر المطبخ أعطته بولي قطعة من كعكة البرقوق، تناولها على مضض كأنه لم

يشعر بلذتها هذه المرة، ثم غادر إلى غرفة القراءة الصغيرة.

وجد توم عائلته تنتظره إلى مائدةِ الإفطار في صباح اليوم التالي، وهم يغنون «سنة سعيدة يا توم». عبر الجميع عن بهجتهم متمنين له سنة سعيدة وأعطوه هدايا عيد الميلاد، تقبل توم الهدايا ببرود حتى جاء دور هدية بولي، حينها شعر بلذةٍ غريبة لم يختبرها من قبل.

في المساء دعته بولي إلى «احتفال الشاي»، التف كل أفراد الأسرة حوله وأعربوا عن مشاعرهم نحوه.

اقتربت مود الصغيرة من أخيها وقالت:

- لقد صنعت هذه من أجلك يا توم!

ابتسم توم وقال:

- حقًا يا مود؟

- أجل، إنها كعكة البرقوق التي تُحبها، لقد حاولت أن أصنعها بنفس طريقة جدتي فأنا أعرف جيدًا كم كنت تحبها! أتمنى أن أكون تمكنت من ذلك. أود أن أخبرك أيضًا أنك أبليت حسنًا في صناعة الكعك خلال المرة السابقة، قالت مود فيما كان توم يتأمل هدية بولي بحماس كأنه لا يرى سواها.

رن جرس الباب فجأة، وتوجهت فاني لفتحه على الفور لكنها ظلت واقفة في مكانها عدة دقائق

لفتت أنظار الجميع إليها. نهض السيد شو من مكانه غاضبًا وقد تبدلت ملامحه كليًا ثم سألها:

- ما الأمر؟

كانت فاني تُمسك بخطاب في يدها ويبدو على وجهها الذعر الشديد، ظنّ والدها أن الخطاب أرسل إليها كما حدث في السابق، اقترب منها أكثر وخطف الخطاب من يدها صارخًا:

- ما الأمر؟

اغرورقت عينا فاني بالدموع وقالت بصوتٍ مبحوح:

- هذا الخطاب ليس لي!

لم يصدقها والدها، فضّ الظرف وقرأ الرسالة بوجهٍ شديد العبوس ثم قال:

- هذا الخطاب لك يا توم! إنه من خطيبتك تريكس!

تناول توم الرسالة من والده وذهب لقراءتها على مهلٍ في مكتبه. لم تفهم بولي سبب هذا الغضب والارتباك؟ ترى، ما الذي حدث حتى ينقلب المنزل رأسًا على عقب هكذا؟ ولماذا تنتحب فاني؟!

ذهبت بولي خلف توم. وقفت وراء الباب مباشرةً مترقبة. انتفض جسدها عندما سمعت صوتًا غاضبًا من الداخل، ارتبكت قليلًا وكادت تتعثر ثم فتحت الباب وقالت:

- ما الأمر يا توم؟ ما الذي حدث؟ أخبرني!

تسمر توم في مكانه كأنه تمثال من الشمع. بدا الغضب جليًا على وجهه كالنار في الهشيم. اقتربت منه بولي وسألته:

- مَن أرسل هذا الخطاب؟

ثار توم وجن جنونه، ثم أخذ يتجول في الغرفة جيئة وذهابًا كما لو كان دبًا غاضبًا خرج عن حدود السيطرة، ثم قال:

- إنها تريكس!

- ما الأمر؟

قال الفتى الغاضب: يُمكنكِ قراءة الخطاب بنفسك يا بولي!

أمسكت بولي الرسالة وبدأت تلتهمها بعينيها على الفور ثم شحب لونها فجأة بعد قراءتها.

- ماذا؟! إنها تريد أن تنفصل عنك وأن تحصل على حريتها لأنها أغرمت بشخصٍ آخر!

- أجل! هل تصدقين ذلك؟ أشعر بالغضب الشديد! أحس بأن قلبي يتألم! لقد تعرضت للخيانة يا بولي!

- من فضلك يا توم حاول أن تهدأ قليلًا!

- لا أستطيع ذلك، كُنْت في الماضي أهدأ بعد غضبي عندما تحدثني جدتي، لكني الآن أشعر بعد رحيلها بالوحدة الشديدة فلم يبقَ لي

أحد يُخَفِّف عنّي! أشعر بأني أختنق يا بولي! هل تستطيعين مساعدتي؟

قالت بولي بعينين دامعتين: بالطبع.

- هل بإمكانك تدليك رأسي بيديكِ كما تفعلين مع شقيقك؟

فكرت بولي لوهلة ثم أجابته دون تردد:

- أجل يا توم بالطبع.

تمدد توم على الأريكة وجلست بولي إلى جواره ثم بدأت تدلك فروة رأسه بأطراف أصابعها بخفة كأنه طفل صغير. شعرت بمزيج من السعادة والشجن لأنها مع توم الذي انفصل عن خطيبته. هو يريد أن تكون معه لأنه يثق بها أكثر من أي شخص آخر في هذا العالم. لكنها شعرت بالارتباك لقربها منه إلى هذه الدرجة. اضطربت الفتاة البسيطة وابتعدت عنه فجأة.

سألها توم: ما بك يا بولي؟

- لا شيء.

- حسنًا، هل يمكنك أن تجلسي إلى جواري؟ ثم جلس على الأريكة مرة أخرى واضعًا رأسه بين يديها.

سألته بولي في محاولة بائسة لإخفاء الحرج الذي تشعر به: ما الذي تنوي فعله يا توم؟

- في الواقع أفكر في خطط كثيرة ومنها السفر

إلى الخارج، فأنا أرغب في الذهاب إلى كاليفورنيا أو أستراليا أو إلى أي بلد آخر يمكنني فيه جمع المال والثروة.

سألته بولي بدهشة كأن كلامه صدمها: حقًا؟

- أعلم أن هذا سيكون صعبًا على أمي وأخواتي وأنا لست مستعدًا لترك البلاد، لكن عليّ أن أفعل ما يجب.

قالت بولي بحزن: إذًا ليكن.

- لم أجد وظيفة تناسبني في هذه البلاد، وأظن أنني لست مناسبًا لوظيفة تقليدية. لا أستطيع أن أحتمل الوضع هنا، فالجميع يعرف تاريخ عائلتي الثرية وهذا يؤثر في معاملتهم لي. في الخارج، سأكون حرًا في فعل أي عمل دون أن يهتم أحد. سأبيع القبعات أو إبر الحياكة أو أعمل في محطة القطارات. لا يهمني نوع العمل.

- أجل يا توم، أتفق معك.

- من المُريح حقًا أن أجد شخصًا مثلكِ أستطيع التحدث معه. سمعتك أمس تقولين لفاني إن شقيقك نيد حصل على فرصة عمل جيدة في الغرب وأنه يدعو شقيقك ويل للانضمام إليه هناك. فكرت في طلب مساعدة شقيقك نيد لإيجاد فرصة لي. هل تظنين أن هذا ممكن؟

- بالتأكيد يا توم! إذا كنت جادًا في البحث عن عمل، فسأسأل شقيقي نيد عن ذلك. أظن

أنه سيرحب بمساعدتك. هل ترغب في أن أراسله وأخبره بذلك؟

- شكرًا لك يا عزيزتي بولي، سأكون ممتنًا إذا فعلت ذلك. لا أود أن أخبر والدي بهذا الأمر حتى يكون لدي خطة واضحة لما سأفعله.

نظرت بولي إلى توم بإعجاب. كان يتحدث بطريقة جديدة مدهشة. لم يعد يذكر الرقص والثياب الفخمة والفتيات، بل تحدث عن العمل والحياة والخطط. كان يحرك يديه القويتين بحماس كأنه يرغب في التحليق.

قالت بولي: أنا واثقة أن والدك سيُرَحب بالأمر على الفور، ثم أضافت:

- ألا تعرف أن والدك قد بدأ تاريخه في العمل في مهنة متواضعة جدًا، كان مُساعد تاجر؟ ألم يخبرك بتلك القصة؟

- نعم، قال لي ذلك مرة واحدة. في البداية، كانت تزعجني هذه القصة لأنها كانت تجعلني أشعر بالخجل. لكن أمس، عاد والدي وروى لي هذه القصة مرة أخرى، فوجدت فيها نقاطًا مشرقة. ساعدتني هذه القصة على فهم قيمة الشجاعة التي استخدمها والدي لتحقيق أهدافه من رحلته. نجح في النهاية!

- أنا مسرورة جدًا لأنك تحدث عن والدك بتلك الطريقة يا توم. في الماضي، كنت أظن أنك

لا تُقدره.

- أنا ممتن لك يا بولي لأنك ساهمت في تقوية علاقتي بأبي. بفضل مساعدتك، تعلمت أن أفهم هذا الرجل الذي كان غريبًا عني مع أني أعيش معه في نفس المنزل. إنه أمر عجيب أن نعيش مع أشخاص لسنوات دون معرفتهم حقًا، حتى تأتي الحياة وتختبرنا لتجعلنا نكتشفهم من جديد.

اقترب منها توم وأمسك بيدها في رقة ثم همس:

- في الواقع هناك شيء ما أرغب في إخبارك به يا بولي؟

تسارعت نبضات قلبها في تلك اللحظة وارتبكت ثم قالت:

- ما الأمر يا توم؟

- هل تعرفين أنني مَن طلبت من تريكس أن ننفصل عن بعضنا أولًا؟

- ماذا؟ لم أكن أتوقع هذا الأمر.

- في الحقيقة لقد أدركت أن تريكس لم تكن تُحبني بل كان يُعجبها ثرائي في السابق، كانت تُحب تلك الهالة المحيطة بالسيد توم شو لكنها لم تكن تُحبني حقًا! كنت أشعر ببرودة مشاعرها يومًا بعد يوم.

صمتت بولي دقيقة دون أن تعرف ما الذي عليها قوله ثم أمسكت بيديه دون خوف هذه المرة وهمست:

- أتمنى أن تتحسن أوضاعك قريبًا وتصبح ثريًّا مرةً أخرى.

- هل تظنين أنني أستطيع ذلك؟

- نعم يا توم.

- هل تعرفين السيد ستيفني جيدًا؟

- أعرف عنه بعض الأمور. أعتقد أنه شخص صالح.

- أجل.

لاذت بولي بالصمت برهة فهي تعرف جيدًا أن حديثها الفاتر مع ستيفني في آخر مرة قابلته فيها هو سبب قراره مغادرة البلد، لكنها خشيت أن تتحدث عن تلك المسألة أو أن تُلمح إلى أن تصرفها كان نابعًا من إخلاصها لشقيقته فاني التي تُحب السيد ستيفني. بذلت جهدها لتبدو هادئة حتى لا تفضح سر صديقتها أبدًا.

- هل ستكتبين لأخيكِ نيد قريبًا يا بولي؟

- أجل، سأكتب له وأُخبره برغبتكِ في الانتقال إلى الغرب من أجل العمل.

الفصل الثامن عشر

كتبت بولي خطابًا متحمسًا لشقيقها نيد، وانتظرت رده طويلًا دون جدوى، قرر توم في نهاية المطاف أن يسافر إلى الغرب بمفرده، فهذه فرصة جيدة لشاب مثله كان قد نشأ في ظل الطبقة الأرستقراطية. كان عليه أن يرى العالم ويكوّن آراء ووجهات نظر متنوعة عن الأمور المختلفة. كانت هذه الخصلة ضرورية حتى يتولى مسؤولية حياته.

على الرغم من حزن أمه وشقيقاته، فإنهن فهمن أن هذا هو الخيار الأفضل لتوم في الوقت الحالي. ساند السيد ستيفني توم في تحضيراته للرحلة. كما أن ويل شقيق بولي قد تحلى بالإيثار وسمح لتوم بالسفر بدلاً منه هذه المرة.

سافر توم إلى الغرب، وذهبت بولي إلى بلدتها الريفية خلال فصل الصيف، وتوجهت مود الصغيرة إلى الشاطئ برفقة بيلا، بينما ظلت فاني في المنزل لإنجاز مهامها المنزلية الشاقة.

خلال هذه المدة، قرأت بولي جميع رسائل شقيقها نيد التي كان يطمئنها فيها على حال توم في الغرب. كما أن توم كان يرسل خطابًا أسبوعيا لأسرته، وكانت فاني تقرؤه وتخبر صديقتها بولي عما كتبه توم.

اطمأن الجميع على توم، فقد حقق تقدمًا ملحوظًا

في مجال عمله. كما أنه كان يجتهد في توفير المال رغم المصاعب والتحديات.

كانت بولي حكيمة وعقلانية في استغلال جهودها حسب حالة الطقس. كانت تفكر في الصيف، وتخطط في الخريف، وتعمل في الشتاء. وكانت تستمتع بالربيع بالخروج في نزهات لإنعاش نفسها. لم تكثر من الحديث عن نفسها، بل اكتفت بالإشارة إلى الأحداث الرئيسة. حتى أن فاني عاتبتها مرة عندما مرضت ولم تخبرها.

كتبت لها بولي تقول:

- إنني أمرض كثيرًا هذه الأيام بسبب سوء أحوال الطقس حتى أن وجهي بات شاحبا جدًا، لكني سأتحسن قريبًا حتى يمكنني العمل من جديد.

- لكنك لا تبدين على طبيعتكِ يا عزيزتي؟ هل أصابكِ مكروه؟

- أنا بخير يا فاني، لا تقلقي، أظن أن الطقس المتغير هو السبب. سوف ترين أني بصحة جيدة بنفسك عندما نلتقي قريبًا، أخبريني الآن هل أنتِ بخير؟ هل كل شيء يسير معكِ جيدًا؟

بعد مرور بضعة أشهر التقت بولي صديقتها المقربة فاني في منزلها، وحينها سألتها الأخيرة في لهفة واضحة:

- أخبريني يا بولي هل لمحت للسيد ستيفني عن

حبي له؟

قالت بولي: بالطبع لا. لم أخبره بأي شيء عن هذا الأمر على الإطلاق، لماذا تقولين ذلك؟

- في الحقيقة، أخشى أن تكوني مغرمة بالسيد ستيفني، وتبتعدين عنه بسببي فقط! أرجوكِ أخبريني الحقيقة يا بولي.

- أقسم لكِ أنني لا أحب السيد ستيفني أبدًا، إن قلبي ينبض لشخص آخر. ولو كان السيد ستيفني آخر رجل في هذا العالم فلن أتزوجه.

ابتسمت فاني ثم اقتربت منها كثيرًا وهمست:

- هل أعرف هذا الشخص الآخر؟

- أجل.

- هل هو شخص ذكي وحكيم؟

- لا.

- كيف هذا، فأنتِ لن تحبي إلا شخصًا من هذا النوع؟

- أعتقد أننا نُناسب بعضنا وهذا يكفي.

- أوه! من فضلكِ يا بولي أخبريني عنه أكثر!

- لا.

- هل يُحبك؟

قفزت بولي من السرير مُبتعدةً عن فاني قليلًا: لن أقول شيئًا آخر، فأنا لم أعد أتحمل هذا النوع من الحديث، حسنًا؟

- حسنًا لا أريد أن أعرف شيئًا، فقط أردت أن أخبرك أن السيد ستيفني عبر عن اهتمامه بي مؤخرًا أكثر من مرة، كما أنه حرص على رؤيتي في عدة مناسبات، في الواقع لم أكن أرغب في تصديق ذلك الشيء حتى لا أخدع نفسي، حتى سألني أبي عن سبب اهتمام السيد ستيفني المفاجئ بي وحينها تأكدت أني لم أكن أتوهم.

قالت بولي: حقًا؟ هل حدث كل هذا؟ يا إلهي! كم أنا سعيدة يا فاني!

ابتسمت فاني ثم أمسكت بيدها وجذبتها إلى الأريكة وقالت في سعادة:

- حسنًا، تعالي إلى هنا حتى أُطلعكِ على بعض الصور التي أرسلها لنا توم هذا الأسبوع.

تأملت بولي الصور بعينين عاشقتين فانتبهت فاني إليها. فهي لم ترها تنظر بتلك الطريقة من قبل.

- انظري إلى هذه الصورة يا بولي؟ ألا يبدو وسيمًا؟

قالت بولي مُتنهدةً: أجل! إنه يبدو وسيمًا، وطريقة ارتدائه الثياب تغيرت كثيرا.

سألتها بولي بنبرةٍ مُتحمسة: هل توم هو الشخص الآخر يا بولي؟

كبلتها المفاجأة فتجمدت في مكانها ولم تنبس بكلمة.

- يا إلهي! كم أنا سعيدة يا بولي! لا تتخيلي مدى سعادتي أنكِ تمكنتِ من جعل هذا الوحش المفترس يقعَ في الحبِ!

- لست واثقة من ذلك؟

- وما الذي يجعلكِ تفكرين هكذا؟

- أظن أنه عليّ ألا أفكر في توم بعدما فسخ خطبته من تريكس. أظن أن ما أفعله هو شيء خاطئ.

- ولكن يا بولي...

قاطعتها بولي وقد بدا الحزن عليها:

- إن توم على علاقة بفتاةٍ أخرى قد التقاها في الغرب

- مَن أخبركِ بذلك؟

- أخبرني أخي نيد في رسالة، يقول إنها تدعى ماريا بيرو.

ضحكت فاني ثم قالت:

- هل أنتِ تتحدثين عن ماريا بيرو؟ يا لكِ من مسكينة يا عزيزتي! ذكر أخي توم اسمها مرة أو مرتين خلال تلكِ الرحلة. أعتقد أنه معجب بها فقط وليس مُغرمًا بها.

- لكني سألت أخي نيد عن تلك الفتاة، وقال لي إنها جميلة ومتعلمة ورقيقة فلماذا لا يقع توم في غرامها؟ أظن أنه من الجنون أن أستمر في حبي

لتوم. عليّ التوقف عن هذا.

بكت بولي بحرقة، جففت صديقتها دموعها المنهمرة على وجنتيها، وشعرت برغبة قوية في السفر إلى الغرب لإبعاد ماريا بيرو عن طريق أخيها وإحضاره إلى المنزل من أجل بولي.

- في الواقع يا بولي ما دمتِ لاحظت اهتمام توم بكِ، فقد كان معجبًا جدًا بشخصيتك لكنه كان ولدًا طائشًا يتصرف باندفاع كعادته مع أنكِ كنتِ صديقته المفضلة، ومع أنه كان يراكِ فتاةَ مثاليةَ فإني لم أكن أتوقع قط أن يُحبك يومًا، كنت متأكدة من أن علاقتكما لن تتخطى حدود الصداقة.

- أجل، أعرف أنه لا يحبني.

- على هذا الأحمق أن يُحبك.

أمسكت بولي برقبة فاني وقالت مازحة:

- إياكِ أن تخبري أي شخص بما قلته لكِ الآن يا فاني، أتعرفين إذا فعلت ذلك سأجعلكِ تندمين بشدة؟

ابتعدت عنها فاني وصاحت:

- ما خطبك يا بولي! لقد أخفتني حقًا! ما الأمر!

- إن أسوأ شعور على الإطلاق أن تُحبي شخصًا لا يحبك. إن هذا الأمر يجعلني أتصرف بغرابة شديدة، فلقد أصبحت أشعر بالخوف والغيرة والحسد، لا أعرف ماذا يحدث لي؟

- لست خائفة عليكِ يا عزيزتي. فأنا أعلم جيدًا أن كل شيءٍ سيكون بخير في النهاية لأنكِ إنسانة جيدة يحبها الجميع، فكيف لا يقع توم في غرامك؟ لا أعرف. أراهن أنه لو مكث في الديار مدة أطول بعد أن انفصل عن تريكس لاختارك دون تردد، ولكنه لا يستحقكِ، فأنتِ أفضل منه وستجدين أفضل منه.

- لا أريد شخصًا أفضل، فعلى الرغم من عيوب توم الكثيرة فإنه شخص مميز لديه قلب طيب، لا يهمني أن أرتبط بشخصٍ آخر أذكى أو أنجح لأني أحبه.

لو رأى توم وجه بولي في تلك اللحظة لعلم جيدًا أنها تحبه كثيرًا.

- لا أدري كيف بدأ حبي لتوم ولكنه زاد في الشتاء الماضي. كنتُ مستاءة منه في البداية لأنه متهور ومغرور ولكن شيئًا فشيئًا بدأت أرى جوانب أخرى من شخصيته. كان الأمر صادمًا. أثقل الهم قلبي، أشفقت على تريكس لأنها ارتبطت به، ومع ذلك كنت أحزن حزنًا كبيرًا كلما رأيتهما معًا، وأختنق إذا اقتربت منه. أصبت بالاكتئاب عندما رأيته مولعًا بها. كان علي أن أكرهه لأن هذا هو الحل الوحيد للخلاص من هذا العشق.

أتعرفين يا فاني؟ مهما كان حبي له عميقًا

وصادقًا، فإنني لا أرغب أن أراه يتعذب في حب امرأة أخرى، بل أرجو أن يكون سعيدًا، أتمنى أن تكون تلك الفتاة التي تعرّف إليها هي فتاة أحلامه، فأنا لا أطيق رؤية عينيه حزينتين.

حاولت فاني أن تهدئ بولي قائلة: لا تقلقي يا صديقتي، فتوم لا يكترث لهذه الفتاة على الإطلاق. أنتِ تضخمين الأمر دون سبب، لقد سألته عنها يومًا وكل ما قاله لي إنها فتاة لطيفة وإنه لا يملك وقتًا لهذا الهراء.

حل الشتاء، وعادت بولي ميلتون إلى حالة الكآبة التي كانت فيها. كانت تجوب الفناء بعينين مغمورتين بالدموع ووجه باهت كأن روحها انتزعت منها، كانت تسير بلا هدف حتى تصل إلى منزل آل شو لتزور فاني كالمعتاد. لكن هذه الزيارات لم تعد كالسابق، فالسيد ستيفني أصبح ضيفًا مستمرًا في منزلهم. ولكن الأمر اختلف الآن، فلم يعد يزورهم ليرى بولي الفتاة الريفية البريئة، بل أصبح يأتي ليرى حبيبته فاني.

على الرغم من سعادة فاني بزيارة بولي فإنها خشيت أن يعود ستيفني إليها مجددًا، ولكن خوفها تلاشى عندما رأته يصافحها كالأصدقاء، دون أن تتوهج عيناه بالحب والاشتياق. فسكن قلب بولي، وزاد فرح فاني.

لم تمكث بولي في منزلهم طويلًا وغادرت مكتئبة تمشي في الطرقاتِ على غير هدى.

استقبلت فاني بولي في الصباح مبتسمة، كانت تمشي بخفة وسرعة كأنها على وشك الطيران. لاحظت بولي هذه التغيرات في صديقتها، فسألتها بفضول:

- ما الذي يسعدك هكذا يا حبيبتي؟

- أتعرفين مَن سيتزوج قريبًا؟

لم تستطع بولي أن تخفي صدمتها عندما سمعت هذا السؤال، ظنت أن فاني تقصد توم! فقالت بارتباك:

- هل تقصدين توم؟ هل أخبرك بأنه سيتزوج؟

- لا لا. أرسل لي توم خطابًا أمس قال فيه أنه سيعود إلى البلاد الأسبوع القادم. وعندما سألته عن ماري، مدحها ولكنه قال إن قلبه معلق بغيرها دون أملٍ. أظن أننا سنحقق معه عند رجوعه لنعرف من حبيبته.

فرحت بولي وسألتها: إذًا عن أي زواج تتحدثين؟

في الحقيقة، طلب مني ستيفني الزواج!

صرخت بولي بدهشة وسرور: ماذا؟

- قال لي إنه كان معجبًا بي منذ البدء، ولكن إعجابه خفت تدريجيًا لأنني كنت أخطئ في كثير من الأمور على الرغم من نصائحه. ثم رأى فيكِ شخصا يستحق حبه، ولكنه ابتعد عنكِ عندما عرف أنكِ لستِ مولعة به. فرجع إليّ ووجدني

قد تغيرت للأحسن، فأحبني وطلب يدي. هل تصدقين ذلك يا بولي! أنا في قمة السعادة! قالت بولي: أنا سعيدة جدًا من أجلك يا صديقتي!

- لكن علينا ألا نخبر توم شيئًا عن هذا الأمر حتى يعود إلى الديار، أريد أن أفاجئه بهذا الخبر. حسنًا؟

- أجل بالطبع.

شعرت بولي بقلبها يخفق بسرعة عندما تخيلت لحظة قدوم توم بعد غياب طويل.

الفصل التاسع عشر

حينما دخلت بولي منزل آل شو في الأسبوع التالي، شعرت بأن هناك تغييرًا غريبًا قد حل بالمكان. وشمت رائحة عطر تنبعث منه وتلونه بألوان لم ترها من قبل. ابتسمت ابتسامة كبيرة عندما رأت مود تنزل الدرج بسرعة جنونية وتخبرها بأن توم قد أتى.

- لقد جاء! لقد جاء!

صاحت مود الصغيرة بفرح وقفزت من مكانها وصعدت الدرج بسرعة. ركضت بولي خلفها على استحياء. طرقت مود باب الغرفة ودخلت مع بولي. وما إن دخلتا، رأت توم يقف بجانب والده السيد شو.

لقد تحول إلى رجل آخر. كان يقف بأناقة ببدلته الرسمية، ويبتسم ابتسامة ساحرة. كان ينظر إليها بعينين لئيمتين تكاد تسقطانها أرضًا.

وقفت بولي ساكنة تنظر إليه بحب دون أن تفتح فمها كأنها نسيت كل حروف الهجاء.

- مرحبًا يا بولي، كيف حالك؟

- أنا بخير، كيف حالك يا توم؟

أجابته بصوت مرتجف كأنها لا تصدق أنها تحادثه الآن.

جلست بولي على الكرسي المجاور لسرير السيدة

شو المريضة، تسرق النظر إلى توم من حين إلى آخر، بينما كان يحدث والده عن عمله وأبرز مستجدات سوق التجارة العالمية. استمعت إلى هذه التفاصيل بشغف وانتباه، كأنها أصبحت خبيرة في هذا المجال. شعرت كأنه يروي لها قصة رومانسية. ظل الوضع على هذا المنوال حتى جاءت فاني من الخارج، وسارعت نحو أخيها توم وعانقته بحب ثم قالت مازحة:

- حسنًا لن أخبركِ بسري إلا إن أخبرتني بسرك أولًا؟

ضحك توم ثم قال لها:

- أخبريني بسرك أولًا.

- لقد خطبني ستيفني!

دهش توم فظنت شقيقته أن الخبر لم يُسعده: ماذا! لكن سرعان ما انفرجت أساريره وقال:

- أنا مسرور جدًا لسماع ذلك يا فاني! استعدوا أيضًا لخبر خطبة أخرى قريبًا!

في تلك اللحظة بالذات، شعرت بولي أن العالم قد انتهى، وأن الأرض توقفت عن الدوران. ماذا يحدث؟ عن أي خطبة يتكلم؟ هل خطب ماري التي يحبها؟ أم أنه وجد فتاة أخرى وأحبها؟ ما الأمر؟ تسارعت نبضات قلبها وشعرت بأن يديها باردتان. نهضت بسرعة وتسللت إلى الردهة ماشية على رؤوس أصابعها حتى تستطيع أخذ

حذائها المطاطي. فكرت في مقاسِ حذاء العروس المستقبلية. هل تلبس حذاء صغيرًا أم كبيرًا؟ جاء توم خلفها فجأة دون أن تشعر به. اقترب منها كثيرًا وهو يبتسم بسعادة وقال:

- هل تفكرين في الرحيل دون توديعي؟

تلعثمت بولي ثم قالت:

- في الواقع...

- ماذا؟ هل تريدين دعوتي إلى الذهاب معكِ؟

ارتعشت شفتاها، لم تكن تود أن تظهر له مدى سعادتها بسماع هذه الكلمات المفاجئة، فقالت:

- ظننت أنك لا ترغب في الذهاب معي!

- وكيف لا أرغب في ذلك، ولم أركِ منذ عام!

نظرت إليه شاردة دون أن تنطق كلمة واحدة.

- هل أنتِ بخير؟ تبدين نحيلة جدًّا؟ ما الأمر؟

- كنت أعمل فحسب، أنا بخير.

- لكني قلقِ عليكِ جدًا، إنك تبدين شاحبة.

- لا تقلق أنا بخير، اسمع يا توم، أريد أن أقول شيئًا لك، إني سعيدة لأنك وجدت فتاة أحلامك وخطبتها، أتمنى أن...

قاطعها توم:

- فتاة أحلامي! خطبتها! مَن قال لكِ هذا؟

- أتحدث عن ماريا بيرو، أخبرني شقيقي نيد

عنها، وقال إنك...

- في الحقيقة شقيقك من يود خطبة ماريا، وطلب مني أن أخبرك بذلك.

- وماذا عنك؟

- أنا أحب فتاة أخرى. هل ترغبين في معرفة اسمها؟ اسمها بولي!

توردت وجنتاها خجلًا.

- أجل أحبكِ يا بولي.

جلس الحبيبان إلى جوار بعضهما يتنفسان هواء الحب العليل لأول مرة. ودعتهما كآبة الشتاء بإذن الهوى وتركتهما يستمتعان بوقتهما معًا.

- أخبرني يا توم، كيف لي أن أعرف أنك ما زلت تحبني، وقد رحلت بعيدًا دون أن تنطق بكلمة؟

- وكيف أجد في نفسي شجاعة القول إن كنت أهديكِ روحي أغلى ما عندي.

- هذا كل ما أريده.

- كنت مُغرمًا بكِ يا بولي مذ رأيتُ عينيكِ الساحرتين، ولكن كلما حاولتُ الاقتراب منكِ، كنتِ تهربين مني كالفراشة الخجولة. تقدمت إلى خطبة فتاة أخرى لا أحبها حتى أنساكِ، وعندما رجعت إليكِ مرة أخرى، شعرت بأن الدنيا كلها في يدي. ما أجمل هذا الحلم.

- أعرف أني كنت أتصرف بغرابَة. كنت مراهقة لا تعرف كيف تعبر عن حبها العميق لك، لذا هربت منك ودفنت حبي في داخلي، وظللت أعمل بجد لأرضي نفسي وأنسى كل ما يُذكرني بك.

قَبلها توم على جبينها برفق وقال:

- سأمنحك السعادة التي تستحقينها يا بولي. سأجعلكِ أسعد امرأة في الأرض، أعدكِ بذلك.

اغرورقت عيناها بدموع الفرح وهمست:

- يكفيني من السعادة أن تكون معي. سأظل أحبك وأخلص لك حتى نهاية حياتي.

- سأظل أراكِ طفلتي الجميلة حتى النهاية.

قالت بولي مُحاولةً إغاظته قليلًا: حتى إن كنت فتاة قديمة الطراز؟

عانقها وقطع لها وعدًا أن يبقى يحبها حتى آخر حياته.

- سأضطر إلى السفر إلى الغرب مرة أخرى للعمل هناك مدة عام بعد خطبتنا.

- ماذا؟ ألن أسافر معك؟

- ستسافرين لاحقًا لكن عليّ أولًا أن أجمع مالًا كثيرًا لأني أنشد راحتكِ يا عزيزتي بولي.

- لا تخشَ شيئًا يا توم، فأنا أفضل أن أكون بجانبك دائمًا، حتى إن كان الفقر يُحيط بنا، يمكننا

التغلب عليه معًا.

- لكني أريدكِ سعيدة يا بولي.

- أنا سعيدة معكِ يا توم، يمكنني العمل معك في الغرب، حتى نبني حياتنا معًا.

- أحبكِ يا بولي.

- أحبك يا توم.

لعل القراء يودون معرفة مصير باقي شخصيات الرواية، ولذلك أقول لهم بأن فاني تزوجت من السيد ستيفني، ونيد تزوج من الفتاة ماريا بيرو، أما مود فلم تتزوج قط، بل أصبحت سيدة ناجحة في مجال الأعمال، وتولت إدارة شركة والدها السابقة، أصبح ويل -شقيق بولي الذي كانت ترغب مود في الزواج منه- راهبًا مشهورًا وتفرغ للعبادة، عاش السيد شو وزوجته في سلام وسكينة حتى موتهما.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook